وزارة الثقافة

إربد 2022 العاصمة العربية للثقافة

إصدارات إربد العاصمة العربية للثقافة 2022

بسام السَلمان

# الحارة القِبْليّة..
# حكاية الشركسية

رواية





الحارة القبلية..

حكاية الشركسية

● الحارة القبْليّة . . / حكاية الشركسية
● بسام السَلمان
● وزارة الثقافة
● الطبعة الأولى 2022
عمان - الأردن
ص.ب 132 - عمان
تلفون : 4621724
تلفاكس : 4637041
www.jowriters.org
Email:info@jowriters.org
● الاخراج : ناصر جرارعة

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2022/3/1238)

813.03
السلمان ، بسام أحمد مفلح
الحارة القبلية : حكاية الشركسية/ بسام أحمد مفلح السلمان .-
عمان : المؤلف ، 2022 .
(263) ص .
ر.إ : (2022/3/1238) .
الواصفات : الروايات العربية// الأدب العربي// العصر الحديث/ . .
● يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي المكتبة الوطنية .

ردمك : ISBN: 978-9957-94-867-2

بسام السلمان

# الحارة القِبْلَيّة..

## حكاية الشركسية

رواية

الى زوجتي ماجدة السقار،

«سحر»

كل الشخصيات والأحداث في هذا العمل الأدبي، وما يحتويه من أسماء وحوارات، هو من نسيج خيال الكاتب وتعبيره، وأي تشابه أو إشارة أو تطابق مع الأحداث الواقعية والأشخاص والأسماء والأماكن الحقيقية، هو محض صدفة وغير مقصود.

أنا مدين بالدرجة الأولى لله ثم لتلك السيدة التي روت لي جزءا كبيرا من أحداث الرواية، وإنني مدين أيضا للمهندس عبد الغفور الخطيب رحمه الله، والترحم على روح شيخي الفاضل المرحوم ياسين الجهماني لأنه أمدني ببعض أحداث الرواية.

بسام

-1-

## الجدة ستناي

كانت الجدة ستناي تقول إن الحياة لا تستحق الشقاء، وان العالم يبدأ من جديد مع كل ولادة، والحياة تستمر مع الحب، لكنها نسيت ان تقول لنا ان الحياة تنتهي ايضا مع الحب، ربما لم تقل هذا لانها قضت حياتها في صراع مع «حب راح وحب جاء».

وروت لنا الجدة ستناي ونحن جلوس بقربها حكاية كان لها تاثير كبير في حياتي، قالت:

«يروى ان شابة من عائلة غنية لم تسمح لها اسرتها بالزواج من حبيبها لأنه كان فقيرا جدا. هربت الشابة وحاولت الانتحار، ولكن حبيبها نجح في إنقاذها ومن ثم أعادها إلى أسرتها بسلام. لذلك قرر زعماء القبيلة أنه إذا كانت الشابة مستعدة للانتحار من أجل حبيبها، فيجب السماح لهما بالزواج.

ومنذ ذلك الوقت قرر زعماء القبيلة ابتكار تقليد جديد يخطف بموجبه الشاب الشابة، وإذا نجحت المهمة، سيكون على عائلتها السماح لها بالزواج من ذلك الشاب».

كانت تجلس بقربي طفلة اصغر مني بقليل قطعت هذه الطفلة كلام الجدة ستناي وقالت بغضب:

- لا يجوز يا جدتي أن تروي هذه الحكايات أمام أشخاص من غير الشركس، هذه القصص وهذه العادات للشركس فقط.

نظرت الجدة الى وجوهنا، تبسمت فظهر طقم اسنانها الصناعية، هزت رأسها وقالت:

- هذا تاريخنا يا دعاء وهو تاريخ للإنسانية كلها.

لم يعجب جواب الجدة ستناي دعاء، نظرت إليّ وابتسمت ابتسامة لم أفهم مغزاها في ذلك الوقت وقالت:

ما للشركس للشركس ولا يجوز أن يشاركنا فيه أحد.

قالت الجدة ستناي: ما للشركس للعالم والعالم كله للشركس، جئنا قبل تأسيس الدولة وشاركنا في كل شيء، ونحن ما نزال كما كنا وسنظل كما كنا. الشركسي بطبعه يرد الخير بالخير ولا يقابله بالشر.

قهقهت دعاء مشككة بكلام الجدة: العرب أقرب الناس للشركس.

نظرت الجدة إليها نظرة غضب وقالت:

- اقرب مثال على ما اقول جلستنا هذه، وابنيْ سناء وعمر أمين وانتم.

عادت دعاء إلى سخريتها، ضحكت بصوت عال وقالت:

- الشركسي يا جدتي شركسي والعربي عربي.

لم تعر الجدة ستناي أي أهمية لكلام دعاء وتابعت كلامها: المكان الذي ولدت فيه عبارة عن بلدة باردة الى درجة ان اللون الابيض كان يغطي كل شيء، ولم تكن تعرف اشجارها وجبالها عنها

شيئا اكثر من انها بقعة بيضاء. وعندما تركناها هروبا بأرواحنا وانفسنا واعراضنا جئنا الى هذا المكان والذي رغم انه كان خاليا الا انه استقبلنا بمحبة واصبح وطنا لنا ولكم ولاجيالنا من بعدنا.

ضحكت دعاء مرة أخرى مما دفع الجدة إلى أن تقول لها:

- ليس من أخلاق الشركسيات مقاطعة كلام الكبار بالضحك.

اعتذرت دعاء عن تصرفها الذي استغربه كل من كان يجلس قرب الجدة.

قالت الجدة ستناي:

- أنت يا دعاء رغم صغر سنك إلا أنك لست بالهينة.

ابتعدت بعينيها عن الجدة ستناي، التفتت دعاء اليّ وقالت:

- لن نسمح نحن جيل الابناء والاحفاد لأي شيء أن يغير من عاداتنا، عاداتنا التي نحميها بأرواحنا ودمائنا.

لا ادري لماذا اشعر إن دعاء تكرهني، وربما اكون قاتلها في يوم من الايام ويكون موتها على يدي، أشعر أحيانا أنها تكره حتى اسمها ولا تحب نفسها، رغم أنني أجد فيها نوعا من جمال الانثى المميز، لكنها عندما تلبس وجهها الآخر تجلهي ارى إبليس يتلبسها ويحكي بلسانها وبلغتها.

سناء ودعاء توأم من رحمين مختلفين، كنا ننادي على دعاء باسم ننوش وننادي سناء باسم سنو «snow» والتي تعني الثلج، وكما يقال كانتا توأماً غير متشابهين، كانت دعاء جميلة جدا وللأمانة قد تكون أجمل من سناء، لكنها تشبهها باللون وطول الشعر وبالجسم،

وكانت سناء تحب دعاء جدا، وكانت دعاء تمارس علينا وخاصة على سناء إرهابا بشكل عشوائي، كانت تجرها إلى اي مكان تريده بحجة حبها لها وحمايتها.

لم نكن نعرف أن من الحب ما قتل، لا نعرف ذلك إلا بعد ما رأينا حب دعاء لسناء، كانت دعاء تريد من سناء أن تكون الفتاة الشركسية الكاملة، حتى اسم الدلع «سنو» كانت ترفضه وكانت تقول: اسم سناء اجمل ويناسبك أيتها الاميرة الأديغية، وتقصد بالاديغة الشركس.

وكانت تقول: الأسماء ترتبط بنا كالقدر وهي التي تختارنا ولسنا نحن من يختارها، إنها تدل على ما نحن عليه وما نحن فيه، واسمك يا سناء جميل، اسمك اكثر من حضور واكثر من ظهور واكبر من اي تصغير ودلع أو تحريف، اسمك عنوان الأصالة والحرية والانطلاق، اسمك يحمل الرتبة العالية من الشرف والرفعة، أنت ضوء شركسي، ضوء عال وكريم، ولأنك الشرف كله لن أسمح لك حتى بتغيير اسمك.

قالت سناء إن دعاء كانت تنام في أيام العطل في غرفتها، وكانت تطلب منها أن تسمح لها بأن تنام في سريرها واحيانا بجانبها وعلى وسادتها، وإنها كانت تجمع شعر رأس سناء المتساقط على الوسادة وتحتفظ به.

وقالت: تعبث دعاء بكل أشيائي وتفتش كتبي ودفاتري، تبحث فيها عن أشياء، عن كلام حب أو غزل وكانت تقول لي: احذري أن

تأخذي أوراقا من أي كان، سواء كان بنتا أو ولدا، وكانت دعاء تعبث بملابسي وأحيانا تخرجها من خزانتي ثم تعيد ترتيبها بالشكل الذي تراه هي مناسبا، وكانت تسألني عن أي شيء تراه في غرفتي، عن علبة عطر أو مكياج او غطاء راس جديد، تسألني من أين ومن الذي اشتراه لي، حتى عن حذائي المنزلي كانت تسألني: من الذي اشتراه لي؟ وكانت تشك في كلامي، عندما اخبرها أنني اشتريته عندما ذهبت مع أمي إلى السوق ظنت أنني كاذبة، سألت أمي لتتأكد، سألتها بطريقة ذكية عن المكان الذي اشترينا منه الحذاء لأنها تريد شراء واحد مثله.

كانت تعترض على طريقة لباسي المدرسي وتسريحة شعري وتمنعني من أن أضع أي شيء ملون على شعري وتقول: يجب أن لا تلفتي انتباه الأولاد لك.

واخبرتني سناء أن دعاء كانت وراء منع خروجنا معا كل صباح يوم جمعة لشراء طعام الفطور من الحمص والفلافل وقالت لأمها: سناء صارت صبية ويجب أن لا تخرج إلى السوق برفقة غريب.

ومنذ ذلك الوقت لم نخرج معا كما كنا نخرج دائما طفلين صغيرين، وقالت سناء إن دعاء ظلت تطلب من أمها أن تجبرها على ارتداء حجاب الراس حتى رضخت أمها لها وأجبرتها وهي ابنة العاشرة على ارتداء غطاء الراس.

كانت في صباح الجمعة توقظني من نومي وتساعدني في ترتيب ملابسي وغرفتي، وحتى تختار لي المكان الذي سوف أجلس

فيه لتناول طعام الإفطار، وكانت تتبعني مثل ظلي، ورغم أني أحبها جدا إلا إنني كنت أرغب بقليل من الخصوصية، وفاجأتني في صباح يوم عيد الأضحى، كانت تنام في سريري، طلبت مني أن تغسل لي شعر راسي. كانت سعيدة جدا، سعيدة لدرجة أنني انزعجت منها، كانت سعيدة حتى بوضع الصابون على راسي ودعكه باصابعها، ورأيت السعادة في الطريقة التي كانت تحرك أصابعها بين خصلات شعري وتداعب جلدة راسي، فرح غريب، فرح لم أره بعيني أمي عندما كانت تغسل لي شعري وانا طفلة صغيرة.

وكانت تتغزل بشعري كالعاشق الولهان المتيم بحبيبته، وبعد أن تنشفه تقوم بتمشيطه ثم تصنع منه ضفيرتين وكانت تقول:

- خليه هيك مثل كل الشركسيات، لا تتركيه منثورا.

تخيل أنها كانت تبحث عن أي فرصة، مهما كانت صغيرة لتكون معي، وكأنها حارسي الشخصي، ورغم تدخلها بكل صغيرة وكبيرة في حياتي الا أنني أحبها جدا وما زلت أعشقها.

قلت في نفسي: وانا اكرهها واخشى أن اكون قاتلها.

**

قالت الجدة ستناي: دعاء طفلة شقية، أخشى عليها وأخاف منها.

-2-

## خمس نساء وثلاث مدن

اسمي عمر امين، او الدكتور عمر امين، تعني لي اسرتي كل شيء، فانا مزيج من ام رمثاوية واب بدوي وزوجة اب شامية، قد يسأل البعض لماذا حشرت زوجة ابي مع والدتي ووالدي، زوجة ابي كانت امي الثانية، لم تتوان في أي لحظة عن تربيتي وتعليمي والعناية بي، سافر ابي الى الشام لمدة اسبوع وعاد ومعه فتاة تبلغ من العمر عشرين عاما، كان اسمها جميلة وهي جميلة جدا، تزوجها بعد أن ترك الرمثا وهاجر إلى عمان هجرة بلا عودة.

ولدت في الرمثا وعشت حياتي في عمان ودرست الطب في باريس، هذه المدن الثلاث رغم تناقضها وتباعدها في كل شيء إلا أنها وطني، لا استطيع إنكار انتمائي لأي مدينة منها. فيها ولدت جسدا وقلبا وفكرا.

وفي حياتي خمس نساء، لا أفرق بين إحداهن، لكل واحدة من هؤلاء النساء عالم خاص في نفسي وفي قلبي وفي ذاكرتي، استطاعت كل واحدة منهن أن تزرع في صدري شجرة، وتثمر هذه الشجرة ثمرا طعمه طيب لا يمكن أن أنساه أبدا. كل واحدة من هؤلاء النساء لها دور في تغيير نظرتي إلى الحياة، رغم أن كل

سيدة منهن تنتمي لمجتمع مختلف وثقافة مختلفة عن الاخرى. لا ولن انكر ان هناك نساء اخريات في حياتي إلا انهن مررن مرور الكرام ولم يكن لهن في حياتي اي أمر او حدث يذكر.

امي، مريم، سيدتي الأولى التي ولدتني وابعدوني عنها في طفولتي قهرا، ابعدوني عن أمي مرتين، فآليت على نفسي أن لا ابتعد مرة ثالثة، بداية لم أجد الشجاعة والإرادة على الحديث عنها أو حتى السؤال عنها، ربما حتى وقت قريب وقبل عودتي من باريس لم أشعر أني راض عن نفسي إلا بعد أن قررت أن اتحدث عنها.

تزوج ابي من أمي وهي في الرابعة عشرة من عمرها، كان ابي الولد المدلل لجدي، كان وحيدا وكان جدي غنيا، دبر امر زواجهما بطريقة تقليدية، لم تحب أمي ابي، او بمعنى ادق لم تكن تعي اي معنى للحب، كانت طفلة لا تعرف عن الحياة الزوجية شيئا، كانت جاهلة إضافة إلى أميتها، وتعامل معها ابي بفوقية وذكورية واضحة وكأنما أراد أن تكون خادمة في البيت لا زوجة. فلم تتصدر أمي قائمة اولويات ابي، رغم انه لم يكن يعمل شيئا إلا إنه كان دائما يُظهر لها انه مشغول عنها بأمور كثيرة اهم من ان يجلس معها باستثناء النوم الذي كان يظن أنه مكرمة منه لها.

وقد ولدت انا عمر امين بفضل الله ثاني ايام العيد الكبير «عيد الاضحى»، فكانت ولادتي عيداً بالنسبة لأبي والفرحة الكبرى كانت لامي، التي كما روت لي انها ظنت انها ستصبح بعد ولادتي سيدة الرمثا الاولى كونها زوجة اغنى رجل في القرية وظنت انها

ستصبح سيدة قلب والدي الذي فرح فرحا كبيرا خاصة بعد ان أصبح اهل الرمثا ينادونه «ابا عمر» وكان يمسد على شاربيه كلما سمع كلمة عمر عندما يناديه بها احد الاصدقاء.

ولقد باحت لي بعد مدة طويلة انها رغم أنه لم يمض على زواجها اشهر قليلة بمخاوفها من ان لا تحبل فيتزوج عليها امرأة ثانية هذا إن لم يطلقها، فأبي منذ ليلة الدخلة قال لها: عجلي بالحبل، اريد طفلا احمل اسمه ويحمل اسمي.

واضافت امي: وذات صباح وقد سافر والدك الى الشام ذهبت الى طبيبة القرية، وهي فاضلة وورعة وحاذقة بالطب، كانت تزور امي باستمرار، ذهبت برفقة امي وقبل ان تحدثها بامري، نهضت بصعوبة بالغة عن فرشتها، وفتحت صندوقا خشبيا كان مركونا بزاوية من زوايا غرفتها المتواضعة بأثاثها واخرجت منه عشبة لحد الان لم اعرف اسمها وقالت: تغلي هذه العشبة وتصبني منها سبع قطرات في كأس ماء دافئة وتقدميها الى ابن عمك وتعيدي الكرة ثلاثة ايام.

اخرجت جدتك من صدرها كل ما كنت تحمله من نقود ووضعتها بيد تلك المرأة، ولم تمضِ إلا سبعة ايام حتى بدأ اصاب بالغثيان.

وقالت امي: اما ابوك فقد بلغ به الرضا عن نفسه وراح يخبر الناس في كل مكان من اجل ان يعرفوا انه رجل ودليل رجولته حبل زوجته.

لكن امي لم تصبح سيدة الرمثا الاولى ولم تتربع على قلب ابي، وظل ابي كما كان، ينظر إليها على انها متاع كاي قطعة اثاث اشتراها لبيته. وكبرت أمي ونضجت وصارت تعرف أن علاقتهما لم تكن عميقة أو قوية، لكنها كانت تعترف لنفسها أن كل علاقات أزواج القرية تقليدية ولا يربطها الحب، بل يربطها الذكر والأنثى، الرجل والمرأة، السيد الآمر الناهي المستجاب له وهي الخادمة المطيعة الملبية لكل احتياجات افراد الأسرة من الذكور وحتى من النساء.

وعندما كانت تخبر جدتي بمعاناتها مع أبي، كانت تقول لها: الزواج مودة ورحمة، تودي له لكي يرحمك.

حتى جدتي كانت مقتنعة أن الرحمة مكرمة من أبي يقدمها لأمي إذا هي توددت له وأطاعته، وكانت تقول لأمي:

- حتى وإن غضب منك او صاح عليك أو حتى ضربك فعليك أن تصفحي عنه لان الزواج صفح وتسامح.

وكنت انا عمر امين اتصدر اولويات أمي فلا شيء يعلو فوق صوتي ولا شيء يتقدم أمامي.

كان أبي يتبلى عليها، كان يشتمها، ولم يكن يحترمها كزوجة أو حتى كإنسان، لم يثق بها، عموما لم يعد يثق بالنساء وربما كان سبب زواجه من فتاة شامية لأنه لا يريد أن يعرفها أحد. ولكي يجعلني أنسى أمي زرع في فكري منذ طفولتي انها ماتت واجبر زوجته الشامية على مسايرته في كل شيء.

لكن أمي تزوجت ممن كان سببا في طلاقها، تزوجت قريبها الذي كان في سجون الاحتلال، قالت لي ولا أدري مدى صدق قولها، قالت إنها كانت مخطوبة له قبل أبي، ولم يقبل أبي أن يكون هناك إنسان آخر في حياتها، خاصة بعد أن عاد إلى الرمثا وراح يجول في شوارعها بحجة استنشاق الهواء الرمثاوي والتعرف على التغيرات التي حصلت في القرية.

كان أبي يجبر زوجته على الكذب، ورغم انها ربتني أحسن تربية وعطفت عليَّ وكأنّي ابن رحمها إلا انها كانت تكذب عليَّ، دخلت بيتنا كزوجة أب، كانت تشفق عليَّ، كنت طفلا منطويا على نفسه. كانت العلاقة بيني وبين زوجة أبي مختلفة، معقدة للغاية، فهي من ناحية زوجة أبي بعد أمي، ومن ناحية أخرى كانت تلك السيدة التي تعرف الكثير عني، بل اكثر مما ينبغي لزوجة الأب ان تعرفه عن ابن زوجها الوحيد. كانت تتقن الكثير من التفاصيل الصغيرة جدًا وتحرص على العناية بها، تفاجئني في كل مرة أنها لم تنس ما احب وما اكره.

يوم دخلَت زوجة أبي إلى بيتنا، كنتُ طفلا صغيرا ما زلت أبكي على أمي التي اخبروني انها ماتت، لم يتأخّر أبي عن استبدال أمّي فور موتها بأخرى تصغره بعشر سنوات.

كانت المسكينة في بداية حياتها الزوجية خائفة وكأنّها دخلَت وكر ضبع، ولم تكن مخطئة فلقد كنتُ شاهدًا على معاملة أبي السيّئة لأمّي وصوت بكائها لم يُفارق اذنيَّ حتى اليوم. ولو كنتُ

قادرًا على ذلك، لقلتُ لزوجة ابي أن تهرب بعيدًا.

لم افعل لأنّني كنتُ اخاف مِن والدي، فقلبه كان اسود على النساء بسبب ظنه بامي سوءا، لا يعرف الرحمة او الحبّ. كان ابي قد جلَبَ زوجته السورية ليُرضي غروره كرجل ويُثبت للجميع انّه قادر على الحصول على امراة اجمل من امي وخير منها، اي بضاعة طازجة بحسب قوله، امّا هي، فبالطبع لم تختَرِه، بل خضَعت لقرار أهلها الذين باعوها لرجل قدّمَ لهم ما كانت تطلبه أنفسهم. باعوها ونسوها لأنّها كانت «مجرّد انثى»، هي اخبرتني وقالت لي إنها كانت ترغب في حياة غير حياتها وإنها كانت تريد الزواج في بلدها قرب أهلها وإخوانها واخواتها، ولكن وللأمانة وحتى لا أظلم أبي فقد تغيرت معاملته لها بل إنه أصبح خاتما في اصبعها فيما بعد، لم اكن اعرف سر تغير ابي معها إلا انني فيما بعد وبعدَ ان نضجتُ علمتُ منها كيف استطاعت ترويض ابي والسر في هذا التغير.

حزنت في بداية الامر لأنّ ابي تزوّج جميلة لأنّني كنتُ اعلم ما ينتظرها، ولكنني بعد ذلك سعدتُ بعد ان وجدتُ فيها اما رحيمة ورؤوما مسحت دمعتي واحتوت وحدتي وحزني.

عاملها أول أيام زواجها وكأنّها خادمة له وأداة متعة، وكنتُ اسمعُها تبكي بعدما ينتهي مِن معاشرتها بوحشية. كنتُ أودّ لو أواسيها ولكنّني لم اكن اعرف السبب الذي جعل جميلة تبكي، خاصّة اني صغير السن ربما كان ذلك لأنّني ادركتُ انّ والدي كان

طاغية وأنانيا وكنت اخاف أن يعاقبني ويحقد عليّ.

لم تكن جميلة كما يُروى دائماً أن زوجة الأب مخلوقة شريرة هدفها الوحيد إبعاد أولاد زوجها أو تعنيبهم. وكنتُ أعتقد ذلك أنا أيضاً، لكنها كانت غير ما ظننت، حينها أدركتُ أنّني أمام إنسانة طيبة وحنون.

كانت جميلة تقارب امي في السن وتشبه السيدة الباريسية من أصول اسبانية التي التقيتها صدفة وتعلمت على يديها معنى الحرية وعشق الوطن وحب الحياة.

قالت لي في إحدى المرات التي كنا نجلس فيها معا:

- الدنيا عالم صغير، ونحن لا نساوي شيئا في هذا العالم، ويجب أن نعيش حياة ترضينا وترضي العالم الصغير الذي نعيش فيه. وسيأتي يوم نفقد فيه الإحساس بالوقت ويصبح الزمان في ذاكرتنا عبارة عن ضوء برقٍ وصوت رعدٍ نسمعه ويختفي إلى الأبد.

زرتها في أحد الايام في منزلها، جلسنا معا في قاعة صغيرة مليئة بالصور، بعد ان صنعت القهوة وأحضرتها، جلست على المقعد المقابل لمقعدي وبكت، سألتها: ما بكِ؟ لم تجب، رشفت قليلا من فنجان قهوتها الكبير، وضعته أمامها، سألتها مرة أخرى: لماذا أنت حزينة، حزينة جدا، يظهر الحزن والألم على وجهك.

لم تتكلم، فقط شربت قهوتها وصمتت.

قلت لها بعد أن رشفت قليلا من فنجان قهوتي الذي أعدته بنفسها:

- يتألم قلبي مع آلامكِ وأنتِ لا تدرين من أين تبدئين؛ فكل ما حولكِ قد يبدو للناظر من بعيد مثالياً، لكنكِ متعبة ومثقلة بالهموم، والأصعب من ذلك ان احداً لا يشعر بما تشعرين به، ما الأمر الكبير الذي جعلك حزينة وقد حققتِ ما تريدين، حتى ولو كان صعباً وله تبعاته؟ أنت تعيشين عيشة يحلم بها الكثيرون ويتمناها كل الناس، ربما كان الأمر كبيرا.

نزلت دمعتان من عينيها، بكت بصمت، رفعت راسها وهزته، فهمت إنها لا تريد أن تتكلم، قلت لها:

- لا تكترثي.. أعلم أن كل ما تمرين به في داخلكِ يؤثر عليكِ وعلى حياتك وحياة أسرتكِ الصغيرة.

فجاة قالت: إنه زوجي، وسكتت.

زوجك؟

قالت:

- من الصعب أن تنظر حولك فترى الفوضى في كل مكان، حتى أنك لا تستطيع النهوض من سريرك فتكتفي بأن تقول إنك متعب. تخشى من نفسك أكثر إذا نهضت، فحتى البكاء لا يريحك، وتتعب من مجرد الإحساس بأن عليك القيام بأي عمل؛ حتى لو كان من ضمن اهتماماتك أو كان يجلب لك المتعة والفرح.

صمتت قليلا، راحت تنظر لصورة معلقة على الجدار، صورتها مع زوجها التقطت لهما خلال حفل زفافهما، عادت ببصرها اليّ وقالت:

- قد يذهب بنا خيالنا بعيداً؛ فربما تنتظر الموت مقتنعا أنك به وحده سترتاح، وتقول لنفسك إنه افضل لك ولمن حولك. وثق انني ادرك جيداً أن مصدر المي الدفين هو ذلك المرض الصعب الذي لا يبدو ظاهراً امام اعين الآخرين، نحن نفقد مشاعرنا مع من نحب وندرك وقتها اننا يجب أن نتوقف.

- ارى دموعاً في عينيكِ؟ وقد تكون لامست كلماتي مشاعركِ التي ظننتِ انكِ فقدتِها؟ لا بأس يا صديقتي، إبكي فالبكاء وُجِد لتفريغ مشاعرنا وإخراجها على شكل دموع متناثرة، ومن الضروري يا عزيزتي الاّ تكوني وحدكِ.

شكراً لأنكِ اخترتِ ان تشاركيني مشاعركِ وبعض ما تمرين به من الم وحزن ووحدة. إن مجرد الحديث في وضع كوضعك امر صعب جداً؛ وانا متأكد من انكِ بذلتِ مجهوداً جبَاراً لتتحملي ظرفك. من الضروري أن يكون لدى كل منا شخصٌ يسمعه وهو في اسوا حالاته، صديق او ام او زوج، او حتى لو خشيتِ من رد فعلهم فيمكنك اللجوء إلى أخصائية نفسية، ومن المهم الا تبقي وحدكِ في حزنكِ.

- اظن ان كل شيء انتهى.

مع انها كانت طاهية جيدة للطعام، فلقد تنوقت اشهى المأكولات الفرنسية والاسبانية من يديها الا انها لم تعد لديها شهية للاكل، واصبحت تعيش بأقل قدر من الطعام، كانت امرأة قوية، تتمتع بقوة استثنائية لمعالجة اي مشكلة قد تعتريها، وكان

وجهها الجميل يشعّ بهالة من القوة والسلطة، كانت ترفض الاعتراف بالهزيمة، لكنني هذه المرة رأيتها اضعف انسان اقابله.

قلت لها:

- قبل أن تقومي باي خطوة، فإن إخراج مشاعركِ ما أمكن ضروري جداً لكي تتعاملي معها وترتاحي بعد إفراغها، البكاء والدموع إحدى طرق إفراغها، والحديث مع من تثقين به وسيلة أخرى، وإذا تعذر ذلك لأي سبب، فاحضري اوراقاً وقلماً واكتبي ما تشعرين به ما أمكن، انتِ الآن متعبة وبحاجة إلى «نقاهة نفسية» إن صح التعبير.

ابتسمت صديقتي الاسبانية وقالت: انت دكتور طيب جدا يا عمر امين.

سألتها مازحا: ولكنك لم تخبريني ما به زوجك؟

قالت: فيما بعد.

اعادت لي كلمتها «انت طيب يا عمر» كلام الجدة ستتاي التي كانت دائما تقول لي: انت طيب يا عمر امين، الجدة ستتاي شريكتي في سرد هذه الاحداث، ورفيقتي في حب وعشق المرأة الخامسة، وشريكة في جريمة تسببت بها رسالة كادت تقتلني وتهلك المرأة الخامسة.

قلت لها في إحدى الليالي التي كانت تقص علينا فيها عن ابطال الشركس: أتمنى لو كنت شركسيا.

كنا نجلس حولها، وكنت استمع بشغف كبير وانصت وكأني الجالس الوحيد بقربها، وكأنها لا تحكي إلا لي وحدي، كررت لها ما قلته «بدي أصير شركسي» وضعت الجدة ستناي يدها ذات التجاعيد البيضاء على راسي ومسحته وقالت:

- انت شركسي. الم تأكل من طعامنا وتشرب من ملتنا وتجلس في بيتنا؟ انت رفيق بنتي سناء.

كانت جملتها الأخيرة من اجمل وارق الكلمات التي سمعتها في حياتي، احسست بأن عشقي الطفولي لسناء ترجمته جدتها بكلماتها البسيطة وجعلت نفسي ترتاح وتطمئن. لكن دعاء رفيقة سناء لم ترتح لجواب الجدة فسألتها:

- هل تتزوج الفتاة الشركسية من غير ملتها او غير شركسي؟

ظل جواب الجدة رفيق طفولتي وشبابي رغم تأكيد سناء أنها لي ولن تكون لغيري.

تفحصتنا الجدة ستناي بهدوء، بدءا من عندي مرورا بسناء حتى وصلت إلى دعاء وكأنها فهمت الذي ترمي إليه دعاء وقالت:

- الزواج من شخص ينتمي إلى قومية أو خلفية مختلفة عن الزوجة أو البنت مغامرة كبيرة جدا، تؤدي في أحيان كثيرة إلى فشل الزواج وإلى التقليل من قيمة الزوجة لأنه لن يستطيع -وأقصد الزوج- تقدير قيمة زوجته حسب عاداتها وتقاليدها، إلا إن كان يجمعهما حب عظيم وهو غير موجود في عالمنا الآن.

وضعت دعاء يدها على خصرها النحيل وقالت:

- اللي بياخد من غير ملته بيموت بعلتو... واللي بتاخد من غير ملتها بتموت بعلتها.

أبعدت يديها عن خصرها ووجهت كلامها لسناء وقالت:

- الشركسية اللي بتاخد من غير ملتها بتموت بعلتها...

ضحكت وحدها، تمنيت في تلك الليلة لو استطيع صفعها على وجهها كي تسكت، لكنها ظلت تضحك معلنة انتصارها، وقتها نهضت وغادرت بيت والد سناء حزينا إلا أن سناء في اليوم الثاني عندما التقينا قالت لي إنها لن تكون إلا لي، هذه الكلمات جعلتني أنسى ما دار في ليلة الامس.

لكن الجدة ستناي حذرتني من دعاء ذات مساء وقالت لي ولسناء: هذه البنت شقية وربما تكون من يشقي غيرها بتصرفاتها، لم ار في حياتي أحداً يتشدد بعاداتنا وتقاليدنا مثلها، لا ادري من تشبه هذه البنت.

وخامسة النساء التي قتلتها بيدي دون قصد، كانت جميلة جدا، ترافقنا معا في طفولتنا، وفي شبابنا، عمانية الهوى، شركسية الجمال، سناء التي حوت كل صفات النساء اللواتي عرفتهن بدءا من أمي مريم ومرورا بصديقتي الإسبانية وانتهاء بجدتها ستناي.

سناء مانحة وواهبة الروح، ملهمة الروح، بهذه الصفات كانت تصفها الجدة ستناي، وقد انطبق عليها معنى فتاة في اللغة الشركسية، هي أميرة بما تحمله من صفات طيبة كما كانت تقول

عنها دعاء، وقد أصبحت حياتي من دونها ظلاما لانها العين التي كنت ارى فيها.

قالت الجدة ستناي في أوراقها:

- تتزين الفتاة الشركسية بتاج الأدب والجمال وهو دليل العنفوان ورمز تقاليدنا العريقة، المرأة يا بني عند الشراكسة سر الحياة، وهي واهبة الحياة، ولأجلها يكون الرجل فارسا وبها يكون رجلا.

المرأة يا بني هي كل جميل في الحياة، هي الربيع للكون وهي الكرامة للانسانية وعلى يديها يتربى الرجال، ومن كلماتها الأولى نتعلم حب الوطن وحب الإنسان. وخلق الرجل يا بني ليكون فارسا نبيلا، والفروسية تعني أن تكون قويا، قويا في عقلك وفي قلبك وفي بدنك، فاليد الضعيفة لا تستجيب للقلب القوي والقلب الضعيف لن تنفعه اليد القوية.

وكتبت الجدة ستناي:

- القلب الشجاع والجسد القوي يحتاجان إلى عقل حكيم يعرف متى يخرج السيف من غمده، ومن حكم الأجداد «سيفك لا تخرجه من غمده إلا للضرورة، واذا أخرجته لا ترجعه لغمده إلا مغمسا بالدم».

وتذكر يا بني أن الحب عند الشراكسة مقدس، فالحرب عندهم حب، حب الوطن وحب الكرامة والفرح عندهم حب، حب للحياة، المرأة عندهم حب، حب للوجود وللبقاء، الوطن عندهم حب، فلا معنى

لوجودك دون وطن ولا معنى للوطن إن لم يكن فيك وتكن فيه.

وقالت الجدة ستناي:

- أرسل لي نارت يوما كلمات كتبها على منديل، نسجها بخيوط ذهبية قال فيها:

«اطلبي وسأنزل لك الشمس من كبد السماء قبل أن تسقط الكلمة من فمك..

من اجلك سأجعل شعاع الشرارة ينطلق ضوءا من قطعة الجليد..

إذا لم يكن بين ضفتي النهر جسرا سأجعل من نفسي جسرا لتمري عليه»(*).

التقينا ذات مساء، كانت ترتدي معطفا ثمينا، وكان يلف خصرها النحيل حزام مصنوع من خيوط شعر الماعز والغنم المذهب، أهدتها إياه جدتها ستناي، أقبلت بقامتها الفارعة المشدودة، تملك بشرة بيضاء مع بعض الاحمرار الوردي، تتميز بلونها الأبيض العاجي، تملك وجنتين ورديتي اللون وشفتين موردتين، ولها حاجبان دقيقان وعينان براقتان جميلتان، عينان لوزيتان غامقتان مع أهداب كثيفة، عيناها اللوزيتان يتسابق اللون الأخضر مع الأبيض في أيهما يظهر بوضوح اكثر، كانت تملك جسدا رائعا وتمتلك ليونة فائقة لخصرها، معتدة بنفسها وواثقة

---

(*) الشاعر اسحق مشباشثة.

جدا، دون تكبر، معتزة بأنوثتها وجمالها دون غرور أو تعجرف، تتحرك فيتحرك معها الحياء والأدب.

سرنا معا، قطعنا عددا من شوارع عمان، راقبنا السيارات قليلة العدد وعددنا الأشجار التي مررنا بقربها، كنت أضع يدي بيدها الناعمة، كنا لم نزل طفلين. أخبرتني في ذلك اللقاء وذات المساء أنها منذ اليوم لن تخرج معي، ولما سألتها عن السبب قالت إنها كبرت وأصبحت صبية.

وعندما كبرنا كبرت معنا أحلامنا، استيقظت في ليلة ماطرة شديدة البرودة، كان فجرا مختلفا، قضيت ليله ارق، تقلبت طوال الليل في فراشي، غفوت قليلا، زارتني أحلام مختلفة، وبقيت طوال الليل اتارجح بينها وبين يقظة مليئة بالهواجس، غفوت قليلا بعد ان تخلت عني كوابيسي، استيقظت على حلم جميل اكتشفت فيه رجولتي، هذا الحلم يرافقني في كل مكان وزمان، أنا لست ملاكا ولا نبيا، كنا في عمر تُستفز فيه جميع حواسنا الجسدية وحتى النفسية، نداء الرجولة والأنوثة، كانت عيناي في أحيان كثيرة لا تتجاوزان عنقها المسدل عليه غطاء راسها، اصفن أحيانا وهي امامي، انظر إلى جسدها، أرحل بحلم اليقظة خلال ثوانٍ إلى سنوات قادمة وأعوام انتظرها، اتمنى لو اختصرها بلحظات ويتحقق حلمي ونكون معا، ارغب فيها واريدها.

في تلك الليلة، صحوت قبيل الفجر على حلم أراح نفسي وجسدي في وقت واحد، حلم بلل روحي وملابسي، كنا فيه البطلين،

صحوت منه فرحا وكم هي المرات التي تمنيت أن يعود هذا الحلم إليّ لكنه لم يعد.

كنت في اليوم الثاني أحدثها عن حلمي، واشركها في تفاصيله لكنني توقفت فجاة في منتصف الفكرة، إنه حلم سيئ ولا يجوز أن أعيشه حتى في الأحلام، هو بداية لقاء الجسد بالجسد.

كانت بداية التحولات عندي، التحولات التي اقتحمت حياة طفل يودع طفولته ويطرق بوابة الشباب، كانت امرأة رغم صغر سنها، كل شيء فيها يقول إنها امرأة، لم أشعر بها تكبر إلا بعد ان تم منعها من الخروج معي حتى لشراء الفطور الصباحي كعادتنا صباح كل يوم جمعة، قالت لها جدتها ستاي: أنت كبرت ويجب أن تلتزمي البيت.

عندما كنت ازورهم مع زوجة أبي كنت أجلس خاشعا امام عينيها أستنشق عبيرا لا يختفي ولا ينضب، رائحة طيبة لا تموت، أرى تحت رمشيها تاريخا من العشق، يتمدد، لا يغادر، لا يعرف سكينة أو هدوءاً. فحضور صورتها لا يتلاشى أبدا، فراشة تطير وتعود أجمل من السابق، أحببتها جدا، كانت كلوحة تجعل من يراها متعلقا بها ومدمنا عليها لا يستطيع إشاحة بصره عنها، كنت أطيل النظر إلى جسدها، تفاجئني بنظرة حادة، ادرك مصيبتي وذنبي وينتشر الخوف في جسدي، ارتعب، فاسترد بصري المتعلق بجسدها وأجول هاربا في مساحات جدران غرفة الجدة العالية المعلقة عليها صورة لجدها الفارس آدمر، يرتدي معطف الساكوا وعلى رأسه القبعة الصوفية القلبق وعلى خصره خنجر الساشقوا بنصله الحاد.

## -3-
# أبي

غير أبي مسكن أسرتنا في عمان ثلاث مرات وكان السبب أن ابي كان يغير عمله في التجارة باستمرار، في بداية الأمر سكنا شارع رأس العين، اختار أبي الموقع لأنه كان يزخر بالفعاليات التجارية والصناعية والرياضية والاجتماعية.

سكنا في هذا الشارع ما يقارب السنة، كان بيتنا أول طلوع المصدار، كان جارنا صاحب بقالة سعودي الأصل كان يناديه ابي «العقيلي» وكان إضافة إلى انه صاحب دكان كان أيضاً معروفاً كصراف للنقود إذ كان يتعامل معه سكان هذه المنطقة وغيرهم وكذلك باعة الحلال والقوافل القادمة من السعودية لبيع الحاجيات والماشية، ارتاح أبي لمجاورة هؤلاء الناس ظناً منه انه سينجح بتجارته في مكان كهذا.

وكان مقابل بيتنا نبعات ماء كانت سيارات تنكات الماء تقف لتعبئة الماء ومن ثم نقله وبيعه للأماكن التي لم تصلها آنذاك خطوط ومواسير مياه الشرب. وكان أمام هذه النبعات بالقرب من جسر المهاجرين على الشارع العام مقهى فخم اسمه مقهى الانشراح جلس فيه أبي مرتين او ثلاثاً خلال اقامتنا في المنطقة.

انتقلنا بعد ذلك إلى جبل عمان، وكانت حجة أبي أن التجارة في جبل عمان لها مردود كبير وافتتح محلا لبيع الملابس، كان البيت كما قالت زوجة أبي اكثر تواضعا من بيتنا في شارع راس العين.

المسكن الثالث الذي اشتراه ابي كان في راس العين، في الطرف الآخر من بيتنا القديم، اصبح لنا بيتنا الخاص وكان اول بيت ذا أهمية بالغة، على الأقل بالنسبة لي، لأن البيت ملك لنا ويعتبر كبيرا بالنسبة للبيوت التي كنا نسكنها. وافتتح أبي محلا جديدا لبيع الخضار والفواكه بعد خسارته في تجارة الملابس.

لم يكن نبع راس العين يبعد عن بيتنا الجديد إلا امتارا قليلة، كان السيل يجري ويخترق عمان ويقسمها قسمين، وكان حي المهاجرين قريبا من بيتنا، هذا الحي اقام فيه الشركس بيوتهم من الطين والأخشاب والقصب.

لم يكن أبي بارعا في التجارة فعلى ما يبدو انه لم يكن يمارس اي عمل في قريتنا، كان الفتى المدلل، وعندما ترك القرية كما علمت فيما بعد، باع املاكه كلها فاشترى بيتنا بجزء من المبلغ والجزء الآخر كان معينا له في حياتنا وعلى راي زوجة أبي «مع الأيام صار أبوك تاجرا».

عندما تزوج ابي كاد يطير من الفرح، رغم قسوته إلا انه كان فرحا، أما انا فكنت طفلا صغيرا، لا اذكر مثلا اني غضبت او أن الدنيا أصبحت سوداء في عيني. لكني لا اخفي أنني بهذا الزواج

قطعت الأمل بأن تعود أمي من جديد ونعيش ثلاثتنا تحت سقف واحد، وفيما بعد قتل هذا الامل.

عندما كبرت قليلا واقتنعت ان أمي ميتة، رحت اسأل نفسي: كيف كان شعوري حين تزوج ابي؟ لا ادري اهو الحزن ام الخوف ام خيانة ابي لروح امي. لكني فيما بعد ارتحت لزوجة ابي بعد أن كنت أشعر بالغيرة منها لأن ابي كان بالنسبة لي كل شيء.

ولكن هل شعرت بالذنب بعدم الوفاء لامي بعد أن حلت زوجة ابي مكانها في كل شيء؟ هذا السؤال لم يكن له إجابة واضحة في ذهني.

فأنا لم احاول ان انغّص عيشة زوجة ابي او اشعل الخلافات بينهما على أمل أن ينفصلا. لم أخبر أبي حتى عندما كانت تعاقبني لأي ذنب كنت ارتكبه، لم افعل ذلك لأني كنت ابحث عن الأمان والسلام وكنت دائما اتذكر قولا لمعلم اللغة العربية نقلا عن أحد الحكماء: «من يسيء إلى عائلته لا يحصل على شيء».

طبعا، ليس سهلا أن تعيش تحت سلطة شخص جديد في العائلة. فحين تطلب منك زوجة أبيك شيئا ما، ربما تقول دون تفكير: «لست امي!». صحيح أن هذا الجواب قد يفشّ خلقك لكنه يكشف عن قلة نضج.

حتى عندما كانت تؤدبني أو تعاقبني على خطأ ارتكبته ويعلم أبي بالأمر منها فإنه كان يقول لي «إنها تحبك وتحمل همّك».

مع الأيام بدأت اشعر في بيتنا الجديد أنني أنتمي إلى أسرة

مكونة من ابي ومن زوجته التي أحبتني وصارت تأخذني معها في زياراتها للجارات ردا للزيارات التي قامت بها نساء الجيران لبيتنا محملات بالأطعمة والحلويات تعبيرا عن ترحيبهن بنا على أساس أننا سكان جدد، كانت نساء حارتنا شاميات وشركسيات وفلسطينيات وبدويات، كنت أشعر بالسعادة عندما نلتقي مع أبناء الجيران في بيتنا او في بيت احدهم، وزادت محبتي لها عندما زارتنا والدة سناء. كانت هي وشقيقتها الكبرى برفقة والدتهما.

مهما بدا صوت اللقاء الأول باهتا وخافتا، ومهما توارى واختفى، سيظل في ثنايا القلب، ويبقى لأنات اللقاء الأول مذاق لا يُنسى، هكذا كان لقائي الأول بسناء، ما أروعه من لقاء، كان تأثيره قويا عليّ، عرفت من ابتسامتها الجميلة كم كان قلبها كبيراً رغم صغر سنها، ملكت القلب والمشاعر. كان الحب الأول، الحب الذي يأتي للإنسان وهو في بداية حياته وبلا تجارب أو خبرات، كان بداخلي رغبة شديدة وعطش لا مثيل له للإحساس بالحب وتذوق حلاوته.

●●

دغدغت الطفلة الشقراء مشاعري بغنائها، عشت النظرة الأولى والبسمة الأولى، وكانت الحيرة الأولى، اختلفتْ عن كل النساء، فلقد جعلتني أعيش أجمل قصة حب في حياتي، نتبادل رسائل الورق الملونة بالأزهار والقلوب النقية، وقتها شعرت أنها خلقت مختلفة من أجلي.

معها كنت أنسى قسوة الأيام وغابة المشاعر المليئة بالأشواك التي تحيط بي. كتبت لها ذات يوم أسترضيها بعد ان تسببت بغضبها:

«أتذكرين ذاك الصباح الجميل الذي جاء بعد ان فرغت السماء من ندف ثلجها ولون جبال عمان بصفاء الأبيض؟ أتذكرين كيف شعرنا أنّ طوفانا من السعادة يحاصرنا، أنا وأنت، أتذكرين سواد عينيّ؟ كنت تصرين على انهما مليئتان بالحزن، لكنهما كانتا مليئتين بالدفء والحنان. وقتها نظرتِ نظرة طويلة، وقلتِ:

– حزنك يملأ عينيك.

كلا لم يكن حزنا بقدر الاشتياق إليك.

«حبيبك المخلص عمر امين».

عشنا اجمل الأوقات، قضيناها معا، نلهو في شوارع حارتنا دون ان يشك أي من الجيران بحبنا.

عندما انهيت دراستي في المدرسة، سافرتُ الى العاصمة الفرنسية لدراسة الطب، وكان يرافقني أمل الرجوع والزواج وانتظرتِ عودتي بشوق، لم اكن أعلم يومها اني سوف أسلم نفسي لشيطان ووساوس تجرني إلى دروب تختلف عن دروبك الطاهرة. لكنها الرسالة اللعينة.

وجدت باريس قصيدة جميلة خلعت عن نفسها سوادها، كانت مدينة على مقاسات النفس، والنفس امارة بالسوء.

وكتبت لك عن العاصمة الفرنسية، عن جنونها وحبها، عن الفوضى التي خلفتها الحروب، عن الأصدقاء، وأجواء صفوف الجامعة، عن نهر السين الذي يخترق باريس. السين الذي ينبع بالقرب من دريجون في شمال فرنسا وينساب عبر باريس إلى القنال الإنجليزي مارا من تحت جسور بعضها يتجاوز عمره الـ300 سنة.

إحدى المرات كتبت لك وأنا على ظهر قارب صغير، كتبت لك وأنا أمر بالحي اللاتيني وجامعة السربون وحدائق لوكسمبرج وبرج ايفل والشانزليزيه والتروكاردو منتهيا بكاتدرائية نوتردام في جزيرة المدينة.

وكتبت لي عن عمان وجبالها وأشجارها وأدراجها، أدراجها التي تشبه العمود الفقري في ربطها للأحياء بعضها ببعض، وكتبتِ عن سهرات الصيف وليالي رمضان وأجواء الشتاء والثلج ورقصة الضباب على الأدراج ورائحة الخشب المبلل، عن تلك الرائحة التي تنطلق من المدرج الروماني.

أنت متورطة بحب وعشق عمان، اعترفت في إحدى المرات انك تحبينها أكثر مني، تداركت الأمر وقلت:

- انت قلب عمان الذي يعيش في قلبي.

وكتبتِ ذات شتاء:

«ان عمان مدينة خرجت من الحكايات، مدينة تشبه النساء الشاميات المليئات بالأمومة والرقة والألم، تشبه جواري الف ليلة

وليلة، وصوت تساقط المطر على جبالها يشبه صوت الكمنجة، عمان تشبه كل شيء جميل».

●●

قالت جدة سناء السيدة ستناي زاهر في إحدى اوراقها:

كانت عمان تعج بجنسيات مختلفة، الشركس والشيشان والشوام والأرمن والاكراد والمقدسيين والحجازيين إضافة الى سكان المناطق القريبة منها. بنى زوجي ادمر بيتا لنا من الطين في حي المهاجرين بالقرب من بيت والدي وحماي، سقف البيت بالطين والخشب والقصيب، ترجع أصولنا الى بلاد القفقاس، هاجرنا عام 1892.

ينتسب الشركس جميعا في أساطيرهم إلى النارتيين، يا الله ما اجمل اسم نارت، نارت الفارس الشجاع، ورجال الشركس يمتازون بالشجاعة والحكمة والبطولة ومعنى كلمة نارت «ن-آر- ت» «عطاء الأم»، ولنارت وستناي قصة لا يعلمها إلا من يقرا هذه الأوراق، أطلق عليّ ابي اسم ستناي تيمنا بامنا ستناي.

والأم والمرأة الشركسية «ستناي» هي الشخصية الأولى في أساطير نارت الشركسية ومعنى ستناي «مانحة الروح» وهي بذلك تشبه كل آلهات المنح والعطاء في الحضارات القديمة مثل انانا السومرية وعشتار البابلية وإيزيس المصرية وآرتيمس اليونانية وإيرينا الحثية.

ستناي هي أم النارتيين جميعا وهي الآلهة والأم الكبرى:

«أنت تسلبين كل من ينظر إليك

الكل متلهف لرؤياك

يا أمل الشباب الدائم

يا هبة الحب الغالية».

قيل في الروايات الشفهية القديمة: كان الشراكسة يمارسون عادة يضحي بموجبها أحد الشباب بنفسه في سبيل شعبه ووطنه. وهنا الشاب يدعى وفقاً لهذه الرواية «ته لّي» أي العطاء الزائد.

كان ذلك يحدث عندما يقع الشعب في ضيق عظيم جراء ظهور عدو تشكل قوته خطراً على الوطن، عندها كان يبرز أحد الشباب ويعلن للملأ انه يقدم روحه قرباناً للوطن، وعندما حاصر الروس قرانا عقد مجلس قريتنا الحربي «خاسة» اجتماعاً حاشداً واختاروا نارت ليكون ذاك الشاب واستدعوا شقيقته الوحيدة إلى المنصة، وضعوا أمامها قطعة قماش لمعطف شركسي «تسي» بلون أحمر، ووجهوا إليها كلاماً لطيفاً حسب التقاليد بمناسبة هذا الأمر الجلل، وبمجرد أن عمل المقص الذي اخذته منه في هذا القماش، اعتبروا أن حياة الفارس نارت قد انتهت بالفعل. تقدم اكبر الزعماء سناً ووضع على رأسه خوذة مزخرفة تشبه «التاج» وأعطاه سيفاً وخنجراً شركسياً «قامة». كانت الخوذة مطلية بماء الذهب عادةً، اما غمد «القامة» فمن الذهب الخالص، بينما يكون غمد السيف مغلفاً بالجلد الأحمر، قدموا إليه أسلحة يهاجم بها العدو فقط، دون أن يقدموا إليه اي شيء يدافع به عن نفسه، وما إن استلم نارت

أسلحته حتى قطع على نفسه عهداً، رفع نلرت صوته امام الجموع التي كانت في ساحة القرية: «سأنقضُّ على الأعداء قاطعاً كسيف بتار، محلقاً كسهم نافذ، دون أن يعرف الوجل طريقه إلى قلبي، قد تهتز هذه الأرض تحت قدميّ ولكني أعاهدكم بأن لا يهتز لي جفنان، قد تنطوي السماء على نفسها خشية ووجلاً، ولكنني أعاهدكم بأن لا يعرف الخوف طريقه إلى قلبي. قد يصبح المستحيل ممكناً فتلتقي السماء بالأرض، ولكن ليس من الممكن أن أتراجع».

كنت وقتها بين الجموع أشاهد لحظة وداع البطل نلرت ولم يكن أي أحد من الحضور يعلم عن النار المشتعلة في صدري، كانت تلك اللحظات آخر مرة أشاهده فيها.

وقالت في إحدى المرات:

- لا أحد يضحي بنفسه لأهله وزوجته أكثر من الشاب الشركسي.

●●

قالت سناء «اختار جدي ادمر السكن في هذا الحي لأنه قريب جدا من نبع راس العين، مناطق زراعية، ووجود غابات الأشجار على ضفتي السيل الكبير أغرى أسرتنا بالسكن فيه. ولتسهيل حركة السكان أقيم في المنطقة جسر المهاجرين، اتتذكره؟ كم مرة مشينا عليه ونحن طفلان؟».

واضافت سناء: «أجمل اللحظات التي كنا نقضيها ركضا في زقاق السكر وزقاق قانون وبشقوي والأشرفية والزعمط. كنا

نشتري الماء من السقاية، يحضرونها على الدواب، وكنت مع بنات عمي نسترق أحيانا بعض الوقت، نذهب إلى السيل لملء القرب، نملأها من حنفيات مثبتة على أعمدة من الإسمنت المسلح، كانت فرحتنا كبيرة ونحن عائدات وقرب الماء تقطر ماء على رؤوسنا».

كانت المياه تتدفق من نبع راس العين، تسيل ناشرة الخير والحب في كل مكان، النبع الرئيسي لعمان، يسقيها في الصيف والشتاء، يخترقها ويقسمها إلى قسمين، يغذي البساتين ويسقي الناس، كنت أجلس مع أبي في أوقات متفرقة نصطاد السمك.

كانت مياه السيل تجف في منتصف الصيف وتبقى بعض الحوامات حيث كنا نسبح فيها ونصطاد السمك، كنا نشتري صنارة صيد من سوق البخارية ونربطها بخيط مصيص إلى قصبة طويلة ونضع في منتصف الخيط فلينة، كنا نأخذ الفلينة من غطاء زجاجة ونضع الطعم في الصنارة، كان الطُعم عبارة عن دودة نحصل عليها من جذر نبته الخبيزة البرية، فإذا علقت السمكة تهبط الفلينة فتسحب الخيط حاملا السمكة. وكنا أحيانا نصطاد ضفدعا حيث كانت تكثر الضفادع وأبو ذنيبة بعد جفاف السيل.

في أحد مساءات الربيع خسرنا ابن حارتنا وابن صفي ممدوح، كنا في الصف الثاني الابتدائي، اقترب ممدوح أكثر من اللازم من حافة السيل فانزلقت قدماه وسحبه السيل ولم يجدوه إلاّ جثة هامدة عند حاجز في الزرقاء، كان ممدوح الطفل الشركسي

الأشقر الجميل والذي كان موته رادعا لنا لعدم الاقتراب من السيل او من الحوامات.

في أحد الأيام التي سمح لي أبي أن أرافقه إلى السيل، كان الوقت عصرا، جلسنا متقاربين، لم نكن بارعين في صيد السمك، ولم نكن نعود الى زوجة أبي ولو بسمكة صغيرة إلا ما ندر، لم يكن من طبع أبي الكلام، كان يحب الصمت، في ذلك اليوم صفن طويلا، نظر إلى مياه السيل التي تسير ببطء شديد، رفع راسه، نظر إليّ وقال:

- لم تحبني أمك قط، ربما كانت تحترمني او تخاف مني لكنها لم تحبني.

أعاد نظره إلى الماء، سكت وكأنه لن يتكلم أبدا بعد أن قال جملته التي صدمتني، لم أتوقع أن يدلي بمثل هذا الاعتراف، رأيت في عينيه دمعة منعت رجولته الشرقية أن ينزفها، لكنه صدمني باعترافه، انتظر مني أن أقول له شيئاً، هو يعرف أنني مثله قليل الكلام، أنا بطبعي قليل الكلام، ألتزم الصمت في مثل هذه الأمور، أعاد النظر إليّ، حدق بعيني وقال:

- حاولت أن أجعلها تحبني لكن الحب في القلب وقلبها لم يكن...

سكت ولم يكمل كلامه، حدق في مياه السيل، نظر إليّ وقال:

- إياك يا عمر أن ترتبط بإنسان لا يحبك.

نهض يريد المغادرة، نهضت معه، أشار إلي بيده وأجلسني.

قال لي:

- إجلس قليلا مع نفسك أرغب بالعودة للبيت وحيدا.

تركني وحيدا، كنت في الخامسة عشرة من عمري، جلست في مكاني مستقبلا سيل عمان، لم أنظر إليه وهو يغادر.

مشى قليلا ثم عاد وقال:

- ربما إن أمك لم تكن تعرف كيف تعبر عن حبها، كانت طفلة.

مسح على راسي وقال:

- إنس كل ما قلته لك اليوم.

ثم تركني ومضى مستعجلاً. وبدأت أفكر بكلمات أبي القليلة: هل صحيح أن أمي لم تكن تحب أبي؟ ولماذا لم تحبه؟ ولماذا سكت ولم يكمل «وقلبها لم يكن...»؟

هل تهمة أبي لأمي كاذبة وهل يتبلى عليها؟ يكون الكاذب ضعيفاً وتافهاً ولا يخيف احداً ولا يحبه احد، رغم ذلك احسست بكلام أبي، بصدقه رغم الصراحة الجارحة فيه، بقيت وحيدا أفكر، فكرت ان أخلع ثيابي كلها واقفز في مياه السيل، تابعت التفكير بكلام ابي، ورغم اتهامه لأمي إلا انني شعرت بسعادة غامرة لحديثه وصراحته ومشاركتي سره.

## -4-
## هجرة

كنت مغمض العينين وأتنفس ببطء، انتظر سماع صوت الباخرة معلنة ساعة الانطلاق، انطلقت الباخرة نهار الاثنين. كان يوماً طويلاً من الانتظار في ميناء بيروت، التقيت وقبل صعودي إلى الباخرة بلحظات بشاب لبناني، قال لي إن اسمه إلياس ولم أخبره انا عن اسمي، ليس لشيء إنما لم أجد من الضروري أن يعرف اسمي، قال لي إنه مسافر للعمل في فرنسا ولم يقل لي إلى أي مدينة يرغب الذهاب للعمل، وانا ايضا لم أخبره عن وجهتي، سألني إن كنت مهاجرا للعمل، لم أجبه، صمت وعندما حان وقت صعودنا إلى السفينة قال لي إنه يرغب بأن يكون رفيقي في هذه الرحلة إن لم يكن لدي مانع، هززت له برأسي موافقا ثم حملنا حقائبنا وصعدنا إلى ظهر السفينة التي ستقلنا من ميناء بيروت إلى ميناء مرسيليا.

رغم خوفي من البحر الا انه كان خلاصا لكل الهموم التي حملتها معي في قلبي وفي حقائبي، عندما قررت السفر الى فرنسا قالت لي الجدة ستتاي «سافر البحر»، البحر يطهر نفسك من الهموم ويخلصك من الخوف، لا تخف منه، انا جربته عندما طردنا

من قريتنا، كانت اول مرة اسافر فيها، رحلنا على ظهر باخرة في البحر الاسود.

سكتت قليلا وكانما تذكرت شاطئ البحر الاسود القريب من قريتها، ترددت في مواصلة كلامها، ثم قالت: القيت كل شيء في البحر، دفنت كل اسراري هناك، لم احملها معي، خفت ان يعرفها احد ما فتكون المصيبة، سوف تستمتع باجواء بيروت والاسكندرية واركليون وبيريوس اليونانية وجنوى ومرسيليا، كان ابي يحدثني عن هذه المناطق وانا صغيرة. اهرب يا عمر امين بهمومك الى البحر الكبير والقها في منتصفه.

ابحرت السفينة تحمل على ظهرها المئات من المهاجرين الراحلين عن أوطانهم، أطلقت صافرتها معلنة بدء الغربة والاغتراب، كان حلمي كبيراً كالبحر، كنت ما ازال طفلاً حاول أن يكبر وينضج في بلد غريب، كانت غربتي الثانية طويلة وواسعة كالبحر.

كثيرة هي الظروف التي تضطرّنا لاتخاذ قرار الابتعاد عن الديار والعيش في بلد غريب. واقع جديد يواجهك بمفردك أو برفقة أحد أفراد أسرتك أو صديق أو رفيق سفرك، لن يكون سهلاً مهما بلغت درجة تكيّفك مع المتغيّرات، ومما لا شكّ فيه أنّ هناك غصّة كبيرة تترافق مع تحضيرات السفر، فأنت ستترك البيت وما يعنيه من انتماء للأرض والأهل والحبيبة والأصدقاء ومكان الدراسة والعمل، إنها الذكريات التي تشكّل حاضرك، ستحفظها

في خانة الذكريات لتنطلق في بداية جديدة ومجهولة.

قال لي أبي عندما ودعني:

- الغربة يا عمر كالبحر الهائج يغرق فيها من لا يجيد السباحة.

وقالت زوجة أبي بعد أن ضمتني إلى صدرها: تسلح بالإيمان والعلم تتخلص من غربتك وتحمي نفسك.

تزداد الغربة سوءا إذا كنت مرغما عليها وبغير إرادة منك، وكم هي الأشياء التي نفعلها في حياتنا رغما عنا؟ مئات بل آلاف هجروا من ديارهم بعيدا عن أوطانهم يوم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وحتى في رحلة الغربة كان الموت حاضرا في كل خطوة، الغربة ليس كما يظن البعض رفاهية وعملة صعبة، الغربة جوع وموت دهسا أو غرقا أو من شدة البرد والكثير ممن اغتربوا لم يكونوا أحسن حالا، الحقيقة أن الغربة فاجعة يتم إدراكها على مراحل، ولا يُستكمل الوعي بها إلا بعد أن تعيشها بآلامها وحلوها ومرها.

وعلى راي رفيقتنا في رحلتنا البحرية رجوة الفلسطينية «أكثر ما يشغل المغترب ليس الحسّاد ولا الحاقدون ولا قوت اليوم ولا حتى الموت أكثر ما يشغله هو الإجابة عن تلك الأسئلة اللعينة التي تغيب فتعود أكثر ضراوة، ماذا بعد؟؟ ما هي مفاجآت المستقبل؟؟ هل هناك أسوأ؟؟ وتبقى أسئلة كثيرة حول المستقبل ولياليه السود».

هزت الفتاة الفلسطينية رأسها وقالت بحزن وأسى: اكتوينا

بنار حرقة بعدنا عن أهلنا وعن وطننا، وذرفنا الدموع علّها تخمد ببرودتها حرقة الاشتياق حينما يشتد بأروقة القلب، أو تذيب بحرارتها صقيع الوحشة الموحشة وسط حشد كبير من الذكريات لملامح الوجوه وروائح الأمكنة.

شدت انتباهي هذه المناضلة الفلسطينية وانستني جزءا من غربتي، كانت رجوة فتاة هاربة من لبنان، او ذاهبة للبحث عن شيء ما، امرأة في حدود الثلاثين قالت انها ليست هاربة انما تبحث عن قضيتها، رحت اتقرب منها بجسدي واحلامي ممنيا النفس أن تكون رفيقتي في غربتي وتخفف عني الألم، فلقد وجدت فيها الكثير من المرأة التي أحلم بها دائما خاصة أنها اغتربت إلى فرنسا لهدف كبير تريد تحقيقه وأعتقد انه لن يكون الزواج.

كنت اقف واياها قريبين من سياج الباخرة، كان الوقت قريبا من الغروب وقد دنت الباخرة من الجزيرة اليونانية، كان اغلب الركاب في قمراتهم يجهزون انفسهم للنزول في الجزيرة، لن يطول انتظارنا هناك، ما هي الا دقائق حتى خرج الركاب بصورة كبيرة واندفاع عظيم، وكانهم هاربون من سجن، قلت لرجوة التي حملت حقيبة يد على كتفها وتستعد للنزول في الجزيرة «هل من الممكن ان نتواصل بعد وصولنا إلى باريس؟

ابتسمت، معبرة عمّا يجول في داخلها، بطريقة مهذبة، اعطت ابتسامتها جمالاً لوجهها مؤكدة استقراراً وسلاماً داخلياً، قالت: لا اعرف لنفسي اي عنوان.

أعرف أنني سأواجه ومنذ اليوم الأول تجربة وامتحانا قاسيين، مشاعر لا تترجم إلا عن طريق دموع تنهمر بسخاء، ستفاجئنا كلمات تخنقنا عند سماع صوت يشبه أصوات أحبتنا، أو نرى ملامح تشبه هيئتهم أو وجوههم، فالمشاعر واحدة عند المغتربين في أي مكان وقلائل جدا من المغتربين اختاروا غربتهم بمحض ارادتهم، بل هي فرضت عليهم، فالانسان كتلة من لحم ودم، مشاعر واحاسيس وعواطف يتأثر سلبا وايجابا بمجريات حياته.

التقيت على ظهر السفينة بمجموعة من المهاجرين العرب، الباحثين عن حياة في الغربة، خرجنا من ميناء يعرفنا ونعرفه إلى أرض وسماء تنكرانا وننكرهما. فرنسا التي تدعي أنها بلد الحريات ستملك حريتنا لانها بعيدة كل البعد عن الحرية، هي عدوة العرب الأولى، هجرتنا كانت للدراسة والبحث عن العمل والمال. كنت فتى قليل التجربة. بدأت غربتي الثانية بعيداً عن الأب والأم التي ربتني. لا يوجد معي شيء سوى الإيمان.

بعد ان صعدنا من الجزيرة اليونانية نمت، ربما مر عليّ وقت طويل وانا نائم، رغم انني افقت من نومي متعباً وكأني لم أنم قط، أفقت على صوت إلياس وهو يرتدي ملابسه محاولا ان لا يخرج صوتا يوقظني من نومي، سمعت حركته الخفيفة، سألته: إلى أين؟ قال: الى سطح السفينة. وقبل ان يخرج قال: التقيت بعدد من العرب واتفقنا ان نزيد تعارفنا. وسألني إن كنت ارغب بالانضمام اليهم. وافقت ونهضت استعدادا للخروج لاكمل سهرتي فوق الباخرة

العملاقة والتي تظهر وكأنها تطفو في السماء.

بعد دقائق قليلة لحقت بإلياس ووجدته يجلس مع مجموعة من الشباب والفتيات، كان ظهر السفينة وكأنه مهجور، وكنا رغم أننا نجلس متقاربين بأجسادنا إلا أننا كنا وكأننا نجلس على انفراد، كل واحد منا يحمل في قلبه همه الخاص. وقبل ان يصل جسدي الارض قالت راحيل، فتاة سورية: تستغرق رحلتنا مدة طويلة. نظرت اليها محتجا لانها لم تسمح لي بالجلوس والاستقرار، فخفف من توتري العراقي خطاب وقال: اهلا دكتور عمر، اخبرنا إلياس أن اسمك عمر وانك ذاهب الى باريس لدراسة الطب. شكرته على ترحيبه بي، ابتسم لي وقال:

- المهم أن نصل بسلام.

ضحك إلياس وقال ساخراً:

- أن نصل على ظهر السفينة أفضل مائة مرة من امعاء السمك.

مالت الفتاة الفلسطينية رجوة بجسدها نحوي وقالت:

- البحر كبير، كبير جدا، حشد كل قواه في مواجهة هذه السفينة التي تحمل على ظهرها قلوباً مكسرة، وذاكرة محطمة مغتربة، تسير على ظهر امواج عاتية، تحاول هذه الأمواج تحطيم وتدمير السفينة ولكنها تتسلح بقوة من ركبوها فتكسر الأمواج او تتكسر الأمواج تحتها.

عندما اقبل الليل علينا فتح البحر كل المواجع والأحزان، ففي

الليل تستيقظ الذكريات، وتصحو المواجع ويعيش الإنسان الأمل والألم معا. ومنذ هذه الليلة بدأت عندي أسئلة الغربة الطويلة. وحدي ساعيشها. الغربة قاسية، غربتي طويلة ولا أدري إلى متى تستمر.

كانت السفينة تسير في الليل وسط البحر المتوسط، كنا نسمع اصوات امواج البحر تتكسر امامها، صوتها في الليل مخيف، وبعد صمت متوقع قال خطاب:

- البحر المتوسط كبير مليء بالأسرار، وكثيرة هي الأسرار التي ألقيت فيه، وكثر هم الذين خاطبوا البحر وأودعوه أسرارهم.

قال إلياس:

- البحر الأبيض بحيرة كنعانية لسكان بلاد الشام لآلاف السنين، كل من سكن شواطئ المتوسط هم أبناء للبحارة العرب. ملامح اليونانيين عربية، وملامح وقسمات ووجوه الإسبان عربية، أجساد النساء في مرسيليا عربية.

ضحكنا عندما ذكر أجساد المرسيليات. لم يعجب الامر راحيل، او انها ارادت اهانتنا، قالت: هذا ما يهم الرجل العربي.

ذهبت أنا وإلياس إلى مطعم السفينة وأحضرنا خمسة فناجين من القهوة، عدنا إلى رفاقنا الثلاثة، جلسنا بين راحيل ورجوة، ثلاثة رجال وامرأتين شربنا قهوتنا، كان هذا اللقاء الأول لنا الذي يجمعنا على ظهر سفينة الغربة، كانت السماء جميلة بالنجوم التي أضاءتها.

جلسنا في نصف دائرة قرب إحدى قمرات الباخرة والقمر يطل علينا وسط تكسر الأمواج التي تشبه موسيقا سمعتها قبل سنوات لكنني لم أعرف اسمها. تذكرت تلك اللحظات التي كنت اجلس فيها وأنا صغير قرب سيل عمان كنت اشتهي الجلوس أمام شاطئ البحر مع نسيم الليل، ولم اكن اتوقع يوما أن اكون وسط البحر في ليل مظلم أسمع صوت أمواجه دون أن أراها، ورغم خوفي من البحر إلا أن منظره الجميل خاصة مع سطوع القمر ازاح خوفي وبث الطمأنينة في صدري، كان القمر يضيء كل شيء حوله، واقتراب بعض الغيوم المضاءة بضوء القمر، يجعل هذا المشهد الليلي اكثر إشراقًا، ربما سرق هذا المنظر من قلبي الخوف وزرع مكانه الاطمئنان.

كانت رجوة تظهر عشقها لفلسطين، وكنت اظهر لها حبي أو خجلي الذي يرافقني في كل مكان، رجوة فلسطينية الاصل وتعيش في بيروت نظرت الى البحر وقالت:

- البحر يذكرني بعكا وتكسر الأمواج فوق أسوارها.

قلت محاولا التقرب منها: كل مكان يذكرنا بفلسطين.

لم تعجب مداخلتي راحيل، جرت الحديث الى جهة اخرى عندما قالت: الغربة تذكرنا بأهلنا وأرضنا.

أشعل الشاب العراقي خطاب أبو الحجول سيجارته، كانت عيناه رطبتين بدموع استقرت فيهما، لكن الخجل منعه من إظهارها. قال:

- تركت في بغداد قلبا يتقطر الما.

سكت قليلا فسكتنا.

ثم تابع:

- تركت عجوزا تبكي ابنها البكر. ابنها الذي ربما لن يرجع إليها.

فرك عينيه لمنع دمعته التي تكاد تنزل وقال:

- كانت أمي تريد تزويجي وتفرح بي. ولكنني قررت الهجرة للعمل. أريد التخلص من فقري.

وقال إن أمه قالت له:

- الرزق على الله والغربة قهر والسفر قطعة من جهنم.

وقال:

- وقفت بجانب أمي العجوز، أمي أرملة منذ عشرين عاما، وقفت بجانبها، كنا نقف قرب نخلة طويلة، قديمة قدم العراق، كانت يدها اليمنى تقبض على يدي بقوة، هي تعلم أني سأهرب، تعرف أنني لا بد أن أطير لمكان بعيد، وتخشى أن لا تراني بعد اليوم، كانت تقول لي:

- لم يعد لي من الحياة إلا الموت فابق بجانبي.

رشف خطاب من فنجانه القليل من القهوة وقال:

- عشت في وحدة عميقة، فراغ كبير، أحس انني أسكن في بلاد غريبة، كغيري من الشباب لم نعد نجد من يهتم بنا، أصبح عمري 30 عاما، تخرجت قبل سنوات من كلية الهندسة وإلى اليوم

لم أجنِ دينارا واحدا من شهادتي، فراغ كبير، فراغ مليء بالحزن والكآبة.

ليس هناك احساس بالحزن والتعاسة يعادل الإحساس بالغربة، غريب في وطنك، مسقط راسك وبين أهلك. شعور يأتيك عندما تشاهد الأبواب تفتح أمام الكذابين والمنافقين فيصبحون سادة القوم المرحب بهم في كل مكان بحيث إذا تكلم أحدهم أنصت له الجميع وتجد الناس تلهث وراءهم تطلب الرضا.

واقسم خطاب إنه ليس هناك إحساس اصعب من الإحساس بالغربة في الوطن.

اشعل سيجارته الثانية، سحب منها نفسا عميقا وقال:

عندما كنت طفلا وحتى قبل أن أتخرج من كلية الهندسة لم يخطر في بالي يوماً أن ينتهي بي المطاف عاطلا عن العمل، مجهولاً في شوارع بغداد ومقاهيها مع الكثيرين من الشباب.

لا يمكن ان أشعر بالسعادة الحقيقية دون وجود الأهل والأحبة والأصدقاء، كيف أعيش سعيدا وامي تبكي في العراق؟!

نظر خطاب الى البحر، صفن قليلا وقال:

- منذ ركوبنا في هذه السفينة أصبحت بعيدا عنهم لن أشاركهم لحظات الفرح والحزن ولن أقاسمهم الهموم ومصاعب الحياة. اضطرتني الظروف الاقتصادية والمسؤوليات الكبيرة لمفارقة الأحبة والأهل لتحسين أحوالي المعيشية، البطالة وغلاء الأسعار وصعوبة الحياة والقهر الاجتماعي والسياسي تفرض على الفرد

ضرورة إيجاد فرصة حياة في الدول الأجنبية، الدول التي تستعمر حرياتنا.

قلت له:

- كان قرار السفر صعباً جداً، نبدا الغربة بحثاً عن حياة افضل وتقدير معنوي بات منسياً لما يحمله البعض من مؤهلات.

قال إلياس:

- لا شك ان الابتعاد عن الوطن والأهل يعتبر امرا صعبا، الظروف تفرض على الإنسان تحدي الصعاب لتحسين ظروفه.

اشعل خطاب سيجارته الثالثة وقال:

- السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا تتغرب الكفاءات الوطنية وتستفيد من خبراتها وإنجازاتها الدول الأخرى؟ لماذا لا يحتضن الوطن أبناءه ويعطيهم فرصة ومساحة من الإبداع؟ ساعات طويلة أجلسها في مقهى الشط الذي تعود ملكيته للحاج علي، كان سقف المقهى من الخشب ويستند إلى أعمدة خشبية ذات طلة أمامية على نهر دجلة، يحتوي على النقوش البغدادية المظللة بالألوان، يجلس الزبائن على درجات من طوب اللبن ويفرش عليها حصير من البردي وتنار بواسطة فوانيس مستوردة من المانيا وهي كبيرة الحجم، لا يوجد مثلها في بغداد وتعلق في السقف، صديقي خليل تزوج في هذا المقهى.

اخذ نفسا عميقا وقال:

- لم أغب يوما عن مقهى الشط حتى في رمضان فانه المقهى

الوحيد الذي كان يسمح له العمل، موقعه وأهميته وبعده عن الشارع وكونه مركزا تجاريا للمداولة جعلت من غير الممكن الاستغناء عنه حتى في رمضان.

كان يلتقي فيه وجوه بغداد المعروفة مثل عبد القادر باشا الخضيري وهو صاحب مراكب ترسو على الشاطئ أمام المقهى وقاسم باشا وحسن باشا والحاج علي الجلبي وعبد القادر دله صاحب خان دله وإبراهيم صالح. وكان يأتي الشعراء في بعض الاوقات، وكنا نطرب بسماع المقام الى جانب الكرخ.

اشعل ارجيلتي حتى يأتي الراوي، كنت أقتل وقتي بالاستماع إلى الحكايات القصصية (القصخون)، حيث كانت تروى قصص عنتر بن شداد وأبو زيد الهلالي والمقداد والمياسة.

نظر الى سحابة من دخان سيجارته الذي اخرجه من فمه وقال:

- عشت طفلا يتيما، خمسة أولاد وست بنات، عملت بائعا لكعك الصميط، اعود من المدرسة مسرعا لأجد أمي قد جهزت لي الكعك، ابتسم في وجهها، لم اشعرها يوما انني اشعر بالتعب او الملل، هي تعلم أنّي طفل واحب اللعب مع أولاد الحارة، لكن لا لحياة اللعب واللهو لمن هم مثلنا، اظل دائما مبتسما، رغم كل ما احمله من مسؤوليات، بائع صميط، كنت طالبا مجتهدا في الصف الخامس الابتدائي، أخرج للعمل في أيام العطل وبعد الدوام لكي أعيل عائلتي، اذهب إلى مناطق الرصافة التي تكتظ بالمتسوقين

والزائرين لأبيعهم الصميط، أقطع شوارع كثيرة في بغداد حتى أبيع ما معي، أعود مساء لوالدتي واخوتي واخواتي محملاً بالفواكه والخضار والقليل من السعادة.

وفي ذات مساء قائظ قلت لأمي:

لا بد من الهجرة، لا بد من السفر يا أمي.

شهقت أمي وقالت:

- تسافر؟!

- لم نعد نحتمل الحياة، أسرتنا كبيرة ويجب التضحية، سأرسل لك النقود من أجلك وأجل اخواتي الذين يعانون فقرا شديدا.

بكت أمي كثيرا، حاولت التأثير عليّ، وقالت: اخوتك يحتاجون لك. حلفتني بالله وبرضاها علي، ذكرتني بابنة خالتي صباح، قالت لي:

- لن تنتظرك طويلا.

بكينا في تلك الليلة كثيرا، وستكون هذه آخر ليلة أبكي فيها، لن أبكي بعد اليوم، سأشق طريقي وأحارب غربتي في وطني بغربتي هناك حيث العمل.

صفن خطاب قليلا وقال:

- عشت قصة حب قبل ابنة خالتي صباح، أحببت فتاة تسكن حارتنا، كنت في سنتي الثالثة بالجامعة، أحببتها بإخلاص منقطع النظير حتى أني انقطعت عن أي علاقات داخل الجامعة، لكنني

ادركت فيما بعد أن فتاتي ذات العينين الساحرتين والشعر الفاحم لم تكن جادة في حبها، كنا نتبادل الرسائل والكلمات والمشي جنبا إلى جنب في مساءات بعض أيام الحر الشديد الذي يفوق حر بغداد العادي، كان الحر يجمعنا مساء في الوقت الذي هرب فيه سكان أحياء بغداد للنوم.

لم تستمر علاقتي بليلى إلا قليلا، كانت علاقة عابرة دون أن تترك في النفس شيئا يذكر، انتهت قصتنا قبل أن تبدأ، انتهت عندما انتقلت ليلى مع أسرتها الى البصرة عند أقاربها.

اشعل خطاب سيجارته الرابعة وقال:

- عندما نزلت إلى الشارع أحمل حقيبة ملابسي، لحقت بي أمي، كانت الدموع تملأ عينيها، سألتني ان كنت بحاجة إلى أي شيء، قالت:

- انت لن تعود ثانية، لن أراك مرة أخرى.

- سأعود قريبا لا تخافي.

كنت مصرا على سفري، بقيت صامتا فزاد بكاؤها، عانقتها، قبلت رأسها ويدها.

قلت لها:

- سامحيني يا أمي فأنا لم أعد قادرا على جلوسي في البيت بلا عمل، أكاد أختنق وأموت ببطء.

مشت معي خطوات قليلة، كانت أصعب وأشد خطوات أمشيها في حياتي كلها، كاد قلبي يتوقف ويتخلع من مكانه وأمي تتشبث بي

وهي متاكدة من أنها ربما تكون آخر مرة ستراني فيها.

رشت الماء خلفي وأنا أضع قدمي خارج البيت، رشت الماء كي تضمن عودتي، قالت:

- لا تنس ان تكتب لنا عند وصولك.

لوحت لها بيدي وأنا ابتعد، حدثني قلبي باني قد لا أرى امي بعد اليوم.

قالت رجوة الفلسطينية:

- نتحمل الغربة لنعيش.

وقالت راحيل السورية:

- وأحيانا نعيش من أجل الغربة.

قلت بعد أن تحركت في نفسي نيران الاشتياق:

- أحيانا تبدأ غربتنا منذ الطفولة ونكون مجبرين عليها لا مخيرين.

قال إلياس اللبناني:

- نحن غرباء في أوطاننا وارضنا.

قلت:

- إنه الاستعمار الخارجي والداخلي الذي فرض علينا الجهل والفقر حتى نبحث عن العلم والمال في أرضه ليفرغ ارضنا ونظل بلا ارض ولا وطن ولا انتماء أو ذاكرة.

قال إلياس:

- إنهم يريدوننا عالما من الأتباع، نسير في ركابهم ونحقق

مطامعهم ونعيش على فتات موائدهم.

قال خطاب:

- نعاني من مشكله انفصال عن الوطن الذي نعيش فيه، نشعر بنوع من الغربة، لم يعد الوطن مناسبا لنا.

سكتنا جميعا فأضاف خطاب:

- اصبحنا نعاني من انفصال حقيقي عن واقعنا الذي نعيشه، لم يقدم لنا الوطن اي شيء حقيقي يجعلنا نتمسك به أو يجعلنا نولع به.

لم يتحدث احد بعد كلمات خطاب، كان البحر ينقلنا بامواجه من جزء إلى آخر، يمضي بنا في طريق الغربة ويبتعد بنا يوماً فيوم عن اهلنا واوطاننا، اسكتتنا امواجه عن الكلام.

**

رغم قسوة السفر بالباخرة إلا أن فيه متعة كبيرة. فهو مريح، ويفسح المجال امام المسافر لأن يمضي وقته بطرق متنوعة. فهناك القراءة، ومكتبات البواخر حافلة بالكتب، وهناك الحفلات الموسيقية، والسهرات الراقصة لمن أرادها. فضلاً عن العاب التسلية على أنواعها. هذه الأشياء إضافة إلى جلساتنا معا شتتت الملل من لون البحر والسماء الصافية، ومن الطيور المحلّقة فوق الباخرة.

بداية تذمرتُ من طول الرحلة، الحقيقة ليس طول الرحلة سبب تذمري إنما انقطاعي عن العالم. أما إلياس وخطاب، فقد احسّا ان هذا الانقطاع من دواعي سرورهما واستمتاعهما بسفر

البحر. على كل حال جرّبت ان استمتع لكني فشلت.

وكان بين المسافرين في الدرجة الأولى رجل اعمال لبناني، يعاني من عرج في ساقه، دعانا إلى الدرجة الأولى، وعرّفنا إلى عدد من رجال الأعمال. ويبدو أن الرجل الدمث النبيل اراد ان تتكرر الزيارة، لذلك تعدّدت المرات التي ذهبنا فيها إلى الدرجة الأولى، حتى احسست كأن صداقة قد توطدت بيننا.

وحدث ان أُقيمت حفلة من الدرجة الأولى كان حضورها يقتضي لبس ثياب السهرة، وقال إلياس:

- لديّ ثياب للسهرة.

ولم أشارك أنا في الحفلة، لم تكن تروق لي مثل هذه الحفلات، هناك خوف ما منعني من المشاركة فيها.

رميت بجسدي على كرسي وسط السفينة العملاقة، كنت وحيدا، وكان الليل مضاء بالقمر، وكانت النجوم مصابيح جميلة تخترق عتمة الليل وتبدد جزءا منها، كانت متناثرة في ترتيب الهي مشعة وكان صوت أمواج البحر ناعما هادئا كأنه موسيقى الكمنجة، يزيد صوت امواجه سكينة الليل جمالا فينبعث في القلب حب متجدد، ويجعله يبحث عن الحب في كل مكان، كل شيء في هذا المساء يظهر جميلا آسرا إلى درجة انني تمنيت وجود امرأة بجانبي، اي امرأة.

غفوت قليلا، رأيت طيف أمي، لم اعرفها، لم تكن واضحة المعالم، سمعتها تقول:

- آه يا بني، لو كنت معي، لو كنت بقربي، أو لو كنت أنا قربك، عبثا يا بني أبحث عنك لكني لا أجدك، ملهوفة لرؤيتك وضمك إلى صدري، لرؤيتك عريسا، وأقف بجانبك انت والعروس، لكني لم استطع، حتى انني ناديتك يا عمر، يا عمر.. يا بني، لكنك لم تلتفت إليّ، كنت حزينا، حاولت أن أضمك وأمسح دمعة نزلت من عينك لكنك غبت عني من جديد.

استيقظت من حلمي، قلت في نفسي: يا لقلب أمي، حتى وهي ميتة ترافقني، تشعر بحزني وتواسيني، أمي الحبيبة رحمك الله.

فتحت عيني من حلمي محدقا في السماء الواسعة المرصعة بالنجوم، النجوم في الليل جميلة ورائعة، قلت بصوت كاد يكون مسموعا «لا أم لي».

بقيت مستلقيا على ظهري فوق كرسي يشبه الكراسي الموجودة على شاطئ البحر، انظر إلى النجوم غير راغب في التقلب أو تغيير وضعي، خفت إن فعلت ذلك، أن يفلت مني خيال أمي وحلمي برؤيتها، واصلت الاسترخاء مستسلما إلى راحة جسدية وتعب فكري، وعلى الرغم من انني فتحت عيني إلا أن بقايا حلم أمي ما زالت عالقة في راسي، وفجأة ظهرت رجوة، تلك الفتاة الفلسطينية ذات الجمال الشرق الأوسطي المميز، لم أدر من اين جاءت، لكنها مما يبدو أنها كانت قريبة مني وربما إنها كانت تراقبني، جلست قربي، مدت يدها إلى يدي، احتضنتهما بكلتا يديها، رفعت يدي إلى فمها وقبلتها بشفتيها الجميلتين، قربت جسدها من جسدي وكأنها

تريد أن تضمني، فجأة، سمعت صوت قدميه، كان الوقت منتصف الليل، ايقظني من حلمي، رايته قادماً نحوي، بميل بمشيته، إعاقة بسيطة برجله، تقدم بهدوء، سحب كرسيا كان يبعد عن المكان الذي أجلس فيه، مشى امتارا قليلة، وضع الكرسي ملاصقا للكرسي الذي اجلس عليه، جلس واسند ظهره ورفع راسه كانما يرتاح من تعب عانى منه بمسير طويل، قطع عليّ حلمي مع رجوة وبدون مقدمات قال لي:

– اسمي أحمد تقي الدين، مسلم سني، أصبت في ساقي بطلق ناري، قالوا إنه رصاص عشوائي، وأنا أقول إنه مقصود، كنت عائدا من تشييع جثمان صديق لي توفي إثر نوبة قلبية حادة، فجأة شعرت بالدماء تنزف من ساقي، صحوت على نفسي وفي رجلي عرج ومنذ ذلك الوقت هجرت بيروت ولم أعد اليها إلا في زيارات قصيرة وفي أوقات متباعدة.

صمت قليلا وكأنما يستعيد مشهدا يريد أن يريني إياه. قال:

– تقدمت لخطبة فتاة مسلمة شيعية، فكان الرفض من أهلي وأهلها، لأنهما غير متطابقين في العقيدة، رغم أننا مسلمون، رفضوا زواجي منها وحلف والدي أنه سيتبرأ مني إن تزوجتها، واقسمت امي أنها ستغضب علي، وهددني اخوتها بقتلها وقتلي إن عاودت خطبتها مرة ثانية.

أدار رأسه باتجاه أحد العاملين في كفيتيريا السفينة وأشار إليه بيده، حضر النادل مسرعا، مال برأسه قربَ فم أحمد تقي

الدين، طلب منه فنجانين من القهوة السادة، انصرف النادل، التفت إليّ. قال:

- لم اكن تجاوزت السادسة من العمر عندما اصطحبني والدي أول مرة إلى سوق الذهب، فتحت عيني على سوق يعج بالمعروضات صفراء اللون، صافية منهلة البريق، تطعمها أحيانا أحجار ملونة تعطيها جمالية رائعة، كانت عادة أهل المهن الخاصة أخذ الابن البكر لعملهم حتى يطلع على أسرار المهنة كي تبقى محصورة في العائلة. وهذا ما فعله ابي.

كان سوق الصاغة قديما، منذ عصر العثمانيين، كان يمتلك والدي فيه محلا، بدأ العمل فيه نهاية الأربعينيات، يضم السوق اكثر من سبعين معرضا للصاغة، كنت أتنقل بينهم وكأنهم أهلي، وقد علمت من والدي ان هذا السوق كان يعج بالصاغة اليهود قبل هجرتهم بعد عام 1948 وحين ابتدات مسيرتي صائغا صبيا تعرفت إلى ثلاثة منهم كانوا لايزالون يشتغلون في السوق، قاتلوا من أجل بقائهم حتى بداية الستينيات. لا اعرف سبب تشبثهم في العيش في لبنان رغم أنهم يهود، وكان لهم المجال مفتوحا في الهجرة إلى اي مكان، لكنهم ظلوا في بيروت حتى طلع ذات صباح واختفوا بدون ان يعلم احد من تجار سوق الصاغة إلى اين ذهبوا وكيف خرجوا بأموالهم ومصاغ محالهم.

سكت عندما أحضر النادل القهوة، تناول فنجانه، رشف رشفة قبل أن يضعه على الطاولة. قال:

- توت توت ع بيروت.

ضحك بصوت عال، وفجأة قطع ضحكته وقال: أتدري ما معنى هذه الاغنية، طبعا لا، فلاقلة هم الذين لا يعرفون هذه الأغنية في بيروت أو في سوق الصاغة. سوق الصاغة الأثرية شيّدت عام 1886، في وسط بيروت، على أرض كانت مزروعة بالتوت. ربما كانت تلك بداية تحولات في المدينة، إبدال الزراعة التقليدية بالصناعات الحرفية. يصعب كثيراً اليوم التصديق أن جزءاً من صدر المدينة كان مطلياً بالبنفسجي الطبيعي. كانت المساحة للتوت البري، كان العشب ينام على الأرض قبل أن تأكله الأرصفة الحديثة، كان سوق الصاغة يجمع المسلم والمسيحي واليهودي.

اخبرته ان فتاة يهودية ترافقنا على ظهر الباخرة، يهودية سورية، هاجرت لتلتقي حبيبها السوري المسلم.

هز راسه مستغربا، قال:

- كنت أقضي معظم أوقاتي في محال اليهود، ومن موسى أو موشيه، وهو أصغرهم سنا ابتدأت أحب الكتاب، أعطاني كتاب شجرة الحرية وكتاب لمن تقرع الأجراس ورواية الأم لمكسيم غوركي وهكذا انفتحت عقليتي على طريقين قدما أمامي وهما الفن بكل روعته في الصياغة لأني أعتبرها فناً عريقاً لاعتمادها على قدرات واسعة في الكيمياء والهندسة والتشكيل من نحت ورسم، أما الطريق الثاني فكان الأدب وهو غذاء العقل والروح معا، هكذا كانت ثقافتي ذاتية قبل تحصيلها في المدارس.

سألته عن حبيبته الشيعية: ماذا حل بها؟ هل تزوجت؟ وكدت أخبره ان لي حبيبة في عمان شركسية، ليست من قوميتي ولكنها لي ولن تكون زوجة لغيري وأسرتي وأسرتها لن ترفضا زواجنا. قال:

- اسمها تاج علي، سمراء صافية اللون، ذات شعر طويل جدا، عيناها سوداوان كليل مظلم، جميلة جدا، جاءت يوما إلى محل والدي تريد شراء اسوارة، كان وقتها والدي في البيت، وقت استراحته، كان يصر على تناول طعام الغداء مع امي ويرفض أن يتناوله مثل أغلب التجار في المحل، عرضت عليها أكثر من نوع من الاساور، أطالت النظر فيها، تفحصتها، كان لها عينان ماهرتان في انتقاء الذهب، اختارت قطعة جميلة واشترتها رغم أن ثمنها غال، ناولتها القطعة بعد أن وضعتها في علبة جميلة، قالت: هذه الإسوارة هدية لأمي.

ابتسمت لها، أشعرتها إن تصرفها رائع، وهو حقا رائع، أن تهدي أمك هدية قيمة. وقع حبها في قلبي منذ تلك اللحظة، صارت حبيبتي، حملت هديتها ومشت، أغلقت المحل وتبعتها، قالت لي فيما بعد إنها رأتني وعرفت أنني ألحق بها، قطعت شارعين ثم دخلت بيتهم، عدت أكثر من مرة، لم أستطع رؤيتها، بعد يومين جاءت الى المحل في الوقت نفسه، قالت لي:

- رأيتك أمس في حارتنا، احذر، ان شعر بك اخوتي قتلوك.

خجلت من نفسي، تجرأت وقلت لها: على سنة الله ورسوله.

قالت: كأنك احببتني؟

- احببتك واريدك زوجة لي.

- تقدم لخطبتي ان كنت صادقا.

سالت أحمد تقي الدين: بهذه السرعة؟ خلال يومين!

- نعم، لكن اهلي رفضوا بعد ان سالوا عن عائلتها، لم أرتدع من غضبهم، ذهبت لخطبتها وكان ما وجدته من اهلها اكثر مما كان من أهلي.

تاثرت بقصة التاجر البيروتي، حزنتُ على تاج اكثر من حزني على التاجر الأعرج، هل من الممكن ان يحصل لي ما حصل له؟ هل يرفضني والد سناء واخوتها لأني عربي؟

قلت له:

- وماذا حل بها؟

- لم اقطع الأمل، لم اترك إنسانا يعرف عائلتها إلا وطلبت منه التدخل، بعد فترة من رفض أسرتينا عثروا على ملابسها قرب الشاطىء، هل انتحرت؟ ام هربت؟ هل ما تزال في بيروت؟ لا أعلم لكنها ابتعدت قليلا، او كثيرا، ابحرت مع نفسها، رحلت من أجلي، من اجل حبي، بعدها عشت بلا روح، أعرفها جدا كانت قوية، تحملت الكثير من اجل حبنا، كانت تقول لي «خلقنا الله كي نعطي الناس حبا ولا ناخذ بالمقابل سوى سعادة الناس ودعائهم لنا».

ابتعدت عني ولم تعد، بقيت وحيدا أعيش بين الناس لكني لست معهم، عشت معهم كجسد بلا مشاعر وبلا احاسيس.

عشت وما أزال أعيش على امل ان اعرف اين هي؟ كيف

تعيش؟ أسئلة تتواصل وتتكرر في راسي لكن لم أعثر على جواب، ابحر باستمرار علّي اجدها في أحد شواطىء الغربة، في أي مكان قريب أو بعيد، أبحر إلى كل مكان وحيدا، عشت وحيدا غريبا بين الناس أخفي الألم والحزن وراء ابتسامة حزينة.

في أحد الأيام، وصلتني رسالة من صديقي اليهودي موسى، طلب مني القدوم إلى إنجلترا للعمل معه. لم يكتب أكثر من هذه الجملة واضعا عنوانا له وطلب مني أن لا أحدث أحدا عن أمر هذه الرسالة لأنه يخشى عليّ إن علم أحد ما بأمرها، مؤكدا إن لديه معلومات تهمني جدا .

التفتُ فجأة إلى الجهة الأخرى، كان صديقي الياس قادما، توقف عن الحديث، قال:

سوف أكمل لك فيما بعد عن زيارتي إلى انجلترا وعملي ومصدر ثروتي وعن اليهود الثلاثة.

## -5-
## صراع

شعرت بتغير كبير في نفسيتي، شكرت في سري الجدة ستناي على اقتراحها ان اسافر بالباخرة، كانت مغامرة مختلفة، لم يعد لدي الخوف الذي كنت اشعر به عندما صعدت الى السفينة في ميناء بيروت، لم اعد خائفا من غرق السفينة وسط البحر، وقد كان لتعرفي إلى الاصدقاء الجدد دور في التغير الذي حصل لي. ازددت حبا للبحر المتوسط ولم يعد يخيفني في الليل.

كان قبطان السفينة ذا شنب طويل وشعر ابيض، كان يمشي متنقلا في ارجاء الباخرة وكأنه احد فرسان سان - لويس، وعلمت وهذا ما زادني اطمئنانا وانا وسط البحر انه ضابط متقاعد وانه افضل ضباط البحرية الملكية.

شعرت ان هذه السفينة لديها شيء غير عادي، تحملنا وتسير بنا بروحها لا بهيكلها الضخم، لها روح وقلب.

اجتمعنا مرة اخرى، وقد احضر خطاب ابريق شاي مخمر على الطريقة العراقية، سمعت صوت رشفة إلياس من كاسه في الوقت الذي كانت رجوة تحاول إغاظة راحيل بوصفها لاحتلال فلسطين وتهجيرهم اهلها الى عدة دول عربية، وقالت: صرنا نحمل اسم

لاجئ فلسطيني. ولدت وما زلت إلى الآن اسمع عن كراهية اليهود للفلسطينيين وعن العنصرية ضد العرب في فلسطين وخارج فلسطين.

كنا نكبر ونسمع اكثر. ونسال من هم اكبر منا سنا. نتالم من هذه الأوضاع القاسية. منذ طفولتي وانا اسمع اننا غير قادرين على ان نفعل شيئا وحتى الآن وانا في مقتبل عمري اصبحت متاكدة اننا لا نستطيع فعل شيء سوى ان نواسي جرحنا بانفسنا.

بهذه الكلمات الحزينة بدأت رجوة حديثها عن نفسها، دموع القهر والأسى في عينيها لكنها غير قادرة على البكاء.

نظرتُ إلى البحر، شاهدتُ موجه الأسود، وبكت، رايتُ الدموع تغرق عينيها والحزن يملأ ملامح وجهها البريء، اخرجت من جيب سترتي منديلا ورقيا واعطيته لها، شكرتني. سألتْ:

– متى سارجع وأنظر لنفسي في بحر يافا وحيفا وعكا؟ متى أكون سعيدة؟

جاوبت نفسها: بعد ان أصاب بالهرم ويتغير كل شيء، وهل الأمل موجود؟ هل عندما اتقدم بالسن وتمر الأعوام سنرجع ونعيش بسلام ويرجع أهلي ويجتمع شملنا ونلتقي ثانية؟ كنت اسمع أمي عندما كنت طفلة صغيرة تقول إنها اشتاقت لشقيقها الذي هاجر إلى سوريا في الحرب ومرت سنين ولم تره. تنهمر الدموع من عيني أمي وتدعو لربها أن يأتي هذا اليوم ونجتمع بمن نحب.

نظرت في وجوهنا، انتظرت أن يعقب أحدنا على حديثها، خيم

الصمت على الجميع، استردت بصرها ونظرت إلى البحر، قالت:

- كلما كبرنا، في بلاد اللجوء كانت حلقة العنصرية آخذة في التوسع، لكن هذه المرة من أبناء جلدتنا، من اخوتنا. عندما كنت صغيرة كنت اسمع اهلي يتكلمون. بعدها اصبحت ارى بنفسي، كبرت وصرت من المحاربين، اهاجر، أتغرب لتحقيق هدف رسمته لنفسي، لأثبت أن إرادتي وشخصيتي قويتان.

مسحت دمعة على خدها وقالت:

- في مساء احد الايام، عدت إلى البيت بعد أن انهيت دوامي الجامعي، كان يوما باردا، لم اكد أدخل البيت حتى سمعت بكاء امي، كانت نساء الحارة يرددن ما تندب به. صدمت، وقبل أن اسال عن السبب جاءني صوت امي:

- خالك مات دون أن أراه، دون ان اسمع صوته. ليتني مت قبله.

لم أتفوه بكلمة واحدة، تجمدت الكلمات في فمي، ركضت إلى غرفتي، وضعت راسي تحت مخدتي وبدأت بالبكاء، منذ صغري وانا أنتظر ان أرى خالي وكبرت ولم أره، حتى جثمانه لن أراه.

نهضت رجوة من مكانها، وقفت قريبة منا وقالت:

- هل أرى يوما ما صورتي في بحر يافا؟

سكتت وكأنها تنهي حديثها بهذه الأمنية، ثم تذكرت شيئا وقالت موجهة حديثها لراحيل السورية:

- لا بد يوما من أن يعود كل واحد الى أرضه التي خرج منها.

فهمت راحيل رسالة رجوة. قالت:

- لم تكن تعني تلك الأرض لي شيئا، كان ابي يقول إنها أرضه، لكني لم أظنها يوما بيتا لنا، عندما كنا نخرج «سيران» إلى المناطق المحيطة بدمشق، كنت أشعر ان هذه ارضي، لم اكن اظن إن لي ارضا سواها، لم تكن حارة اليهود تبعد عن القشلة أكثر من مئتي متر، وعندما سمح لنا الرئيس بالسفر شريطة عدم العودة، لم أكن أريد الرحيل، يجب ان أنتظر عودة صبحي، لقد ذهب إلى الحرب ولم يعد، صبحي ذهب إلى القتال مجبرا، لا لم يمت، ما زال حيا، هرب من القتال إلى إحدى الدول الغربية، سأجده، هذا ما دفعني للسفر، لم اكن أرغب بالرحيل أبدا، فكرت كثيرا قبل ان اركب في هذه الباخرة واقطع المتوسط، لكن رسالة وصلتني من صبحي، طلب مني السفر.

نظرنا في وجوه بعضنا، لم يعقب أي واحد منا على كلامها، في نظري حبيبها صبحي خائن ويجب ان يقتل، قلت لها: صبحي الهارب خائن والخائن لوطنه جزاؤه القتل والاعدام.

لم تعجبها مداخلتي، نظرت الى جهة غير الجهة التي اجلس فيها وقالت: صبحي محب للسلام، وصبحي محب للارض المقدسة. قال أبي: يجب ان نرحل إلى الأرض المقدسة. قلت له كما كان يقول صبحي: كل الأماكن مقدسة.

غضب أبي من علاقتي بصبحي وكاد يصفعني بيده لولا تدخل أخي إبراهيم، سمح لي بالسفر إلى فرنسا عسى أن اغير رايي

والتحق بهم هناك. قبل التحاق صبحي بالجيش، مشينا من شارع العابد حتى باب توما، لم يكن لنا وجهة معينة، كان صامتا معظم الوقت، لكنه كان قريبا حاضرا بجانبي، اشعر بأنفاسه قريبة جدا من قلبي، وسط ساحة باب توما، أمام القوس الوحيد، تنفتح بوابة توما على فراغ دمشق، وصلنا إلى القشلة، دخلنا حارة اليهود، قطع صبحي الصمت الذي كان يرافقنا وقال:

- سالتحق بالجيش، لا ادري ما هو مصيري، لكن لا تذهبي إلى اي مكان أو مع اي إنسان، انتظريني، ساعود ولو بعد حين.

كنت في السادسة عشرة من العمر عندما تعرفت إلى صبحي، قالت راحيل.

وقالت:

- في حي اليهود بدمشق تعرفت إليه، كان في الثامنة عشرة، رايته فجاة في حارتنا ومنذ تلك اللحظة بدات قصة حبي. ومنذ تلك الأيام وحارة اليهود لا شغل لها إلا قصتي ومحاولة إبعادي عن صبحي.

أختي استر قالت لي إن قصتنا وصلت إلى اورشليم وتحدث بها الحبر الأعظم. وقالت إنها سمعت أبي يقول لأخي: كل تجمعات اليهود يتناولون قصة حب راحيل اليهودية مع الشاب العربي المسلم صبحي. وقالت اختي: سمعتهم يتحدثون عن قتل صبحي وحتى قتلك إن لزم الأمر.

لم أنظر إلى الأمر من منظار يهودي وعربي، من ناحيتي ومن

ناحية صبحي لم يهمنا من انا ومن هو، إنه عربي وانا يهودية، ما يهمنا اننا نحب بعضنا البعض واننا خلقنا لنعيش معا، انا أردت شيئا واحدا فقط وساحققه، يجب ان يكون صبحي زوجي انا، انا فقط.

نظرت إلى رجوة، ثم تجولت بنظراتها في وجوهنا وكأنها تنتظر احدا منا ان يشاركها قصتها، قالت:

- صبحي، شاب من أحد الأحياء العربية في القدس هاجر مع من هاجروا إلى دمشق، كان يرفض القتال ويحب الحياة، ولما أحببنا بعضنا كان يصر على الحياة، بل إنه حاول اكثر من مرة السفر لأي دولة أوروبية للعيش هناك، كان يقول لي: يجب أن نهرب معا.

نظرت راحيل الى رجوة وقالت:

- سيصبح العالم يوما ما يهوديا.

لم ترق لرجوة كلمات راحيل الأخيرة ولم ترق لي أيضا. قالت:

- كل ما يحصل الآن مؤقت، سيزول الأمر السيئ وتعود الحقيقة الى أهلها، ستعود وإن طالت قليلا.

شعرت ان رجوة تحتاج من يناصرها، قلت بصوت مرتفع: سيصبح العالم يوما ما عربيا.

احس إلياس الذي أصبح يميل إلى راحيل بتوتر الأجواء. قال:

- تجمعنا لغة واحدة وهم واحد، الحقائق لا تتغير.

قالت رجوة:

- سيرحلون عن بلادنا، سنعود الى أرضنا.

التفتت إلى راحيل وقالت:

- ارحلوا عن بلادنا.

استجابت راحيل لاستثارة رجوة. قالت:

- اورشليم بلادنا.

- اورشليم؟! القدس لنا. فلسطين كلها لنا. ملكنا. حقنا.

- اورشليم، مدينة إبراهيم وداود وسليمان، فيها جبل الهيكل، دمرها نبوخذ نصر، وتمت إعادة بنائها. منحها الرب يهوه لبني إسرائيل، شعبه المقدس الذي اختاره من بين شعوب الأرض، هذا ما جاء في أسفارنا المقدسة.

قلت لراحيل:

- حرفتم كتاب التوراة.

ردت راحيل:

- اليهود لن يسكنوا اورشليم فقط، بل كل الدنيا، عندما يظهر المسيح المخلص سنحكم العالم كله.

**

رجعت الى غرفتي وحدي بينما واصل رفيقي في الغرفة إلياس احتفاله مع صديق فرنسي تعرف إليه مؤخرا، وقبل ان ادخل فراشي سمعت طرقا خفيفا على الباب، سألت: من الطارق؟ كان صوت انثى، قالت: انا راحيل، هل من الممكن ان اتحدث معك قليلا؟

فتحت لها الباب، دخلت، ارادت ان تغلقه لكني طلبت منها ان تتركه مفتوحا، جلسنا قليلا معا، تحدثنا عما دار بيننا في سهرتنا،

جلست قريبا جدا مني، بل لاصق جسدها جسدي، شممت رائحة عطرها، كان جديدا لم يبرد بعد، ربما رشت من زجاجتها الخاصة قبل ان تدخل غرفتي، اغرتني بجمالها ورائحة عطرها القوي، انجذبت اليها دون ان تتكلم، حوطت يداي خصرها فشعرت بدفء جسدها، كانت هي اللحظة التي خططت راحيل لها، عندما دخلت غرفتي كانت من الجمال والزينة ما يكفيان لإغراء أكابر الرجال.

اقتربت مني اكثر وانفاسها تتسارع من لحظة لأخرى حتى لم يعد بيني وبينها اي مسافة، بدأت تدور في عقلها مدنٌ من الأفكار لكم بنيتها بخيالاتي ليالي طوالاً، ورحت افكر «ما الخطوة التالية يا ترى؟!» عمَّ المكان بعض الهدوء، إنها اللحظة الحاسمة، واللحظات الحاسمة كل شيء فيها محتمل. ببراعة ولين حاولتُ التودد إليّ وإبداء بعض مفاتنها حتى اشتهيتها.

في صباح اليوم الثاني سمعت طرقا على الباب، لم يكن الطرق شبيها بتلك الليلة، نظرت الى سرير إلياس كان فارغا، نهضت بتثاقل وفتحت الباب، دخل رجلان من حرس السفينة، طلبا مني الجلوس على كرسي موجود قرب سريري، توجها مباشرة الى السرير الذي استخدمه، رفعا فرشة الاسفنج واخرجا مسدسا محشوا بالرصاص، قال لي احدهما: لماذا تحمل مسدسا محشوا بالرصاص.

انكرت معرفتي بالامر وانني لم ار هذا المسدس قط، مؤكدا انني لا اعرف استخدامه بالاصل وانني اخاف من رؤيته فكيف احمله.

قال لي احد الرجلين: امكث في غرفتك هذه ولا تغادرها حتى نصل الى ميناء مرسيليا ونقوم بتسليمك الى البوليس الفرنسي والذي سيحقق معك في هذا الامر.

اغلقا خلفهما الباب، تركاني في حيرة من امري: ترى من اين اتى المسدس وكيف وصل الى غرفتي وتحت فرشتي، يا الهي ما الذي سيحل بي! وسألت نفسي وقد صرت أول سجين في التاريخ؟ من الذي اخترع السجن؟ كيف كان شكل السجن الأول؟ هل سيحكمون عليّ بالسجن، لكني مظلوم، اقسم بالله العظيم اني مظلوم؟

مضت ساعات وانا داخل سجني، بعد ان كانت هذه الغرفة جنتي اصبحت سجني، استحضرت خلال هذه الساعات المئات من احلام اليقظة، وبكيت، بكيت عندما تخيلت نفسي بدلا من عودتي احمل شهادة الطب اعود سجينا او قد لا اعود، وقد يوجهون لي تهم الارهاب والقتل، وسوف اصبح مجرما، لكن لماذا؟ انا لم افعل لهم شيئا، كل ما في الامر انني كنت احلم، واحلم بصوت مسموع، لكني يجب ان اظل متماسكا قادرا على الدفاع عن نفسي.

لكن ماذا سيحل بي ان عجزت عن اثبات براءتي؟ سوف اسجن، واعيش حياتي داخل جدران مغلقة وستصيبني الامراض المختلفة، وقد اتعرض للتعذيب والتمييز العنصري، واخرج من السجن رجلا عجوزا ترافقني وصمة العار طوال حياتي، ولن يصدق احد انني بريء، حتى سناء لن تصدقني ولا حتى ابي او امي.

## -6-

# باريس

سمعت من داخل غرفتي او سجني صياح الطيور، فعرفت اننا قد اقتربنا من سواحل مرسيليا، كانت اصوات طيور البحر عالية جدا، طيور النورس، كانت هذه النوارس ترتفع بأسراب ثم تهوي الى البحر كالسهم باجنحة بيضاء ثابتة، في عمان كنا نراقب هجرة الطيور، كانت تمر من سماء عمان بأعداد كبيرة، كنا نطلق عليها اسم ابو سعد وكنا نغني لها «ابو سعد وراك الحية» كانت هذه الطيور مهاجرة حرة وكنا وقتها اطفالاً احراراً.

وبينما نسعى نحن للحصول على فيزا إلى دول شمال اوروبا للبحث عن مستقبل افضل، يحافظ «أبو سعد» على تقليده السنوي ويترك الشمال مهاجرا نحو الجنوب ولا ينسى عبوره فوق سماء الأردن والاستراحة في ربوعه.

كان كل شيء يسير على ما يرام وكما خطط له القبطان، كانت السفينة تقترب من شواطىء مرسيليا، وكان موج البحر خفيفا ناعما، وكانت هناك ريح خفيفة طيبة، فالبحر في هذا اليوم كان رحيما بنا وغير مخيف.

وخلال مراقبتي من شباك غرفتي او سجني في الباخرة

سمعت صوت مفتاح الباب، دخل رجل ومعهم احمد تقي الدين، ابتسم الرجلان وغادرا دون ان ينطقا بأي حرف، وضع احمد تقي الدين يده على كتفي وهزها، ضحك ضحكة ناعمة كموج البحر وقال: هذه المرة جاءت سليمة، احذر خلال تعاملك مع الاخرين، هيا اقتربت السفينة من الرسو، ظهر شاطئ مرسيليا.

التقيت بالأصدقاء، كانوا يعرفون ما حل بي، اخبرهم احمد تقي الدين، اقتربت مني رجوة وقالت: ربما اكون انا السبب. تبسمت لها، اقترب مني إلياس وهمس في أذني مداعبا:

- اجمل ما في مرسيليا النساء.

عقدت ما بين حاجبي وقلت:

- ما لهذا جئنا.

ضحكنا معا وقد فهم مقصدي من الدرس الذي علمتني اياه راحيل، وضع يده على ظهري ومشينا باتجاه حافة الباخرة «ستر اتافار» التي بدأت بالرسو في ميناء مرسيليا، مدينة الجمال والنساء الرائعات كما وصفها صديقي إلياس، قال متابعا مداعبته:

- إن أصل النساء فيها عربي، تقع في الجهة الجنوبية لفرنسا، تبعد عن مدينة باريس حوالي 660 كم إلى الجنوب منها، يعني أن بإمكانك زيارتي يا دكتور عمر كل شهر مرة.

وقبل أن نهبط من السفينة قال إلياس:

- مرسيليا صبية جميلة، صبية شرقية تميزت بقدرتها على

الحفاظ على إشراقتها ولم تسمح لتقلبات السنين أن تغير من جمال وجهها المطل على المتوسط.

وضع إلياس حقيبته الصغيرة على كتفه، أشعل سيجارته، نظر اليّ، قال:

- قرأت عن مرسيليا الكثير، كنت مخططا للاستقرار فيها، فأنا مهاجر للعمل وأفضل الأماكن للاستقرار والعمل وطلب الرزق هي مرسيليا، لكني وخلال رحلتي معك تعلقت بك ولا أستطيع تركك، سأكون الرفيق المعين لك.

وصلت الباخرة إلى مرسيليا صباح يوم 14 تموز، أخبرنا مشرف السكة الحديدية أن القطار ينطلق إلى باريس بعد خمس ساعات، وقال لنا إن بإمكاننا أن نقضيها في التمتع بمشاهدة احتفالات المدينة في يوم الباستيل.

هيأنا أنفسنا لندور في شوارع مرسيليا، متفرجين على كيفية احتفال مدينة كبيرة بالعيد الوطني كما أخبرنا مشرف السكة الحديدية.

- «مرسيليا» ميناء واسع يستوعب عدداً كبيراً من السفن التي تُقل آلاف الركاب من كل الجنسيات. هؤلاء الركاب ينتشرون بصورة منهلة ويحجزون كل شيء في المدينة الساحلية.

لم نجد كرسيا واحدا شاغرا في مقاهي المدينة، فزوار المدينة عددهم كبير جدا، لم تبق ساحة خالية من حلقات الرقص على وقع موسيقى تطلقها فرق صغيرة تتوسط الحلقات، أو فرق أكبر تعزف

في المقاهي، أو تبثها الإذاعة. وعندما تتوقف الموسيقى كان الراقصون يقومون بأنفسهم بالغناء والهرج، وليس شرطاً ان يكون الراقصات والراقصون قد جاؤوا معاً، أو يعرف بعضهم بعضاً. كانوا يلتقون، يلتئمون صفوفاً ودوائر، يغنون ويرقصون، ثم تنتقل فئة منهم غرباً، وتذهب الأخرى شرقاً، فيما تتقاطر إلى الساحة فئات من الشمال والجنوب ليبدأ الاحتفال من جديد.

هذا الأمر كان يحدث في كل ساحة، وقد تمنى لنا التنقل بين عدد لا يستهان به من الساحات والاستمتاع باحتفال المدينة. مثل هذا يقال عن أرصفة الشوارع، وبيع الساندويش الذي كان عبارة عن خبز مع قليل من الجبنة او اللحم. كان هناك عرض عسكري ضخم بالعيد الوطني.

عدنا إلى قلب المدينة، كان الوقت مساء، بدأ ناس المدينة بالخروج جماعات صغيرة إلى الضواحي، حيث الغابات والشواطئ، لتمضية الوقت فيها. وخلال الليل عادت حلقات الرقص إلى بعض الساحات، كانت أقل صخباً مما كانت عليه في الأمسية السابقة، تسكعنا حتى حان موعد القطار.

ودعنا بعضنا، كل إلى وجهته، أنا وإلياس إلى باريس وخطاب العراقي فضل ان يبقى في مرسيليا بعد ان رأى الأيدي العاملة العربية منتشرة بكثرة فيها، رجوة الفلسطينية تركتنا وركبت حافلة ورفضت ان تذهب برفقتنا بالقطار. راحيل اختفت عن الأنظار بعد ان ودعتنا مسرعة، جاءتها سيارة خاصة، ركبتها واختفت مسرعة.

حملت أنا وإلياس حقائب ملابسنا وسرنا في شوارع باريس بحثا عن سكن يضمنا ويأوي غربتنا، كان إلياس يتحدث اللغة الفرنسية، لم يكن يتحدثها بطلاقة أو يتقنها، لكن مخزونه من الكلمات التي تعلمها في المدرسة يسد حاجتنا، بحثنا ساعات عن مسكن متواضع نستطيع دفع أجرته الشهرية، دخلنا كفتيريا نرتاح فيها من تعب السفر والبحث عن مسكن، أخذ التعب منا كل قوتنا لدرجة أننا اصبحنا غير قادرين على حمل حقائبنا وأصبحت أقدامنا غير قادرة على حملنا، طلبنا طعاما خفيفا ورخيصا، فجأة نهض إلياس، توجه نحو طاولة يجلس خلفها رجل في نهاية العقد السادس، سحب كرسيا خشبيا وجلس مقابلا له، تحدثا قليلا، عبرت يدا الرجل من خلال حركاتهما عن وصف لأحد الشوارع، فهمت انه يرشدنا إلى سكن قريب.

ودع إلياس الرجل واقبل نحوي مسرورا . قال:

- وجدت شقة صغيرة عند المسيو فرانسوا .

اول ما خطر ببالي أن اساله عن أجرتها . قال:

- ضمن الإمكانيات.

قلت له:

- هيا بنا نذهب إليها، أكاد أموت تعبا .

- لا، ليس الآن.

- ولماذا؟

- حتى يكمل المسيو فرانسوا طعامه.

- هو ذاك الرجل؟

- نعم.

سرنا خلفه، قطعنا شارعا واحدا، وصلنا إلى بيت المسيو فرانسوا، كان بيته جميلا جدا، عرفت منه فيما بعد أنه كان في الجزائر، عمل هناك لمدة خمس سنوات، كان يعمل مع القوات الفرنسية طباخا. فرش جزءا من بيته على الطريقة العربية والإفريقية، نوافذ بيته ذات أقواس إسلامية.

سألته مرة عن بيته، لماذا اختار الطابع الإسلامي، العربي الإفريقي، قال لي:

- هذا سبب خلافي مع ابنتي الوحيدة، منذ أن عدت من الجزائر وكأنني ما زلت أعيش هناك، أعيش في أرض افريقيا بروائحها وفنها الإسلامي، إحساس أن الذوق الإسلامي يتميز بجمال يختلف عن غيره بروحه الحية ويغني النفس عن كل ما هو غربي، إحساس نابع من القلب.

عمل المسيو فرانسوا من فناء بيته الخلفي حديقة صغيرة زرعها بأنواع كثيرة من الزهور، اعتنى بها بصورة جعلتها تشبه حدائق باريس الجميلة، تحيط بها أشجار عالية، قسم بيته بعد وفاة زوجته وهجرة ابنته إلى أمريكا إلى شقتين، شقة يسكنها وحيدا، والجزء الثاني من البيت يقوم بتأجيره للطلبة ويعتاش من أجرته وراتبه التقاعدي، يقضي جل وقته في حديقته، يقول عن نفسه إنه قارئ نهم، لديه مكتبة ضخمة.

جلسنا مساء يوم سبت في حديقته، كنا نسهر حتى الصباح، ليلة العطلة الأسبوعية، يوجد في حديقته مقعدان من الخشب، متقابلان بينهما طاولة صغيرة لا تتسع لأكثر من فنجانين من القهوة وكاس ماء. سألته بصورة قد يكون اعتبرها وقحة:

- لماذا تسرقوننا وتقتلوننا وتنهبون خيرات بلادنا وتستعبدوننا؟

صفن قليلا، أغمض جزءا من عينيه تاركا مجالا لرؤيتي، قال:

- لأنكم ضعفاء.

- وهل تستعبدون وتسرقون وتقتلون كل ضعيف؟

- ضعفكم أغرى العالم كله بكم، تفرق قلوبكم جعلكم غنائم سهلة المنال.

كان المسيو فرانسوا يحمل قلبا حنونا، لم أشعر إنه كان يوما يرافق جيشا قتل واستعمر وسرق واستعبد، يقول إنه في الخامسة والستين، أظنه أكبر قليلا.

كلما جلسنا مساء السبت أسأله عن حدث ما أو شيء ما، أتعلم منه في جلستنا الأسبوعية الكثير، نجلس معا حتى الفجر نشرب القهوة الفرنسية التي يعدها بإتقان طباخ ماهر، في كل ليلة يحدثني عن شيء ما، في الحقيقة أنا أسأله وأستفز ذاكرته فأسمع منه إجابة أحسها صادقة.

هذه الجلسات الأسبوعية ساعدتني في تعلم اللغة الفرنسية بأسرع ما يكون، لغة الشارع، جعلت مني باريسيا أكثر من أبناء باريس أنفسهم.

عندما سلمني رسالة الشؤم، غادرت شقتي منهك النفس ولم اعد إليها إلا بعد منتصف الليل، كان بانتظاري، قال لي بعد أن علم إنني كنت أجول في شوارع باريس، أنت تحتاج إلى كاس من الشاي بالنعناع، جلسنا مطولا حتى فجر اليوم الثاني.

سكب الشاي وقدمه لي وقال:

- باريس تسكن قلب القارة العجوز، تختلف التسميات، لكن الوجهة واحدة، مدينة النور ومدينة الأضواء، مدينة الحب والرومانسية، عاصمة الأزياء والعطور، باختصار إنها باريس العاصمة الفرنسية النابضة بالثقافة والفن والحياة، المدينة المغناطيس التي تجذب محبيها بـ 1803 معالم اثرية و173 متحفاً و470 حديقة عامة وفنادق ومطاعم واماكن ترفيهية وماركات عالمية من الصعب أن تحصى.

قلت له:

- باريس عاصمة القتل والدمار، عاصمة سايكس وبيكو.

نهض المسيو فرانسوا من مقعده المفروش بجلد خروف صغير، حرك قدميه، عادة يمارسها كلما جلس طويلا، عاد إلى مقعده وقال:

- باريس التي تصفها بعاصمة القتل والدمار وجئت اليها لتطلب العلم فيها مبنية على ضفتي نهر السين، تجعلك تقف حائراً، من اين تبدأ زيارتك؟! وبماذا تبدأ؟! فكل ما فيها يناديك ويغريك بان تبدأ به، ولكن من المثير ان تبدأ من قلبها النابض بالحياة.

قلب العاصمة باريس ساحة الكونكورد ومعناها الألفة والوفاق، منها تبدأ جادة الشانزليزيه والساحة امتداد لحدائق التويلري، في شرقها تطل عليك كنيسة لامادلين المعروفة برسوماتها الملونة المتأثرة بالفن الإسلامي، تعد من أجمل المباني التي بنيت على هذا الطراز في فرنسا، وتحتل وسط الكونكورد مسلّة الفرعون رمسيس الثاني مزينة بالكتابة الهيروغليفية، عليها إهداء من خديوي مصر إلى فرنسا، شهدت الساحة أحداثاً تاريخية كبيرة فيها نصبت المقصلة التي قطعت رأس الملك لويس السادس عشر والملكة ماري انطوانيت، يزين وسط ساحة الكونكورد نافورتان رائعتان على طراز نوافير الفاتيكان، وحولهما ثمانية تماثيل ترمز إلى المدن الفرنسية الثماني.

نهض المسيو فرانسوا عن مقعده وفتح نافذة تطل على قلب باريس وقال:

- من قصرٍ لملوك فرنسا حولته الثورة الفرنسية في العام 1793م إلى متحف يضم روائع الفن العالمي، من تماثيل، وقطع أثرية نادرة، تمثل حضارات الشرق القديم الذي يعود إلى أكثر من 7000 سنة قبل الميلاد، إضافة إلى أيقونة الفن العالمي رائعة ليوناردو دافينشي الموناليزا، جناح دينون (Denon) يضم تحفاً من الشرق الأوسط، والإمبراطورية اليونانية والفنون الإسلامية، الجناح الثاني سولي (Sully) يختص بفنون القرون من السابع عشر إلى التاسع عشر ويحوي آثاراً فرعونية، وفارسية، والجناح الثالث (Richelieu) يضم لوحات فرنسية وألمانية وتحفاً من قصور نابليون.

- كتبت معظم رسائلي لحبيبتي فوق قارب على نهر السين.

- على ضفاف نهر السين، كل شيء يشعرك بالروعة، الزوارق التي تحملك لتتمتع بوجبة غداء أو عشاء على متنها، الجسر الذي يربط بين طرفي باريس، رسامو البورتريه والكاريكاتير المتناثرون، سحر يدعوك لتكون مادة للوحاتهم، غير بعيد، عمق ذاكرة الثقافة العالمية، الحي اللاتيني، جادة السان ميشال تستقبلك بنافورتها الجميلة الفريدة، متحف العصور الوسطى يحكي سيرة اوروبا الحضارية، مسرح الأوديون، شوارع الحي المرصوفة تدعوك للتمتع بكل التفاصيل، والمقاهي المتناثرة على أرصفة الحي تدعوك للبحث عن جان بول سارتر، كارل ماركس، نجيب محفوظ، طه حسين في لي دو ماغو وكافيه فلور.

- اول مَعلم زرته في باريس برج ايفل.

- جوهرة باريس برج ايفل، عنوانها ورمزها، عندما تجد نفسك واقفاً أمامه ستشعر برهبة وفرحة بآن معاً. فكرة إنشائه ولدت على يد المهندس غوستاف ايفل في الذكرى المئوية للثورة الفرنسية، وصمم ليكون مدخلاً مميزاً للمعرض الدولي اكسبو يظهر التقدم في التصميم العمراني للفرنسيين، ينقسم إلى ثلاثة طوابق، كل طابق منه يعد مزاراً سياحياً بحد ذاته، شاهدت قصة بناء البرج مدعمة بوثائق ورسوم توضيحية من خلال المتحف السمعي والبصري المتواجد.

- استمتعت جدا بإطلالة اكثر من رائعة على باريس ونهر السين.

سألني: هل ذهبت إلى جادة الشانزليزيه؟

- نعم ولي فيها قصة.

- يبدأ الشانزليزيه من ساحة الكونكورد إلى قوس النصر الذي تم بناؤه بأمر نابليون عام 1806م ليخلد به ذكرى معركة النصر، ولتصور نقوشه المعقدة أمجاد انتصارات نابليون وأسماء مقاتليه، يغزو الصخب شارع الشانزليزيه ليلاً ونهاراً، وهو مركز لاحتفالات الفرنسيين.

سكت قليلا، فكر وكأنما يريد ان يطلق قنبلة وقال:

- أما إن أردت التعرف إلى باريس الفوضوية النابضة بالحياة وهذا ما يحبه الشرقيون والأفارقة، إذا كنت تحب ذلك فتوجه إلى السوق الأفريقي المزدحم وستجد نفسك في أفريقيا لكثرة ما ستجد من الملابس التقليدية والمنسوجات والتوابل الموجودة في شمال افريقيا.

احس انه وجه لي إهانة قاسية فتدارك الأمر وقال:

- أحب الذهاب إلى ذلك المكان، أشتري أشياء احبها وخاصة التوابل.

سألت المسيو فراسوا: هل تعرف توماس روبير بيجو؟

صمت لثوان ثم قطعها بابتسامة اعتذار، لم يتكلم، شعرت بحرجه من طأطأة رأسه.

قلت له:

- أعلم أنك محرج كغيرك من الفرنسيين الذين تمتلىء قلوبهم

بالإنسانية، لكنه عند الكثيرين من أبناء فرنسا بطل قومي، وهو بالفعل بطل، لكنه بطل الجريمة الذي اشتهر باسم بيجو، قائد ومارشال فرنسي مجرم، قاتل ومغتصب الأرض والعرض.

آمن بيجو بضرورة توطيد الاستعمار الفرنسي في الجزائر وترسيخ الاندماج من خلال القضاء على مقومات المجتمع الجزائري بإحلال المقومات الفرنسية.

شعرت بانزعاج المسيو فرانسوا من حديثي لكني لم أتوقف، تابعت:

- ولتطبيق هذه المبادئ والمفاهيم، أصدر عدة قوانين قمعية جائرة منها قانون مصادرة أراضي وأملاك الثوار، وإجبارية عقد الأسواق للتبادل التجاري بين الجزائريين والأوربيين، وأيضا انتهج أسلوب حشد الجزائريين في المحتشدات وتجميعهم ومحاصرتهم لمنعهم عن مد أي نوع من المساعدة للثوار، بل إنه عمل على تجريد القبائل من محاصيلها الزراعية وأملاكها وتوسيع صلاحيات المؤسسة المعروفة باسم «المكاتب العربية» وجعلها أداة لتنفيذ سياسته مع الأهالي، وأصدر هذا المجرم أوامره بإباحة الحرائق وإتلاف الأرزاق وطرد ونفي قادة الرأي والمشتبه بهم خارج حدود الجزائر مع ارتكاب المجازر الفظيعة وتسليط العقوبات الجماعية بما في ذلك التغريم الجماعي.

قال المسيو فرانسوا:

- الا ترى معي انك تبالغ في كلامك؟

ابتسمت، كدت أضحك لكنني خجلت من هذا الرجل الذي احببته واحبني، قلت له:

- اتبع «بيجو» سياسة دموية لإخضاع الجزائر في ما سوف يسميه المؤرخون «المدخنة». ففي باريس استجوب (السناتور ناي) نجل الماريشال (ناي) ودافع الجنرال بيجو عن «الخنق بالدخان» في كهوف الظهرة في جنوب مستغانم معترفا بجرمه، لكنه بررها بقوله: «إن احترام القواعد الإنسانية يجعل الحرب في افريقيا تستمر إلى أجل غير مسمى».

●●

شعرت ان المسيو فرانسوا لم يقتنع بكلامي فقلت له منكرا:

الم تشهد الجزائر واقعة إجرامية وحشية ارتكبها الجيش الفرنسي على أرض عربية وضد شعب عربي؟

- ماذا تقصد؟

- تعمد الاحتلال الفرنسي في الجزائر القيام بتجربة نووية فاقت شدتها شدة القنبلتين النوويتين الأمريكيتين اللتين ألقيتا على مدينتي هيروشيما وناغاساكي في اليابان خلال الحرب العالمية الثانية. التداعيات الاشعاعية الكارثية لهذه الجريمة النووية الفرنسية لا تزال أضرارها على السكان والبيئة قائمة حتى اليوم في تلك المناطق الجزائرية.

- انت تظلم فرنسا والفرنسيين.

- لم يتوقف الإجرام الفرنسي عن مجرد تجربة نووية في

منطقة رَقّان، بولاية أدْرَار بالجزائر، على مدى 4 أيام، بل تعمد الاحتلال الفرنسي استخدم المواطنين، كفئران تجارب في مواقع التفجيرات النووية لمعرفة الآثار النووية على أجسامهم، وهذا موثق من مصادر أوروبية، أليس هذا الأمر يندرج ضمن الجرائم الإنسانية؟!

صمت المسيو فرانسوا طويلا ولم يتكلم.

---

في مايو من عام 2011، أي بعد 166 عاماً من المدخنة، اكتشف باحثون جزائريون بقايا عظام بشرية وأقمشة نسائية في مغارة ببلدية منقمارية، دائرة عشعاشة -80 كيلومترا شرقي عاصمة الولاية مستغانم في منطقة الفراشيح-، ويرجع الباحثون أن الاكتشاف هو لقبيلة (أولاد رياح) التي (أبيدت عن بكرة أبيها) في 19 يونيو 1845 وهي إحدى الطرق البشعة المستعملة في ما سمي متهدئة الجزائر».

-7-

## رسالة

عدت الى شقتي بعد ان انهيت درسا في التشريح، كانت جثة امرأة، لم تكن جميلة، يبدو انها ماتت منذ ايام قليلة، تعودنا على رؤية الأموات وتقطيعهم وفتح صدورهم وبطونهم، عدت بعد أن أحضرت طعاما للعشاء إلى شقتي التي يشاركني فيها إلياس، أدخلت المفتاح في قفل الباب وقبل أن افتحه سمعت صوت مالك الشقة، التفتُّ إليه. قال:

- هذه رسالة وصلتك اليوم.

تناولتها، ظل واقفا، في فمه كلام، قال بعد أن صمت قليلا:

- مسيو عمر أمين، جاءت الشرطة صباح اليوم وألقت القبض على رفيقك إلياس.

تساءلت في نفسي عن السبب الذي أدى إلى اعتقال إلياس، رغم علمي به أنه رجل مسالم ويؤمن بأن جميع بني البشر تربطهم رابطة الأخوة والمحبة، سألت المسيو فرانسوا عن سبب اعتقاله قال:

- أظنه متهما بجريمة قتل.

تشنجت أطرافي ودب الرعب في احاسيسي وارتجفت كل

جوانحي للخبر الثاني، لم يكن إلياس عنيفا، كان مسالما محبا للخير، دخلت شقتي مصدوما واغلقت خلفي الباب، حتى أنني لم أشكر الجار كعادتي عند تسليمي الرسائل التي تصلني من الأردن، لم اعرف ماذا اعمل بخصوص صديقي إلياس، هل اذهب إلى قسم الشرطة وحدي؟ يرعبني منظر رجل الأمن في الشارع فكيف أدخل قسم شرطة! سوف الجأ غدا إلى احد الأصدقاء واطلب منه مرافقتي إلى المركز واسأل عن إلياس وإن احتاج الأمر سنتصل باحد المحامين ليترافع عنه.

سارعت بفتح الرسالة التي لم يكتب على مغلفها اسم المرسل، لم تكن الرسالة من سناء، فالخط لم يكن خطها، ولم تكن من أبي، كانت عن سناء نفسها، غيرت تلك الرسالة اللعينة كل شيء، قتلتني، قلبتني رأسا على عقب، كادت تدمر مستقبلي وتنهي حياتي لولا قليل من الإيمان بالله.

خرجت من شقتي هائما على وجهي، فقدت أحلامي، خسرت خلال ثوانٍ قليلة جزءا كبيرا من عمري، أنستني تلك الرسالة صديقي إلياس، كانت الشمس تميل للغروب، الشارع يغص بالمارة، رأيت كل ما في ذلك الشارع الباريسي ظلاما، شعرت أن الشارع يتحرك كموج البحر، كل شيء في ذلك الشارع يدور، رأسي يدور، اشعر أنني إذا واصلت المشي سوف اسقط، اختنق، الأشجار التي كنت اراها جميلة أصبحت تطاردني وتلتف أغصانها حول عنقي تريد قتلي.

قطعت عددا من شوارع باريس، ابحث عن سناء بين النساء، ابحث عن وجهها الذي ضاع هذا المساء، أنظر في وجه كل امرأة عسى أن أرى وجه حبيبتي في جسد أي امرأة، عساها تكون هي القريبة، لكنها غابت، لم تحضر، غابت حتى عن أحلامي، غابت مع حروف تلك الرسالة الغامضة والغريبة.

صار حزني كالبحر، واسعاً جدا، يكبر كلما توغلت في شوارع المدينة التي هجم عليها السواد، تعبت من نفسي، كل الأبواب مغلقة، إلى أين اذهب وإلى من ألجأ؟

اقتربت من مقهى، لم ألتفت إلى اسمه، دخلت وجلست في ركن معتم، أشعلوا في زوايا المقهى الأربع فوانيس ذات ألوان مختلفة تكاد لا تضيء حولها، كانت خمارة متواضعة ويبدو أنها للفقراء، أعتقد أن روادها من الفقراء والبسطاء، تحوي كراسي وطاولات قديمة يجلس عليها رواد الخمارة صامتين، يشربون بدون كلام، لا يوجد مغن ولا راقصة، حتى عامل الخمارة صامت، اقترب مني وقال:

- ماذا تشرب سيدي؟

أطلت النظر في وجهه، كرر السؤال. قلت له:

- أي شيء يجعلني انسى يومي، أهجر احزاني، أهرب من حروف رسالتي الغامضة.

عاد بعد قليل يحمل على صينية من الخشب كأسا رخيصة الثمن، رفعت الكأس إلى فمي، أردت أن أدفع بالسائل الغريب إلى

جوفي، جميع من في المقهى جلسوا صامتين، كأنهم ينتظرون شيئا مهما، ينتظرون ماذا سيحل بي عندما أحتسي كأسي، هكذا خيل اليّ.

في رأس كل واحد من رواد المقهى حلم، الصمت ينبئني بذلك، صامتون، حالمون، حتى العامل الوحيد في المقهى يتحرك بهدوء وسكينة، يبدو من مظهره أن احلامه ضاعت، ولا أظن أن أحدا من رواد الخمارة يعرف احلام العامل، لا أحد يعرفها غيره، ينتظر إشارة من يد أحد رواد المقهى لتقطع عليه خلوته.

وضعت من يدي كأس خمرتي، لم أشربها، نهضت كمن لدغ، خرجت من المقهى مسرعا، لن أشربها ابدا، عدت إلى شوارع المدينة اخاطبها بما تبقى مني على قيد الحياة.

مشيت ساعات دون توقف، حاولت الابتعاد عن الليل والعودة الى شقتي، تذكرت الرسالة فانتابني برد، رعشة صغيرة، كنت متعبا جدا، الرسالة جعلت حياتي على كف عفريت، ما الذي ينقذني من هذا العفريت المجنون؟!

## -8-

## السيدة ستناي زاهر

دخلت شقتي متكدرا غير قادر على التفكير، حاولت النوم لكنني عجزت، ما تزال آثار الرسالة معلقة في رأسي، تكاد تقتلني، أصابتني بألم شديد، فجأة تذكرت مغلف الجدة ستناي الذي أحضرته معي من عمان ولم أفتحه، صنعت لنفسي فنجان قهوة وخرجت الى حديقة جاري المسيو فرانسوا وجلست إلى طاولته الخشبية وفتحت المغلف الكبير، أعطتني اياه سناء قبل سفري، عندما التقينا في أعلى المدرج الروماني وقبل ان تنهض مودعة قالت لي: هذا المغلف من جدتي ستناي، اوصتني أن أعطيك إياه، وأصتني ان أطلب منك ان تحفظه كنفسك ولا تفرط فيه أبدا.

أخذت المغلف الكبير منها، تلمسته، حركته محاولا معرفة ما بداخله وقلت لها إن فيه على ما يبدو أوراقا مهمة.

قالت: نعم ولا تفتحه إلا بعد مرور ثلاث سنوات على دراستك الجامعية.

في الواقع نسيت أمر المغلف خاصة أنه مر عليه أكثر من أربع سنوات وليس ثلاث، وتذكرته بعد أن قرأت الرسالة القاتلة، وجدت

داخل المغلف الكبير مغلفا صغيرا كتب عليه من الخارج سناء، سارعت وفتحت المغلف الصغير قبل أن أطلع على أوراق السيدة ستناي، كتب بخط أسود جميل: من سناء إلى الدكتور الجميل عمر أمين.

عندما تنهي سنوات دراستك الثلاث الأولى إفتح مغلف جدتي وستجد فيه مجموعة كبيرة من الأوراق بخطها، كانت جدتي بارعة بالخط العربي، بل هي فنانة، تعلمت الكتابة وقراءة القرآن الكريم عند شيخ قريتهم، واتوقع انك ستبدأ بقراءة أوراق جدتي ستناي مساء وربما تنهيها في ليلة واحدة أو ليلتين، لا أنصحك بذلك لأنك قد تتأخر عن جامعتك وتغيب بسبب السهر عن دروسك، إقرا كل ليلة جزءا منها فهي ممتعة، قرأتها عشرات المرات حتى كدت احفظها غيبا، أتمنى أن تصبح أوراق جدتي يا دكتور عمر رفيقتك في الوقت الذي أغيب بجسدي عنك، واعلم أن جدتي كانت حافظة لكتاب الله وتمتلك ذاكرة قوية جدا، لم تنس أي حدث صار معها أو وقع لها، كانت شاهدة على الكثير من الاحداث منذ طفولتها في بلاد القوقاز وحتى هذه الأوراق.

واعلم يا دكتور عمر أن هذه الأوراق التي كتبتها جدتي بخطها الجميل واسلوبها الراقي والرائع لم يعلم عنها أحد إلا أنا وانت ولو علم عنها أحد ما سواء كان جدي ادمر أو غيره من رجال العائلة لكانت حياتها في خطر، وظلت هذه الاوراق محفوظة عندي ولم تخرج من غرفتي إلا إليك، فاحتفظ بها كاسمك وجواز سفرك حتى

تكون لأولادنا من بعدنا، اوصتني جدتي أن أعطيها لك وقالت لي: ربما يجد عمر أمين ما يبحث عنه فيها، وربما يعرف حقيقة نفسه فيها.

دخل علي المسيو فرانسوا يحمل بيده صينية وضع عليها كوبين من الشاي، كان يمشي بتثاقل، طرح تحية المساء وجلس على المقعد المقابل لي، رائحة النعناع تفوح مع بخار الشاي، يعرف أنني أحب الشاي بالنعناع، تغطي أوراق النعناع الأخضر مساحة كبيرة من حديقة منزله.

قال لي بعد أن ابعد فنجان القهوة من أمامي: هل تظن أن صديقك إلياس بريء من قتل الفتاة اليهودية؟

صفنت به، وضعت كوب الشاي من يدي على الطاولة الصغيرة، ظلت عيناي مفتوحتين لم يتحرك لهما جفن، كنت تناسيت أمر صديقي إلياس، أنستني إياه الرسالة الغامضة وأوراق السيدة ستاي زاهر، قلت له: وهل تظن غير ذلك؟

قال: لا أعلم ولكنك متزعج جدا، وكأني بك تأكدت من جريمته.

تركني المسيو فراسوا وحيدا مع أوراق الجدة ستاي، بعد أن اقتنع شخصيا كما قال لي إن إلياس بريء، لكنه عاد بالقول إن الإنسان العادي سهل أن يقتنع لكن القاضي يحتاج إلى بينات وشهود وأدلة سواء كان لإدانة المتهم أو براءته.

وقبل أن يخرج من الحديقة سارعت إلى فتح المغلف الذي يضم

أوراق السيدة ستناي زاهر وبصورة عشوائية سحبت ورقة من المغلف وكان للصدفة دور في إطلاق الرصاصة الثانية التي قتلت سناء وقتلتني، كتبت «هذا الصبي الذي يراودك يا ابنتي عن نفسك، أرى في عينيه رغبة فيك، شغفته حبا وتملكت قلبه، سحرته يا طفلتي حتى أصبح يتمنى لو انه شركسي، ذات مرة عندما كنت أروي لكم عن حياة النساء الشركسيات قال منفعلا «بدي أصير شركسي» وقتها قلت له: اللي بغير مشيته ويقلد غيره بضيع كل اشي، واللي بشلح ثوبه ببرد، يا عمر أمين الشركسي شركسي والشركسية شركسية والعربي عربي».

وكتبت السيدة ستناي زاهر في فقرة ثانية «هل نحن منغلقون على انفسنا؟ ولماذا يرفض أغلب الشركس ان تتزوج بناتهم من غير ملتهم؟ وهل نعد أنفسنا نحن الشراكسة طبقة عليا؟ وهل غيرنا لا يرقى ابدا الى درجة الشركسي؟».

قد يكون هذا الصغير عمر أمين أجبرني على طرح مثل هذه الاسئلة على الكثير من رجال ونساء الشراكسة، كانوا يقولون: نحن أقلية ويجب ان نحافظ على هويتنا الأديغية من الضياع واختلاطها بالدماء الأخرى، وقال البعض منهم إن جمال النساء الشركسيات يجب أن لا يكون إلا لشباب الشركس.

رميت أوراق الجدة ستناي من يدي، وعدت بذاكرتي لذلك اليوم الذي سألت فيه الجدة: هل من الممكن ان اكون شركسيا؟ أذكره جيدا، في اليوم الثاني التقيت بسناء وسألتها عن كلام الجدة

وكلام دعاء الذي قالت فيه «الشركسية اللي بتاخد من غير ملتها بتموت بعلتها». ضحكت سناء وقتها وقالت: ليقولوا ما يشاءون فأنا لن أكون إلا لك يا عمر أمين.

عدت إلى بيت أبي وكأنما ملكت الدنيا، وقتها قلت لنفسي: لن أسمع لأي إنسان إلا لك ومنك يا سناء.

رجعت إلى أوراق الجدة ستناي وقررت أن أبدأ بها من أولها عساها تخفف عني ما حل بي من آلام وتعب نفسي وجسدي في هذا اليوم.

وقبل أن أبدأ بها تذكرت إحدى سهراتنا في مضافة جد سناء، وقتها بكت الجدة بكاء شديدا وقالت:

- حين تركنا أرضنا فقدنا كل شيء.. حتى فقدنا السيطرة على مصيرنا الخاص.

نظرتْ الى صورة رجل كبير في السن معلقة على الجدار، تنهدت بحرقة وقالت:

- يصادف اليوم، 21 أيار من كل عام إعلان انتهاء الحرب الروسية-القفقاسية، اتخذ الشراكسة من هذا اليوم يوما للحزن.

مسحت الجدة ستناي دمعتها بمنديل مطرز عليه وردة حمراء جميلة ناصع لونها وقالت:

- حين تركنا أرضنا فقدنا حياتنا، فقدنا مصيرنا.

قرأت في أول صفحات الجدة ستناي «بدأت هجرتنا من القفقاس لأول مرة عام 1858م بشكل متقطع، ولكنها تزايدت خلال

الفترة الواقعة بين عامي 1864 و1878م، تركنا وطننا حماية لديننا أمام محاولات القمع والإبادة، وتحمّلنا المشاق والصعاب في هذا السبيل، وارتضينا استبدال بلادنا القفقاسية الخضراء الجميلة وجبالها الشاهقة وغاباتها الكثيفة ومياهها الوفيرة بوطن بعيد جداً. عشنا في الكهوف والوديان فترة طويلة في سبيل ديننا وإيماننا وكرامتنا بعد أن كنا نعيش في رغد من العيش الوفير في بلادنا الخيرة المعطاء، لم يكن في ذلك الوقت مدينة اسمها عمان، وكل ما كان هناك بقايا أطلال رومانية لمدينة تاريخية، وابرز هذه الأطلال المدرج الروماني، والحمامات الرومانية في سقف السيل، والقلعة التي تشرف على خمسة أودية تتشكل منها الآن عمّان، إضافة إلى جامع قديم مهجور يعود في تاريخه إلى عهد الأمويين، لم تكن تقام فيه الصلاة، وبرج عال اشبه بالمئذنة ولما وصلنا قام رجال الشركس ببناء مسجد مكان الجامع القديم المهجور وحوّلوا البرج إلى مئذنة.

وصلنا الى عمان عن طريق الشام قادمين من تركيا، نزلنا في قرية الرمثا وبتنا فيها ليلة كاملة، اكرمنا أهلها، نزلنا في منطقة يقال لها البركة الحمراء، سهول الرمثا خضراء وجميلة تذكرنا بخضرة سهول بلادنا، لكن الربيع في الأردن قصير، كنا نسافر على الخيول والجمال والحمير، تمّ نقلنا من محطة المزيريب في سوريا، كان خط السكة الحديدية ينتهي هناك في ذلك الوقت، جمعونا في مركز لتجميع المهاجرين الشركس الذين كانوا يفدون من تركيا إلى

الشام عن طريق بيروت أو حلب تمهيدا لنقلنا إلى الأردن.

لم نكن نحمل معنا شيئا إلا ما يحمله المهاجر من البسة ضرورية وبعض الحاجات البسيطة كالأمتعة والفراش والأسلحة التي تزين عادة اللباس القومي الشركسي وأسلحة تلازم الشركس ملازمة الظل للإنسان، إذ انها جزء مكمل للباس القومي، وسكنا في أروقة المدرج الروماني والكهوف الكثيرة المتوفرة في أودية عمان وفي الخيام.

اجتمع الرجال في ساحة المدرج الروماني وكنا نراقبهم من الكهوف، بحثوا أمر العيش في هذا المكان المقفر واخذوا يفكّرون في كيفية العيش في هذا الوادي الذي ليس فيه إلا سيل تتبع مياهه من رأس العين متجهة إلى الشرق، وكان على ضفتي السيل أشجار كثيفة تكثر فيها الحيوانات الكثيرة، وشدّوا العزم وبداوا في تنظيم حياتهم ومعيشتهم، واخذوا يشقون الأرض ويزرعونها بمحاريث صنعوها بأيديهم وصنعوا أدوات حصد المزروعات وجنيها ودرسها، كانت كلها من الخشب».

وكتبت الجدة ستناي في صفحة ثانية «السؤال الذي كان يطاردنا نحن الشباب والصبايا: أيهما الأصح البقاء في أرض القوقاز أم الهجرة؟ أعتقد ان البقاء كان أفضل، رغم ان الهروب يكون أفضل عندما تكون الحياة مهددة، النجاة بالنفس والعرض هي ما يدفع الانسان للهروب، ومع هذا فإن إمكان البقاء أفضل.

أعتقد ان المجد لمن بقي ولم يهاجر، كان زوجي أدمر يعارضني

في هذا الأمر وكان يقول: المهاجر يعرض قضية بلده وشعبه على الملأ.

عندما وصلنا إلى الرمثا، وكان الوقت عند الغروب، جلست في تلك المنطقة القريبة من خط سير القوافل، يطلقون عليها اسم البركة في الحارة القبلية، كان هناك أشجار متناثرة هنا وهناك، جلست تحت شجرة صنوبر عالية، تركت بصري يسرح في السماء، لم يكن مضى على تهجيرنا من قريتنا إلا سنة واحدة مكثناها في تركيا وفي حلب، تذكرت قريتنا وتلك الشجرة التي كنا نلتقي تحتها أنا ونارت، كان حبيب العمر، لم نكن نفترق أبدا، كانت تلك الشجرة بعيدة عن عيون الناس، كانت قريتنا صغيرة تقع قرب النهر مؤلفة من مجموعة من البيوت المتناثرة حول ساحة كبيرة، تتوسط الساحة شجرة عملاقة موغلة في القدم لا أحد يعرف عمرها، تحت الشجرة كان يجلس كبار السن آخر النهار يتسامرون ويتحدثون في أمور القرية والقرى المجاورة وعن بطولات الفرسان الشراكسة في حربهم مع الروس.

تتصل قريتنا بغابات كثيفة ممتدة على سفح جبل شامخ، قمته مكسوة بالثلوج الدائمة، وتتصل من الجهة الأخرى بطريق ترابي يصلها بالبساتين والحقول القريبة التي ترعى فيها الماشية ويزرع فيها القمح والذرة وأنواع كثيرة من الفواكه.

تحرك الجنود الروس مثل الجراد على أرض قريتي البديعة، داسوا على حقولنا من القمح والشوفان والذرة والشعير والتي كانت

تتكسر تحت أقدامهم وتحت حوافر الخيول ودواليب المدافع، حرقوا قريتنا مثلما حرقوا القرى والمزارع الجميلة وكأن عاصفة نارية مرت على المكان.

قتلوا رجالنا وشردونا، نبحوا أكثر من نصف مليون وطردوا الباقين من الرجال والنساء والاطفال.

هجرونا عن طريق البحر الأسود إلى الشواطئ، اضطررنا باعداد كبيرة من المهجّرين للانتظار عدة اشهر وغيرنا انتظر سنة كاملة قبل أن ياتي دوره، كنا نقيم في العراء عند ساحل البحر وبدون موارد من الطعام والملابس، كان يموت العشرات منا كل يوم بسبب الجوع والبرد القارص وحتى من وصل إلى تركيا عند الضفة الأخرى من البحر فإنه لم يجد احدا يساعده واستمرت معاناتنا اشهرا طويلة واستمر سقوط القتلى يوميا.

قبل اكثر من 100 عام انتهت حرب مريرة دارت بين القوات الروسية والشعب الشركسي في القوقاز، حرب استمرت 100 عام، قتل فيها جيش مزود بالاسلحة وباعداد لا تنتهي من الجنود شعبا صغيرا حاول الدفاع عن أرض آبائه وأجداده باسلحة بسيطة.(*)

لن انسى ما حصل في ذلك اليوم، كان ذاك اليوم شديد البرودة، تراكم الثلج في كل مكان، ولن أنسى وجه أمي وكلماتها، كانت تركض ممسكة بيدي كوني أصغر بناتها، كانت خائفة، بل

---

(*) تاريخ الشركس.

كانت مرعوبة، كنا نهرب من القتل والاغتصاب، كان رجال الروس يركضون خلفنا كالكلاب المسعورة، كانت تنظر إلى الوراء أكثر مما تنظر إلى الأمام، وكان رجال الشركس يحيطوننا من كل جانب، يتأخرون ويتقدمون حسب الحاجة، وكان الشباب يتراجعون إلى الخلف لحمل النساء الكبيرات بالسن والرجال العجزة.

عندما قرر رجال القرية الرحيل، خرجنا مشردين يملأ صدورنا الخوف والرعب، وقبل الخروج الأخير من قريتنا أوصوا الشباب بالانتباه للنساء وخاصة الشابات، كانت أمي خائفة جدا، ورغم خوفها إلا أن أنفاسها كانت قوية، وكنت خائفة جدا، لم نكن قادرين على الهرب، اقترب منا رجال الروس وصرنا نسمع وقع أقدامهم، قالت لي أمي: إن لحق بنا الروس اهربي وسوف أمنعهم من اللحاق بك، وقالت لي: اركضي بقدر ما تستطيعين ولا تتوقفي، وقالت لي: إحمي نفسك قدر ما تستطيعين وانتبهي لنفسك.

كنا نسير بأفواج متباعدة، حسب مقدرة كبار السن والأطفال على المسير، كانت الطريق من قريتنا إلى البحر الأسود مليئة بالثلوج، تحولت الغابات الخضراء إلى بيضاء، في منتصف الطريق سمعنا صوت صراخ امرأة شابة، التفت الجميع إلى مكان البكاء، كانت إحدى النساء الشابات التي كانت تسكن في حينا، سحبتني أمي إلى مكانها، كانت تجلس على الثلج وبيدها طفلتها الرضيعة، ماتت الرضيعة بردا أو جوعا لا نعلم، بكينا معها، ضم الزوج زوجته وطفلته الميتة، طلب منها الرجال أن يدفنوا رضيعتها في المكان

الذي ماتت فيه إلا إنها رفضت وقالت: أخاف عليها من البرد، واخشى أن ينوب الثلج وتأكلها الحيوانات المفترسة، صرختْ: يا الله، بكى كل من كان قربها، وحملتها حتى وصلنا مكانا استطاع الرجال أن يحفروا قبرا صغيرا ويدفنوا فيه تلك الطفلة.

قالت لي أمي: هذه الرضيعة أول شهداء الشركس المهاجرين.

وقالت: هذه الطفلة ماتت وهي لا تعلم من هؤلاء الذين يطاردوننا ولماذا يريدون قتلنا؟

وقالت امي: علينا الهرب باسرع ما نستطيع لأن الروس يبحثون عنا ليقتلونا.

وقالت: يجب أن نعيش، انتم الشباب أملنا في هذه الأرض.

وقالت أمي: عليك أن تعودي، لا تنسي أن تعودي إلى أرض الآباء والأجداد.

ابتعدنا قليلا عن بعض العائلات، كانوا كبارا في السن، وعندما زادت المسافة بيننا سمعنا صوت اطلاق رصاص، كانت كل رصاصة تقتل رجلا كبيرا في السن أو طفلا رضيعا او امرأة، سفكوا دماءنا التي امتزجت بلون الثلج الأبيض وحولته إلى أحمر.

وصلنا الى الشاطئ الشمالي الشرقي للبحر الأسود، كان المنظر رهيبا ومليئا بالروائح النتنة، كان مليئا بالجثث، والناس في طور النزع الأخير، وكان كثير من الناس في حالة من الوهن الشديد لا يستطيعون حتى دفن موتاهم، وكان العسكر الروس الذين يشرفون على طرد القفقاسيين المسلمين يطلبون تحميل اكبر عدد

منهم مدّعين أن الدفع سيكون بعد التحميل على أساس العدد، وكانت السفن تقف بعيدة عن الشاطئ وينقل إليها الناس بالقوارب، وبعد امتلاء السفن، كانوا يعمدون إلى خرق السفن من الأسفل فتغرق بمن فيها من المهجّرين والبحارة وأصحاب السفن، أما المال المخصّص لأجرة السفينة فيبقى في جيوب الموظفين.

كان حظنا انه تمّ تهجيرنا قسرا عبر البحر الأسود بينما تمّ طرد أعداد أخرى عبر الممرات الجبلية في القفقاس ومات الكثيرون منهم في الطريق قبل الوصول إلى الأراضي التركية، وفُقد في الطريق إلى تركيا ما يزيد على 300 الف شركسي، وبينما ظننا أننا وصلنا إلى بر السلامة اكتشفنا أن الروس قد ألقوا بنا على شواطئ مهجورة بدون طعام ولا شراب أو خيام تؤوينا، ففتك بنا الجوع والبرد والمرض وبدأ اغلب من معنا يتساقطون بالعشرات.

على ضفاف البحر الأسود كانت تصطف سفن كثيرة، كان صوت البكاء عاليا، أطفال ونساء وشيوخ ورجال، لم يبق منهم أحد إلا ووضع في السفينة، الكل يبكي وانا ممسكة بيد أمي وحائرة، كان المشهد يؤلم القلب لمجرد رؤيته.

كانت سفينتنا من السفن القليلة التي سمح لها بالإبحار عبر البحر الأسود، ذلك البحر الذي سيبقى على مر العصور شديد السواد بالنسبة للشراكسة فقد ابتلعت مياهه عشرات الألوف منهم ومات على شواطئه مئات الألوف.

قضينا أسابيع على السفن المكتظة، عانى العديد من ركابها من امراض وبائية معدية مثل الجدري، رافق كل سفينة فرد أو اكثر من الجيش الروسي لضمان عدم عودة الشركس المهجرين، مات الكثير من الأطفال الرضع بسبب الجوع والمرض، استمرت امهات هؤلاء الأطفال في التظاهر في مداعبة أطفالهن وكأنهم ما زالوا على قيد الحياة كي لا يرمى بهم في الماء!

نعرف سبيلنا عبر البحر عن طريق رؤية الجثث المرمية في البحر.. «هذا ما قاله أحد البحارة في خليج نوفور سيسك». كان على الشاطئ حوالي 17000 شخص وكان وضعهم لا يطاق بسبب البرد والمطر وغياب وسائل المعيشة وتفشي مرضي التيفوس والحصبة بينهم، وفي الحقيقة كنت أسأل نفسي من منا لا يفطر قلبه دما عندما يرى مثلا شابة شركسية مستلقية على الأرض بقميص صيفي وتحت السماء المكشوفة ومعها رضيعان كان احدهما يرتجف وهو يصارع الموت وفي لحظاته الأخيرة والثاني كان يبحث عن طريقة لإيقاف جوعه وهو يحاول الرضاعة من جثة أمه الميتة».

وكتبت الجدة في ورقة ثانية:

اتفقت مع نارت قبل ان يذهب الى المعركة التي لم يعد منها أن نذهب إلى عرس يقام في الجهة القريبة من الطريق الترابي، وقلت له: سأذهب مع أمي واخواتي ونلتقي هناك، وما إن اقتربنا من المكان حتى سمعنا من بعيد صخباً وصوت موسيقى، اقتربنا من

مكان الصوت، وجدنا مجموعة من الشباب والصبايا على شكل حلقة، كان بينهم نارت، كان ينتظر قدومي، كان يصطف الشباب في جهة والبنات في الجهة المقابلة، يرقصون بشكل ثنائي، خفق قلبي عندما تقدم مني طفل يحمل منديلا مرسومة عليه وردة حمراء، خفق بشدة، نظرت إلى الجهة التي يقف فيها نارت، هز رأسه علامة على أن الهدية منه. حنيت رأسي ووضعت المنديل على صدري علامة قبول الهدية، فجأة نهض واتجه نحوي، مد يده فاعطيته يدي، كان نارت بارعا في الرقص، والرقص يعتبر جزءا أساسيا في حفلاتنا واعراسنا، ويعتبر الرقص الوسيلة التي يعبر فيها الشباب أو الشابات عن مشاعرهم، وطور الشباب والبنات إشارات معينة أثناء رقصهم صار لها دلالات معينة يعبرون من خلالها عن مشاعرهم بدون أن يلفتوا الكثير من الانتباه في مجتمع يتصف بإعلاء مفاهيم العفة والأخلاق الحميدة والاحترام.

للموسيقى بوح وشجن وللحن أنين وفرح وموسيقانا جزء منا لا تعزفه الآلات بل يعزفه وتر القلب وتدندنها الروح، في الموسيقى نسمع صوت الوطن وعلى ألحانها تصعد الروح لترتقي إلى قمم الجبال، قمة النور، أفراحنا ألحان وأحزاننا ألحان، آمالنا ألحان.

تقدم نارت مني وقلبه يهفو لي، أمسك يدي بأطراف أصابعه واخذني برفق إلى منتصف الحلبة وبدأنا الرقص، كانت تتلاقى أصابعنا عند كل استدارة ونتبادل النظرات وربما بعض الاشارات.

ازداد التصفيق وارتفع صوت الإيقاع حتى كبار السن الذين

يراقبون الحفلة من بعيد ارتفعت أعناقهم لمتابعة الرقصة، كان نارت يرقص رافعا رأسه مظهرا كل ما عنده من مهارة وعنفوان ويثني قدميه وهو يضربهما بقوة على الأرض، اقترب مني محاولا إحاطتي بذراعيه ولكني انسحبت بعيدا بكل رشاقة، تحركت بخطوات صغيرة سريعة غطّاها فستاني الطويل فصرت وكأنما اطير مادّة ذراعي رافعة رأسي بشموخ مسدلة أهدابي، خفّف نارت الإيقاع شيئا فشيئا ثم توقف عن الرقص، صحبني إلى مكاني، حنى رأسه لي باحترام ثم عاد إلى مكانه.

كانت هذه الرقصة آخر لقاء لي بنارت، وكانت آخر مرة أمسك يده، وكانت بداية لنهاية قادمة ذبحت حبنا من الوريد الى الوريد.

-9-

## السيدة الإسبانية

قالت لي صديقتي الميرا الباريسية:

- انت لن تعود إلى وطنك.

لا ادري ما الذي جعلها تخمن هذا الأمر.

التقيتها ذات صباح، مرت من جانبي مسرعة، كانت سيدة اربعينية ذات ملامح شرق اوسطية، ليست عربية، ربما أصولها عربية، كنت قرب قوس النصر الذي بني في عهد نابليون الأول في ساحة بلاس دو ليتولي الموجود في أول شارع الشانزليزيه، سرت خلف المرأة الأربعينية، شيء ما شدني نحوها، تبعتها كطفل يمشي خلف أمه، سنها قريبة من سن امي.

اتجهتُ إلى حديقة بالونيا الشهيرة، تسير مسرعة، ترتدي ملابس رياضية، كانت تمارس رياضة المشي، مشيت خلفها، كانت تستمتع بنسائم الصباح، أحست بي أمشي خلفها، لم تخف مني، توقفت، نظرت إلى الخلف، خجلتُ من نفسي، أدرتُ جسدي للخلف هروبا، نادتني بلقب «يا سيد» وأشارت بيدها، جلستْ على مقعد في الحديقة، جلستُ على الطرف الآخر من المقعد الخشبي، مدت إليّ بعلبة ماء تحملها، هززتُ راسي معتذرا، سألتني:

- انت عربي؟

اجبتها بهز راسي نعم.

قالت:

- انا من اصول إسبانية، أعمل طبيبة أسنان.

قلت لها:

- انا اردني، أدرس الطب.

قالت:

- الرياضة مفيدة، والمشي قرب نهر السين متعة، أمارس الرياضة منذ اكثر من عشرين عاما.

سالتني:

- لماذا تمشي خلفي؟

خجلت، سكتُ قليلا، نظرت في عينيها وقلت لها مبررا حسن نيتي:

- انت بعمر امي.

ضحكت، قالت:

- هل انا عجوز؟ عمري خمسة وثلاثون عاما.

ابتسمتُ بعد ان ارتاحت نفسي واطمأنت لها:

- هو نفس عمر امي.

فتحت عينيها، كانت جميلة جدا، قالت:

- كيف ذلك؟

- تزوجت امي وعمرها أربعة عشر عاما.

لم تصدق كلامي حتى بعد ان اقسمت لها.

قلت لها:

- في بلدي يزوجون البنات وهن في سن الطفولة.

- والشباب؟

- في مثل عندنا في الارياف بقول «جوز الولد بيجيه ولد».

ضحكت صديقتي بالميرا وقالت:

- كل شيء في الشرق مختلف.

نهضت تريد أن تتابع رياضتها وقالت:

- وانت لماذا لم تتزوج وانت ولد؟

ضحكت وقلت:

- حاول أبي أكثر من مرة لكنني رفضت، حاول التأثير علي بحجة انني وحيده إلا انني لم استجب له.

تركتني بعد أن وعدتني أن نلتقي في هذا المكان كل صباح إن كان يناسبني، هززت راسي وقلت:

- سوف اكون سعيدا برؤيتك.

قالت لي بلكنتها الموسيقية:

- نحن -الجيران المتوسطيين- تسكننا روح قلقة، روح شغوفة بالحياة، يؤرقها دائماً ذلك التوق المبرح إلى حلم مستحيل، مستحيل أن يتحقق.

- نحن احلامنا بسيطة قد تتحقق.

- الاحلام البسيطة تحتاج إلى شغف من أجل أن تتحقق.

كنت أجد في صديقتي من اصول إسبانية شيئا مني يشبهني بقوة، ربما هو شعاع الروح المتوسطية، الملوّحة بالشمس والزاخرة بالحلم، التي تعطي للأشياء الصغيرة الذائقة والروح.

عندما زرتها في أحد الأيام، دعتني لتناول وجبة عشاء في بيتها، استقبلتني هي وزوجها المحامي، شعرت أنني في بيتي، كان بيتها جميلا جدا، أول ما استقبلني التيراس مغطاة بمعرش شجرة المجنونة الكبيرة، التي تبعث فيها الشمس الربيعية قوة الحياة، وتغطي أغصانها ورودها الحمراء بشراسة والتي تنمو كما تشاء، تتباهى بألوانها الزاهية، تتسلق كل مكان من التيراس، كانت حاضرة بقوة في بيت الميرا، قالت وقد كنا نسمع عزفا جميلا لزوجها على البيانو:

- العشق يجرح الوتر، والشجن يلاعب الصوت.

كنّا نسمع عزف زوجها ونحن نرتشف القهوة الفرنسية، وأحيانا العربية، بفناجين صغيرة ملونة، كان زوجها الخمسيني يعزف ويبتسم، ربما الماض كنّا متفقين على انه كان لنا فيه مكان لا ينكره التاريخ.

كانت تعلق على جدران بيتها الصغير والجميل صورا لها ولزوجها، مركونة على جدران بيتها، وصورا لاطفال مرسومة بألوان مائية، صورا ثرية، وصورا انفلتت من زمن عابق بالذكريات، شخوصها تكاد تخرج من إطارها وتشاركنا الحياة، تذكرني ببيوت عمان الشركسية والسورية والفلسطينية والبدوية، وأطفال

ضاحكين، تتكرني بنسوة تختزنهن ذاكرتي بملامح قوية، وملابس سوداء حزينة، ورجال متعبين.

فجأة توقف زوجها عن العزف واستدار نحوي وقال لي:

- زوجتي تحبك كثيرا .

- وانا احبها جدا، فهي أول من علمتني كيف اعيش في باريس.

ضحكت صديقتي الإسبانية وقالت:

- يعتقد عمر امين انني كامه، فهو يرى انني كبيرة بالسن.

ضحكنا ثلاثتنا وقلت:

- امي في نفس عمرك لكنها تزوجت وهي طفلة، من الطبيعي أن تتزوج الفتيات في بلدي قبل بلوغهن سن الزواج.

قال الزوج قبل أن يعود إلى العزف:

- تعلمت من الميرا الحبيبة الكثير من الحياة، تعلمت منها اكثر من أمي.

ادار الكرسي الذي يجلس عليه وقال:

- قبل فترة تجرأت ومددت يدي عليها، ضربتها بعد نقاش حاد حول طبيعة عملي، لكنها عادت وغفرت لي خطأي، إنها إنسانة عظيمة، وكما قلت لك إنها تحبك ودائما تحكي لي عنك.

## -10-

## امرأة واحدة

لم تصدقني عندما اقسمت لها انني لأجلها احببت الحياة، وأنها وحدها من يستحق الحب، وقلت لها: لاجلك صادقت كل الأمكنة، وعشقت كل الوجوه وكانت الشوارع معك مساحات للسعادة والفرح.

وقلت لها: قبلك لم يلاحظ أحد من عائلتي أرقي المتكرر، الذي يتكرر كل ليلة، لم يستطع حتى اصدقائي وربما صديقي الأحب سرور تفسير نبرة صوتي العالية والمختلفة او تعاملي القاسي احيانا معه، لم يفهم الذين يحيطون بي انني متعب ولا اقوى على تحمل المي، على الرغم من تصنع الابتسامة لم يدرك احد ان الحزن اتخذ من قلبي مسكنا، لم يميز احد الكذب من الحقيقة إذا كنت بخير أم لا، كنت أعيش قبلك وحيدا في كل شيء وكم تمنيت لو اشارك وحدتي مع أحد.

اتهمتني بالمخادع وأن هذا الكلام اقوله لكل فتاة التقي بها. واتهمتني بانني لم احفظ هواها ولم اصنها، وقالت لي: أنت تاجر احاسيس وعواطف، تمنح كل امراة تصادفها قليلا من عطفك لتحبك، واقسمتْ بمن رفع السماء بغير عمد إن لم اصارحها لن تعود إليّ ابدا.

صمتت قليلا كأنما تحاول تدارك شيء ما أحسست ان نهايته خطيرة. قالت:

- كنتُ حيث تركتني، سناء الطفلة الشركسية، لم اتحرك إلا في دائرة وضعتني انت فيها، في مملكة قلت لي يوما إنني ملكتها.

- لكنك ذهبتِ بعيدا، غادرت مملكتي وهجرت قلبي مع أنك تعلمين أنك الوحيدة القريبة إلى قلبي.

- لم أهجرك ابدا، منحتني الحب دهرا وقتلته في لحظات.

- حتى في أحلامي، كنت لكِ، لم اكن لغيرك أبدا، لم تكن تجذبني او تغريني اي امرأة ولم اكن ممن يطاردون النساء ولم اكن متلصصا على كل امراة تمر من أمامي. حتى عندما كنت مراهقا وكانت زوجة أبي ترسلني إلى إحدى الجارات لطلب ماعون، كنت ادخل واخرج دون معرفة اي تفصيل من تفاصيل النساء رغم الجمال الذي كان يعرف عند تلك السيدات.

لم أكن سهل الوقوع بالخطايا رغم كثرتها في باريس، لا لم اشرك معك اي امرأة. عشتُ منذ طفولتي وحيدا، منطويا على نفسي، أحلم بامرأة، اي امرأة، دائما ينتابني شعور غريب أن هناك نقصاً في نفسي ولا تسده إلا امرأة، أم او أخت، حبيبة أو زوجة. ظل قلبي وحيدا حتى جئتِ، غيرتِ حياتي، أحببت الحياة، تغيرت نظرتي للدنيا، حولني حبك بين ليلة وضحاها إلى إنسان آخر، إنسان يحب كل شيء.

قالت:

- إذا لماذا خنتني؟ هل الباريسيات أجمل مني؟ كسرت قلبي ودمرت حبي. لم تترك لي فرصة أدافع فيها عنك أملم نفسي. قتلتني وأنا حبك الطفولي وعشقك الصغير الذي كبر بين أيدينا، تركتني أموت، ليتك كذبت عليّ ولم تصارحني بعلاقاتك الغرامية.

- تلك الرسالة التي وصلتني كانت نهايتي، في ذاك الشهر اللعين، جاءني ساعي البريد يحمل لي رسالة من عمان سلمني إياها مالك الشقة، كانت تلك الرسالة بداية هروبي منك ثم جاءت أوراق الجدة ستاي التي أطلقت فيها الرصاصة الأخيرة على صدري وصدرك. رسالة قصيرة جدا لم يكتب فيها سوى أسطر قليلة جعلتني أخسرك، جعلت تلك الرسالة كل أيامي وجعا.

- وكأني بك لم تقرأ أوراق جدتي كاملة؟

- لا، اكتفيت بما قرأت وخفت ان أجد اشياء تزيد في ألمي.

- ليتك قرأتها كلها لعرفت الحقيقة وارتاحت نفسك. لكنها ميرينيا جميلتك الباريسية.

في الواقع لم تكن ميرينيا جميلة، رغم انها كانت أول فتاة اعرفها في باريس، بل كانت الوحيدة، كتبت لك رسالة عنها، أردت ان تكرهيني، استجبت لكاتب الرسالة وكتبت لك: «كانت جذابة، فيها كثير من الانوثة، تحرص على أن تثير الآخرين بلباسها وجسدها الذي تظهره ليلفت الأنظار، تحافظ على الدوام على هيئة مغرية، تحرص على ارتداء ملابس مثيرة للغاية، تنورة قصيرة، بلوزة

قطنية مفتوحة، تعلق في عنقها مجسما صغيرا معلقا بسلسلة ذهبية على صدرها، تترك شعرها الأسود الفاحم مسترسلا على كتفيها، عيناها سوداوان تظللهما رموش طويلة.

كانت مثقفة جدا، تعرف كل شيء، وتتحدث بكل شيء، كانت شاعرة، هي قالت إنها شاعرة، انا لم أسمع منها اي قصيدة.

رأيتها مساء يوم أحد، دخلتْ القاعة، جاءت فجأة، جعلت للقاعة لونا آخر وعطرا جديدا، دخلتْ كحصان، ترمي شعرها الأسود خلف ظهرها، جلستْ بثقة، بداية بحثتْ عن مكان في القاعة، المقاعد مليئة، تقدمتْ إلى الصف الثاني، كان هناك مقعد فارغ، جلست فوقه كأميرة نثروا تحت مسيرها زهرا أبيض، جاورتني بالمقعد فشاركتها عطرها، كنت أعيش حزنا كبيرا على تلك الرسالة القاسية التي وصلتني من عمان، أخرجني عطر أنوثتها من حزني الشديد».

حفظتْ ذاكرتي تلك الليلة الباريسية، ليلة سهرت فيها مع ميرينيا حتى ساعة متأخرة من الليل، شربتْ زجاجتها كاملة، كانت تسكب القليل من النبيذ الأحمر في كأسها وتشربه بعناية فائقة، انا لا اشرب، أقسم بالله العظيم انني لم اشرب الخمرة طيلة دراستي في باريس، ولا حتى في حياتي كلها، هي تشرب وانا أراقبها، اكتفيت بالابتسامة عندما قالت بسخرية:

- لن تخسر شيئا.

- شربتْ الكأس الخامسة ثم السادسة، سكبتْ في كأسها آخر

ما في قعر الزجاجة، رمتها بعد ان افرغتها، قالت:

- نرمي كل شيء نفرغ منه.

نهضتْ بتثاقل وقالت:

- هذه الليلة أنا ملك لك، انا ملكت زجاجة التبيذ وأنت تملكني فافعل بي ما تشاء.

تقدم بنا الليل، أردتُ مغادرة بيتها، أمسكت بيدي وقالت:

- الليل مـخـيف في شـوارع باريس، هل من الممكن أن تكمل سهرتك برفقتي؟

استجبت لها ولم أرفض طلبها، دخلتْ غرفة نومها، لم تغلق الباب خلفها، تركتني استرق النظر إليها وهي تبدل ملابسها. تحاول اشعالي بنيرانها، حاولتْ تجهيز نفسها لأجتاحها على سرير فوق بركان رجل شرقي قتلته رسالة غامضة وامرأة فاتنة الانوثة، اصبحتُ في متناول شهوتها، زاد تمنعي، عرفتُ في ذات نفسي انها لحظات قليلة من المتعة وسالعنها بعد ذلك العمر كله.

شعرتْ بترددي، وعلمتْ أنها لحظة لن تعود إن سمحتْ لي بالهروب، إن لم تقطفني هذه الليلة فلن تستطيع التمتع بي نهائيا.

نفسي لوامة، قلت لها:

- «لا أستطيع، لا أستطيع».

كلمتان قلتهما بعقلي لا بقلبي، نفسي اللوامة أنطقتني برحمة ربي، ما جئت لهذا، وما كنت يوما عاصيا لربي ولا لوصية أبي ودموع حبيبتي.

خـرجتُ من شقـتـهـا إلى ليل باريس وانا أردد «لا أسـتطيع.. لا أستطيع».

●●

بعد فعلتك، وخيانتك التي اعترفت بها في آخر رسالة تسلمتها منك، لم يعد لك عندي وعود أو مواثيق. بكيت كثيرا، كنتَ طفولتي وشبابي، فخنت الشباب وقتلت الطفولة. كانت أمي تعلم كل قصتي وكانت متأكدة انك ستكون زوجي، وهي تعلم ايضا انك خنت عهدي. عندما رأتني إحدى النساء الشركسيات في الحمام العمومي، وكثيرا ما تختار النساء زوجات ابنائهن في الحمام، سألت امي:

- هذه الجميلة ابنتك؟

كان قلبي مكسورا، محطما، عزلت نفسي عن الناس، في هذا اليوم اجبرتني امي على الذهاب معها، وعندما اخبرتني امي أن أبي وافق على زواجي لم أرفض.

قالت لي أمي:

- وافق والدك على زواجك.

وقالت أمي:

- الشاب جيد وهم مثلنا من عائلة شركسية.

ليلة الجمعة، بعد صلاة العشاء، تمت كتابة عقد الزواج، دخل الشيخ ومعه رجلان من اقاربي شاهدين، أخذوا موافقتي وقبولي، بكيت تلك الليلة وشكيتك لله لأنك السبب في بعدي عنك. حسبي الله ونعم الوكيل.

حضر عقد القران القليل من أقاربي وبعض من اقاربه، جلس الرجال في مكان قريب من الغرفة التي ضمتني، التفت النساء حولي، أمي وحدها من تعلم بألمي.

كان الطقس ثلجا، اتذكر أيام الثلج التي لعبنا فيها معا، بيضاء كانها قطن، جبال عمان بيضاء، كنا نركض ونسقط ونضحك، كان البرد قارصا لكننا كنا سعداء.

قال الشيخ المأذون:

- «الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وعبده وعلى آله وصحبه أجمعين، بعد الإيجاب والقبول من العريس والعروس وولي أمرها وعلى سنة الله ورسوله ﷺ نقرا الفاتحة على عقد قرانهما داعين الله ان يتمم لهما».

مسح الرجال والنساء وجوههم بعد الانتهاء من قراءة الفاتحة ومسحت أنا دموعي.

منذ تلك اللحظة أصبح زوجي إلى أن أراد الله لنا ما شاء وما كان.

**

تمنيت عندما عرفت أنك سوف تتزوجين شابا شركسيا، لو اني لم اعرفك ولم التقيك، تمنيت لو اني مت قبل ان اكبر واعشق واهاجر واتعرض للخديعة واكتب لك كاذبا انني خنتك. لكني تأكدت أن كلام جدتك ستاي وصديقتك دعاء صحيح «الشركسية لا تتزوج إلا شركسيا».

- ليس لجدتي أو دعاء علاقة بما صار بيننا، انت غصبتني على ذلك.

- المحب لا يحقد.

- لم أصل إلى درجة الحقد، والمحب ايضا لا يقطع الأمل من حبيبه بهذه السهولة.

في تلك الفترة المشؤومة، تلك الأيام السوداء، بعد أن فقدتك باعترافك لي بعلاقتك بالفتاة الباريسية فقدت كل شيء، الصديقات، الأهل، الجيران، حاولت ان أستبدلك بكتبي، بأحلامي ودموعي الغزيرة. رفضت المحاولات الكثيرة من أمي واختي وصديقاتي للمشاركة في اللقاءات التي كانت تجمع عائلات الشركس، بينما تتسابق لها الصبايا في مثل عمري، تقوقعت في غرفتي وانكمشت على نفسي، ارهقني صمتي، حاولت ان اعبر بالكتابة واشكو همي لدفاتري، لكنّي فشلت، شغلت نفسي بعمل البيت، هربت منك بعقابي لجسدي.

لم تهدأ نفسي إلا بعد أن قرأت القرآن الكريم، وجدت فيه راحتي واطمأنت له أحاسيسي، زدت من صلاتي في الليل عسى أن يرزقني الله راحة النفس، في تلك الليلة لم أنم، اقتربت فيها من الله سبحانه وتعالى، أطلت في سجودي، اليس السجود اقرب ما يكون فيه العبد الى الله؟

بكيت كثيرا في تلك الليلة، بكيت بسعادة التقرب إلى الله، سعادة مليئة براحة النفس، قربي من الله شيء عظيم، دعوته

بحـرقـة أن يخلصني من آلامي وأحـزاني، رجوتـه أن يرزقني الخيـر حيث كان.

صـديقـتي دعـاء، تعـرفـهـا جـيـدا، هي من أهدتني نسـخـة من المصحف، مصـحف بحـجم صـغيـر أحـمله مـعـي في كل مكان، قـالت لي:

- لن تهدأ نفسك إلا بهذا.

وأشارت إلى كتاب الله، وقالت:

- عليك بالصـلاة فإن الرسـول عليه الصـلاة والسلام كان يقول «أرحنا بها يا بلال»، هي راحة للنفس وللجسد..

كانت صـديقـتي دعـاء فتـاة متـدينة جـدا، ترفض أن ترتبط الفتاة بأي عـلاقـة إلا بالزواج، وكـانت تعـادي أي فتـاة تعيش عـلاقـة حب، ورغم أنهـا متـدينة تصـلي صلواتهـا في وقـتهـا وتحـافـظ على تلاوة القرآن إلا أنها أيضا كانت ترفض أن تتزوج الفتاة الشركسية إلا من رجل شـركـسي لأنـه بحـسب رأيهـا يحـفظهـا، وكـانت تقـول: الرجل الشـركـسي هو الأقـدر على فهمها من غيره، يعرف ميولها ورغباتها، حياته تشبه حياتها، مبررة ذلك بأن الرجل الشـركـسي سيحـفظها ويحفظ دينها وإيمانها.

وكانت تقول:

- «يلي بياخد من غير ملتو بيموت من علتو».

كانت تقول لي قاصدة:

- التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

- عندما عدت إلى الاردن في إجازتي السنوية حاولت أن أصحح خطئي.

عندما جئتني معتذرا، رن الهاتف، ترددت برفع السماعة، كنت منزوية في غرفتي المليئة بالظلام والأحلام، المسكونة بك وحدك.

سمعت صوتك:

- سناء.

سكت ولم تنطق، ثم قطعت صمتك لتعرفني بك: قلت:

- انا عمر، عمر أمين.

وكأن صوتك غاب عن مخيلتي، وكأني لا أعرف نبراته وموسيقاه التي ما فارقت قلبي.

- اهلا...

- ممكن...؟

لم أدعك تكمل جملتك، خشيت أن انهار أمام صوتك.

- ماذا تريد يا دكتور عمر؟

طلبتَ مني أن نلتقي في أعلى درجات المدرج الروماني حيث حفرتَ اسمك واسمي، رفضتُ طلبك، أيقظت مكالمتك ألمي ووجعي، عانيت صراعا في داخل نفسي، أريدك لكنك خنت عهدي ولم تحفظني وتحفظ هواي.

مر اسبوع كامل وأنا ارفض فكرة أن التقيك، لجأتَ إلى أختي الكبرى التي تحبك، حدثتها بالأمر وطلبتَ منها التوسط بيننا، توسلتْ إليّ أن امنحك فرصة، قالت لي:

- إسمعي منه، التقيه مرة واحدة.

- عمر أمين ذنبي الذي تبت عنه.

- إن أراد خيرا فخير.

- شوه أحاسيسي وقتل مشاعري.

- يجب أن تتخلي عن غرورك، عمر بشر وليس من الملائكة، استيقظي يا أختي الحبيبة، افيقي أيتها الجميلة، حاولي أن تتخلي عن غضبك، اتصلي به، كوني مبادرة، كوني طيبة وسامحيه لأنه يريد رضاك، أنت كنت شبه مخطوبة له، تجاوزي زلته وهفوته وتقبلي فكرة أنه رجل، رجل شرقي.

- ذنبه كبير.

- التائب من الذنب كمن لا ذنب له والحسنات يذهبن السيئات.

أرخيت ظهري على كرسي من الخيزران وأخرجت من صدري تنهيدة حارة، خرج معها ألم كبير، نهضت إلى الهاتف وطلبت ان التقيك.

كان اللقاء بالنسبة لي حزيناً جداً رغم انني مشتاقة لرؤيتك، لكنك قتلت في قلبي كل حنين وذبحت ذكرياتنا على سرير النساء الباريسيات.

ما إن نزلت من الباص في الموقف الذي يبعد عن المدرج قليلا حتى بدأت اغذ الخطى، لم اشأ ان أتأخر عن موعدي معك، حتى وان كان صدري مليئا بالغضب تجاهك، اسرعت في خطاي فأنا لم

يتبق لدي إلا دقائق قليلة، قلت لاختي وانا اودعها: لن اتأخر عليه، اسرعت بارتداء الفستان الازرق اللون، الذي قالت لي امي عندما اشتريته انه يليق بي تماما، وهذا كل شيء، لم ازد على لباسي اي شيء، فانا لن اجعل من نفسي دمية من اجلك، لانني اتوقع من هذا اللقاء البرود وان ينتهي بدون جدوى، وربما يكون اللقاء الاخير بيننا، وكنت اتوقع ان الامور لن تسير على ما يرام.

في تمام الساعة التي اتفقنا عليها وصلت الى المدرج، جئت اليك مترددة خائفة، كنت قد وصلت قبلي، رأيتك تجلس على مقعد حجري في أعلى المدرج الروماني، في المكان الذي حفرنا فيه اسمينا قبل سنوات، نهضت ومددت يدك تريد أن تصافحني، اعتذرت منك، وضعت يدي على صدري ولم أصافحك، جلست بعيدة عنك، تبسمت لي لتخفف التوتر لكنني بقيت كما جئت، حزينة وخائفة، قلت لي:

- أتذكرين آخر لقاء لنا قبل سفري الأول؟

- كنت طفلة افعل ما أريد دون رقيب عليّ، كنت بريئة لدرجة انني اثق بكل شيء واصدق كل الناس.

- وقتها بكيت، وبكيت.

- ليت تلك الجلسة دامت، ليتك لم تسافر أبدا .

- هبطنا الجبل إلى المدرج الروماني، كنا في زيارة عند اقاربي، أحد جبال عمان السبعة، يطل من جهة سفحه الغربي على قصر رغدان، مررنا بجانب الحاووز الكبير، كانت ظلال الأشجار تضفي

برودة جميلة في شهر تموز، صعدنا أعلى درجات المدرج الروماني، هنا نقشت اسمك واسمي.

- جلسنا ساعات طويلة.

لم اقاوم كلماتك، ذكرتني بتلك اللحظات الجميلة، قلت لك:

- ضحكنا فيها، بكينا، أتذكر عندما هبطت المدرج مسرعا لتشتري العصير.

- سمعت اغنية «بُورد بُورد» تصدح في جنبات المدرج الروماني، كان صوت محمد الشهير ب(مته)، بائع الشراب والعصير على عربة يدفعها، يقوم بلف البرميل المحاط بقطع الثلج بحركة سريعة، كنا نسمع صوت تلاطم العصير المثلّج داخل البرميل، وهو يقول «بورد بورد»، كانت عربته مزيّنة بالبالونات وأدوات الزينة وبعض الفواكه البلاستيكيّة، ينادي بصوته المرتفع (شوووويت، بارد بارد)، كانت لحظات جميلة.

- وكانت لحظة وداع قاسية، وعدتني أن أظل سناء القريبة.

- الله وحده يعلم بألم الفراق، فكل كلمات الدنيا لا تقترب من وصف ذاك الموقف، دموعي غزيرة، ضاق نفسي، ما زالت رائحة تلك اللحظات القاسية تعيش في رئتي، الفراق صعب، وأصعب شيء أنه فراق طويل، دعوت الله أن يكون بعونك يا صغيرتي، في ذاك المساء عندما ودعتك غابت شمسك عن سمائي، أصبح الكون كلّه ظلاماً دامساً، أصبح الكون كله من دون أيّ ألوان وملامح أو أصوات، لم يعد سوى صدى صوتك يرنّ في أذني، لم أعد أرى

سوى صورة وجهك الحبيب، لم أعد اتذكّر إلاّ صورتك، ونظرات عينيك عند الوداع، دموعك القاسية، ابتسامتك الرقيقة الحزينة.

- كنّا معاً، نتقاسم الأفراح والأحزان، كنّا نسرق من ايّامنا لحظاتٍ جميلة، أن تكون هذه اللحظات طويلة، نحقّق سعادةً وحبّاً دائمين، حاولنا دائماً ان نبقى معاً لآخر العمر، لكنها حياة ويجب أن نعيشها بحلوها ومرها، وعدتني بالإخلاص، وتركتني.

- رفضت ان أعود معك إلى الحارة، ورحت أنظر إلى صورتك أمامي، أسترجع ذكرياتي الجميلة واللحظات الحلوة التي جمعتنا معاً، كم فرحنا، وكم بكينا، كم واجهنا صعوباتٍ اجتزناها معاً، وكان لنا أن نفترق.

- في غرفتي بكيت، بكيت كثيرا.

أعطيتني مغلفا كبيرا وقلت لي إن فيه أوراقاً مهمة، واوصيتني بأن لا أفتح المغلف إلا بعد ان أجتاز السنة الثالثة، وقلت لي إنه من الجدة ستناي، وإنه خاص وقلت لي: احتفظ به.

••

التقيت مساء اليوم نفسه بصديقي الوحيد سرور، سهرت عنده تلك الليلة حتى الفجر، كانت سهرة جميلة جدا، أعدنا فيها بعض الذكريات، سوف يسافر بالطائرة إلى اكسفورد لاكمال دراسة الاقتصاد والعلوم السياسية، سألته عن سبب اختياره لدراسة السياسة رغم أن والده مقتدر ماليا ويستطيع دراسة الطب، قال لي إن والده يجهزه لمنصب سياسي كبير أهم من الطب والهندسة.

وقال لي إن والده استطاع أن يحصل له على منحة للدراسة في بريطانيا على نفقة الحكومة.

ووصل والد صديقي سرور إلى أعلى المناصب في الدولة، وتسلم حقيبة وزارة المالية في حكومة سابقة. قال لي وقتها سرور إن والده تعب في حياته حتى استطاع الوصول إلى هذا المنصب، وقال إن والده أرسله الى بريطانيا لدراسة الاقتصاد والعلوم السياسية حتى يتسلم في يوم من الأيام منصبا سياسيا في الحكومة.

وقال لي ونحن أطفال إن أحد أقاربه عين والده مسؤولا ماليا، يجمع أموال الضرائب من الفلاحين والمزارعين، وأخبرني أن أهل القرى يهابون والده كثيرا ويحسبون له ألف حساب وله هيبة ونفوذ وكلمته لا تصبح كلمتين.

وقال سرور إن منصب والده كان يطلق عليه التحصلدار وأن رئيس الحكومة اختاره وزيرا للمالية لثقته به.

كان سرور من أغنى طلبة المدرسة، فهو الطالب الوحيد الذي كان يحضر إلى المدرسة بسيارة، ويكاد يكون من الطلبة القلائل الذين كانوا يحملون مصروفا كبيرا يزيد عن مصروف طلبة الصف مجتمعين، كان مميزا بملابسه وحتى بحديثه.

افترقنا أنا وسرور لمدة زادت على سبع سنوات، التقينا مرة أو مرتين خلال الإجازات السنوية، حيث كان في إجازته السنوية يسافر إلى إحدى الدول الأوروبية ويلتقي بأسرته هناك ويقضون إجازتهم خارج البلد.

كنا نكتب لبعض رسائل كل شهر مرة وأحيانا كل شهرين، في إحدى رسائله كتب لي من مدينة مدريد في إسبانيا، كان وقتها على وشك التخرج والعودة إلى الأردن.

قال في رسالته إنه تمت دعوة اسرتهم من قبل السفير في مدريد وقدم لهم الضيافة كاملة على نفقة سعادة السفير.

وقال:

«أزف اليك يا صديقي خبر خطبتي من ابنة السفير، فتاة جميلة جدا، خريجة إحدى الجامعات الإسبانية، اختارت تخصص الصيدلة لأنها تحبه كما قالت، الفتاة تحمل ملامح بدوية، سمراء وذات عينين سوداوين، رغم انني يا صديقي الدكتور عمر لم اكن راغبا بالزواج أو الارتباط في هذه الأوقات إلا أن أبي الذي رتب لي هذا الأمر له وجهة نظر تختلف عن وجهة نظرنا نحن الشباب، فهو يرى أن سعادة السفير له مستقبل كبير في البلد وبالتالي فإن هذا الأمر سوف ينعكس عليّ.

وكتب لي في آخر رسالة «ما الذي يحدث عندما يكون والدك هو من يسن القوانين، حين يتوقف كل شيء على رغبته وعناده ليس في كنف العائلة فحسب، وإنما في كثير من أمور البلاد؟ ما الذي يحدث عندما يمتلك بين يديه سلطة مطلقة وأنت تعرفه؟ ما الذي يجري حين تحمل الأوراق النقدية اسمه وتوقيعه؟

أكتب لك هذه الرسالة التي تعبر عن دواخلي الحقيقية وليس عن صورتي كابن مسؤول وصهر مسؤول، أتتذكر يا صديقي كيف

كان النّاس يخطئون بيننا وفي احسن الأحوال كانوا يظنوننا اخوين ومنهم من يبادر متسائلاً: هل انتما توام؟ وددت حينها أن تكون الحقيقة كذلك فلربما التصق اسمك باسمي، كنا نتبادل النظرات الرقيقة والضّحكات ثم نقول: لا لسنا اخوين بالدم ولكنّا كذلك بالمشاعر والحب.

عندما ارى انني اناقض نفسي في ما يفعله ابي وما اريده انا أصاب بحالة من الغثيان والضيق، وكلّما حدثتني نفسي بالسوء تذكّرتك فكنت ناقوس الخير في نفسي، وهل يرجو الإنسان من الصحبة اكثر مما نعيشه أنا وانت.

واسمح لي يا صديقي الحبيب أن اصارحك اكثر من قبل واقول لك إنني غير راض عن اغلب ما فعله ابي وإنني لم اكن أرغب حتى في دراستي ولم أرغب في استلام اي منصب في يوم من الأيام، كل ما أريده أن اعيش في وطني كاي شاب يبدع في حياته ويصبح ما يريده هو لا ما يريده له والده، ولكني كغيري من الشباب لن أقاوم رغبات أبي ولن ارفض المنصب والمال».

## -11-
## هروب

زرت الرمثا قبل خمسة أعوام، لم اكن أعلم انها مسقط راسي، جئتها ضيفا عند صديقي يوسف، يوسف العبد الله، تعرفت إليه في احد شوارع المانيا عندما زرتها في إجازة أحد الأعياد، استضافني في شقته المتواضعة والتي هي عبارة عن غرفة وحيدة، رجل طيب وكريم وصاحب واجب.

التقيت بيوسف في مدينة شتوتجارت في ألمانيا الغربية، ذهبت انا وصديقي إلياس اليها برحلة برية من فرنسا إلى المانيا، بحثنا عن أي عربي في تلك المدينة الصناعية، في اليوم الثاني وجدناهم بالعشرات، أغلبهم من الرمثا، جاءوا إليها عمالا في مصانع الآلات الثقيلة باجر بخس، التقيت بيوسف في أحد مطاعم المدينة، كان برفقته أربعة أشخاص، عرفتهم من لون بشرتهم ثم من لغتهم، سألتهم عن بلدهم فقال لي يوسف:

- من الرمثا.

ضحكت، نظروا في وجوه بعضهم، خجلت من نفسي واعتذرت، قلت لهم:

- أسألكم عن بلدكم فتجيبون: من الرمثا!

قال يوسف:

- من الأردن، من قرية الرمثا، هل سمعت عنها؟ الألمان «يعرفوها» أكثر من الأردن.

ابتسمت، قلت معرفا بنفسي:

- عمر أمين، أردني أسكن في عمان.

شعرت وهم ينطقون بكلمة الرُّمثا بلهجتهم الجميلة أنني أعرف هذه القرية، شعرت برعشة تهز جسدي وتحرك مشاعري.

تحدثنا كثيرا قبل أن يجهز لنا يوسف ورفيقه طعام المنسف، قلت ليوسف:

- وصلنا إلى شتوتجارت قبل العيد الكبير «الأضحى» بأيام، اتفقنا أن نقضي العيد بعيدا عن فرنسا، تغيير جو، كنت في السنة الرابعة من دراستي، شعرت أن مدينة شتوتجارت الألمانية، المدينة التي توازي دولة عربية، شعرت كأنها حارة من حارات الرمثا، أينما تجولت أجد رمثاويا، تسمعهم عند التعريف بأنفسهم:

- «اني رمثاوي».

جميلة كلمة «اني» تلك الكلمة التي تعني أنا، وعرفت فيما بعد أنها لهجة أهل القرية ويعرفون بها. استضافوني وصديقي إلياس في غرفتهم. قال رفيقهم سلامة:

- اني مش قادر أعمل كل هاي الساعات الطويلة بهذا الأجر القليل، أشهر مرت ولا زيادة في الراتب، هناك شركات تعمل ساعات أقل بنفس الأجر الذي نتقاضاه، صحيح العمل أصعب

قليلاً لكن كما يقول المثل (ميتة واحدة خير من ألف ميتة).

قدم سلامة الشاي لنا وقال:

- بعد العيد نشوف شو بدنا نساوي.

- اي عيد؟

ابتسم سلامة وقال:

عيد الأضحى بعد يومين جاي.

صمتوا قليلا ثم راح سلامة يغني:

«بعايد يا دمع عيني بعايد     وحباب الروح عن عيني بعايد

واجا العيد عليّ مين اعايد     اعايد مين واحنا بالعذاب»(*)

سادت دقائق من الصمت، شعرت كم هي الغربة قاتلة، قال يوسف:

- «آه، غداة غد يا لهف نفسي على غد تتعالى فيه المآذن بالتكبير للعيد الله أكبر ولله الحمد.. صبايا الرمثا وضعن الحناء في أكفهن والكحل في أعينهن، النساء الكبيرات بالسن يحملن مناقل الفحم والقهوة العربية ليشرب الناس أجراً عن موتاهن، أطفال الرمثا يفرقون الطعم ابتهاجاً وسروراً، الناس يروحون غداً زرافات ووحدانا للمقابر لزيارة الموتى. قلبي طير جريح تخلى عن السرب بانتظار الحياة أو الموت. قلبي لحن ضائع يبحث عن قيثارة يعزف عليها.

في تلك الليلة الوحيدة التي قضيتها بغرفة الرماثنة، سهرت مع يوسف حتى صلاة الفجر، قال لي:

---

(*) الشعر للدكتور محمود الزعبي.

- «كان الفصل خريفاً، الخريف يسدل سحابة ألم وحزن على القلوب، كنت صفر اليدين، أهلي كباقي أهل الرمثا يشكون الفقر، في العشرين من عمري وردة ندية لم تفرح بشمس نيسان ولا بندى الليالي الطرية، المر يتدفق من الشدقين والشوك يدمي قدمي، حجر صوان لا ينبت عليه ربيع وسفينة ليس لها ميناء ترسو عليه، حداد يعقب حداد، سواد البسه فوق سواد، كلما رفعت رايتي أعود منكس الراية، كم من الذكريات الموجعة يا قلبي مرت، كم من كم تنام في حنايا الضلوع».

وضع من يده كاس الشاي وقال:

- «بعد العصر رحلنا إلى الشام ومن ثم إلى تركيا كي يأخذنا القطار إلى ألمانيا، كنت ومعي مجموعة من الشباب ممن أدمت الأيام أقدامهم، بدت الرمثا يومها في عيني على رحيلنا كحسناء مات عشيقها فزادها الدمع جمالاً وحسناً».

توقف هنيهة عن الكلام، كانت عيناه الداكنتان تلمعان، تابع كلامه:

- إنها الساعة الوحيدة لي في الرمثا قبل الفراق والوداع، صمت مطبق ودموع تنهمر وآهات تزفر وأكباد تنوب، مات أبي وكحلتني الأيام باليتم وأنا في السادسة من عمري، تعودت على المواويل والعتابا، رضعت الهم مع الحليب، أمي بجانبي، عجوز من بقايا الحياة، هدت الأعاصير حولها وقوتها فلم تقو على شيء، جاعت لتشبع، قاست البرد لتشعر بالدفء، وكم جنت الحب لتضعه

في أفـواهنا ونحن زغب الحـواصل، ليس في بيـتـي أحـد سـوى شقيقات عزيزات على قلبي، لم يودعني ولم يحضر أحد لوداعي.

توقف عن الكلام ثانية، وراح يفتش عن كلمات مناسبة، كانت نظراته بعيدة وهو يبذل مجهودا كي يتذكر:

قـبلت يد أمـي وودعت شـقـيـقـاتي وسـرت في الدرب الطويل وكلمات أمي تلاحقني، «روح يا ولدي قدامك خضرة ووراك خضرة، يرضى عليك رضـا قلبي ورضـا ربي، أمـامك وسـاعة وفضـيـة بجاه زينب وصفية، يكفيك شر الظلام وأولاد الحرام».

اختنق صوتها بالبكاء وفاضت محاجرها بالدموع.

ودعتهم وودعت مـعـهم قلبي، ودعتهم رغمـاً عني ولأجل لقمـة الخبز المعجونة بالدم والمر، ودعتهم والشوق يضنيني إليهم وأنا على بعد خطوات منهم.

سـارت السـيـارة تنهب الأرض صوب دمشق عـاصـمـة الأمويين ومن دمشق إلـى حلب ومن حلب إلى اسطنبول في تركيا حيث نأخذ القطار من هناك إلى ألمانيا.

لم يتـدخل أي واحـد من الجـالسين في الغـرفـة في الحـوار بل تركناه يتمهل في كلامه، وبكلمات ارق من سابقتها مضى يقول:

- كان وجهي ملتصقاً بزجاج السيارة وقلبي يتمزق لوعة وأسى، سـرحتْ بنات أفكاري في حقول المجهول، ألمانيا الغـربيـة.. أين هـي؟ لا نعرف لغتها ولا عـاداتها ولا تقـاليدها، كيف العمل هناك؟ يقول الناس إن الضـغط على الأزرار سـيكون عـملنا. يا ليت شـعـري

أصحيح ما يقولون، أم التعب والشغل الثقيل؟ سيكون مصيرنا على الله، الغريق لا يخشى البلل وأسود البشرة لا يضيره السخام.

لم ينظر إليّ حين تكلم، كانت عيناه نصف مغمضتين من اجل التركيز، وواصل حديثه وهو يرتشف الشاي على مهل:

- ومن سوريا إلى اسطنبول أخذنا القطار إلى ألمانيا الغربية عبر بلغاريا ويوغسلافيا والنمسا.

كان من معي من الرفاق يحملون نماذج للعمل في ألمانيا الغربية من بعض معارفهم، أنا وزميل لي لا نحمل شيئاً (على اتكال الكريم)، قال إخواننا لنا:

- علينا أن نغادر القطار في النمسا وننتظر كي يبعثوا لنا من ألمانيا نماذج عمل.

قلنا لهم:

- سنبقى بالقطار والمكتوب على الجبين تراه العين.

وفي سالسبورج، في الحدود صعدت الشرطة الألمانية للتفتيش، تسارعت دقات قلوبنا، جف لعابنا من الفم، ارتعدت أطرافنا خوفاً، نحن لا نملك لا تأشيرة دخول ولا طلبات عمل ولا نقوداً تعيدنا إلى الأردن.

وأخرج إخوتنا في الطريق نماذج عملهم التي تؤهلهم للعمل في ألمانيا، أما أنا وزميلي الآخر فقد جلسنا بجانب بعضنا كأم طير أخذ فراخها من العش، جلسنا بذل ولوعة، إنها ساعة الحسم، وضعنا رأسينا تحت طيات الجناح وسلمنا الأمر إلى من يقود السحائب.

دخلت الشرطة الألمانية حجرتنا في القطار وسألت: من أين أنتم؟ فقلنا عرب من الأردن، طلب جوازات سفرنا، أخرج الإخوة الذين يحملون وثائق العمل جوازاتهم مع الوثائق.

سألنا الشرطي:

- للسياحة أم للعمل؟

- سائح.

قال:

- هل معك ثلاثمائة دولار؟

- نعم مع زملائي في الحجرة المقابلة.

وكان في الحجرة طلاب عراقيون، فقلت لهم:

أريد منكم ثلاثمائة دولار أريها للشرطة ليسمحوا لي بالدخول إلى ألمانيا وسأعيدها حال أخذي التأشيرة.

ختم الشرطي ثلاثة أشهر على جواز سفري، أعدت النقود إلى أصحابها شاكراً.

سار بنا القطار قاطعا مسافات طويلة إلى (لودفغ سبورق) من أعمال شتوتجارت حيث اصطحبنا معنا عناوين بعض الناس لمساعدتنا. حاول معارفنا بكل جهدهم إيجاد عمل جيد لنا فلم يفلحوا، لم نكن نحمل إذن إقامة ولا تصاريح عمل ومصيبة المصائب أننا عرب.

وبعد جهد وبحث مضن حصلنا على عمل شاق أنا وسلامة، عملنا كان حمل الزفت المغلي برشاش وسكبه على الشارع، لم نعمل

إلا ساعات، احترق زميلي وعدنا إلى البيت سوياً، بكيت عليه، ليتنا يا سلامة بقينا عندهم في الرمثا بين الأحبة والأهل، نشبع إذا شبعوا ونجوع إذا جاعوا، إن جمال الطبيعة في ألمانيا لا يساوي شيئاً.

تنهد يوسف وتطلع الى ما يحيط به بالغرفة كما لو كان يبحث عن مهرب من الذكريات، ثم حرك كتفيه بقلق ناظرا إليّ بإمعان على امل أن اشاركه في الحديث، لكنني لم أنبس ببنت شفة، ماذا يمكنني أن اقول في مثل هذه المواقف؟ تنهد يوسف من جديد، ومن جديد ومن دون أن يسعى إلى نقل تداعي الأفكار الكامنة وراء الكلمات قال:

– فيّ شوق (للشراقي)، للغبار الذي يوجع عينيّ، للحجارة الملقاة على قارعة الطريق تجرح قدمي، للشتاء ولياليه، لشوي البلوط وحكايات أبو زيد الهلالي وذياب وجساس وكليب.

تبسم لنا وكأنه يعتذر عن الألم الذي تسبب به لنا بحديثه عن ذكرياته، وضع كأس الشاي من يده بعد أن ارتشف منه القليل وقال:

بحثنا عن عمل آخر، وجدناه في شركة (ألفريد هايد)، شغلنا هو إخراج الأمهات من البراغي الصدئة، طول البرغي لا يقل عن نصف متر، نضع البرغي في الملزمة وبالمفكات والمفاتيح، نبذل الجهد والعرق والقوة. كانوا يعطوننا على الساعة خمسة عشر قرشاً وهو مبلغ جيد جداً، وكنا نرسل ثلاثين ديناراً أنا وسلامة إلى الأردن، كل واحد خمسة عشر ديناراً وهي كفيلة بإطعام الأهل خبزاً في الأردن.

اشعل يوسف العبد الله سيجارته وقال:

- أشرفت الشهور الثلاثة من الإقامة على الانتهاء، لم يبق إلا عشرة أيام ويتم (تسفيرنا) إلى الأردن، لم نوفر شيئاً بعد والشرطة لا ترحم. وفي مساء يوم ماطر، حمل البريد لنا رسالة من جمع من أبناء الرمثا يعيشون في مدينة (كارل سروه) يستعجلوننا بالمجيء إليهم والعمل عندهم في مصنع المعلبات الفارغة ويؤمنون لنا إقامة عمل، اخبرونا ان المناخ والجو عندهم بارد نسبياً.

وفي صبيحة اليوم الثاني كنت أقف مع سلامة في محطة القطارات بانتظار القطار الذي سيقلنا إلى مركز عملنا الجديد. كانت الثلوج تحوطنا من كل جانب ونحن نرتعد برداً والجيب يرتعد إفلاساً وفقراً، وأتى القطار وركبنا وسار في طريق مجهول. جلس كل منا قبالة الآخر، تركنا العش الذي آوانا حال مجيئنا. صعبة مغادرة المكان الذي ألفناه. رحب بنا الزملاء كثيراً. كانوا يسكنون في الشركة. كل ثلاثة أسرة فوق بعضها البعض. سكنا معهم ولم نشتغل بعد. لا يحق لنا العمل. الإقامة أوشكت على الانتهاء وسكين الترحيل إلى الأردن على رقابنا.

آه من حربي الطاحنة مع الرغيف، بهذه الكلمات وصف يوسف العبد الله معاناة أبناء الرمثا في ألمانيا.

وقال:

لولاه لطرت إليهم، إلى أهلي وأصدقائي، وعشت بجانبهم كما يعيش الكيال في قلب الرمثا، تعب سيفي من ضراوة القتال، أنا

فارس أحارب على عدة جبهات، جبهة الرغيف وجبهة الحنين والشوق، جبهة الدعاية السيئة التي يروجها أعداء العرب للعرب.

تبسم يوسف، سكب في كاسه اخر ما في إبريق الشاي، رفع الكاس وارتشف منه قليلا، قال:

- انتهت المهلة التي حددتها الشركة من أجل قبولي في العمل أو عدم القبول، ذهبت إلى المسؤول بعد اربعة عشر يوماً، اخبرني انني مقبول وعليّ ان اباشر العمل غداً صباحاً، افهمني المسؤول أن الشركة تعمل ثلاث نوبات، نوبة من الخامسة والنصف صباحاً ونوبة من الثانية ظهراً حتى العاشرة ليلاً، ونوبة من العاشرة ليلاً حتى الخامسة والنصف صباحاً، حددوا لي مركز عملي، آلة خراطة كبيرة، علي ان انتج كل يوم الفاً وثلاثمائة قطعة مخروطة، عليّ أن انهض في الرابعة صباحاً، ارتدي ملابسي، اغسل وجهي، احتسي فنجاناً من القهوة الحلوة، استقل الحافلة التي توصلني إلى عملي، في تمام الخامسة يجب ان اكون بباب المصنع، أسير عشر دقائق من باب المصنع، ابدل ملابسي، أرتدي ملابس العمل وأباشر عملي خلف الآلة.

تدخل سلامة في الحديث وكأنما يحاول التخفيف عن يوسف، قال:

- كنت أعمل واقفاً على ساقي من الخامسة والنصف صباحاً إلى التاسعة، أتناول إفطاري في نصف ساعة، من التاسعة والنصف حتى الثانية ظهراً بدون توقف، مزروعاً أمام الآلة زراعة كالشجرة،

لا خطوة إلى الأمام او الخلف، اشعر ان جسمي تصلب واطرافي قد يبست، أعود إلى البيت ميتا من التعب، أتناول طعام الغداء بعد الغروب، أرمي بنفسي فوق اللحاف بلا حراك.

نظر إليّ يوسف العبد الله وقال:

- عدنا في احد الأيام كنا منهكين، وجد يوسف مجموعة رسائل، رسالة من امه ورسالة من صديق من الرمثا.

ابتدأت برسالة صديقه من الرمثا، ترك رسالة أمه للآخر حتى يستمتع بها، ضحك يوسف وهو يقرأ رسالة صديقه: اتذكر يا يوسف تلك الرسالة التي سهرنا حتى الفجر ونحن نتحدث عما ورد فيها؟

ضحك يوسف وقال: رسالة ضغطة الزر؟

قال سلامة: نعم هي.

تبادلنا انا وإلياس النظرات، استغربنا من الرموز التي كانا يتحدثان بها، شعر يوسف بما في نفسي ونفس إلياس، قال موضحا:

- كتب صديقي في رسالته بعد السلام والكلام يستفسر عن كيفية المجيء إلى المانيا، يريد ان يبذل المستحيل كي ياتي لأن العمل في المانيا كله على الزر، ما عليك إلا ان تضغط على أزرار الآلة وتعمل وحدها بينما انت تجلس على كرسي مريح تشرب كاساً من عصير او تقرا في صحيفة أخبار الدنيا.

يحلم.. بكلمة واحدة وصف يوسف مشاعر صديقه، وقال بحزم:

- قلت لسلامة: لا، لن أدعه يأتي إلى هنا ليعمل، عش في ديارك بكرامتك وابق حيث أنت، لا زر ولا ازرار بل مر في الليل وعذاب في النهار.

تابع يوسف العبد الله حديثه وقال:

تفحصت رسالة أمي، لم اصبر على تركها، قراتها مرات ومرات «عيني تلجلج عالدروب، توجه شمال وتوجه غروب» عسى طارش من حي أهلنا» هكذا استهلت أمي رسالتها تأمرني بالمجيء، يريدون تزويجي، جوز الولد بيجيه ولد، أنت وحيد ولحمة على رغيف، تزوجت شقيقتي من قريب لي، تقول أمي كنت أغني عليك:

«لا تقولن غايب.. غنّ على يوسف.. لا تقولن غايب.. ناخت الركايب وباب بيته ناخت الركايب.

أنهت أمي رسالتها التي كتبتها شقيقتي الصغرى بإخباري أن الموسم جيد. قالت:

«بعنا قمحنا وسيبنا الناس، ادخرنا المونة، خزنا شعيرات للدجاجات وعلف للبهيمة، سملنا البير وأصبح ماؤه جيداً وصالحاً للشرب، اشترينا عنزتين منوحة للدار، سيجت على الدار خوفي من العدا، ترى ما سياج الدار غير رجالها.(*)

(*) طيور الغربة- ياسين الجهماني.

## -12-
# طعة وقايمة

كانت الأجواء في البلاد العربية متوترة، وكان حديث الجميع عن الوضع السياسي في الأردن، وخاصة عن حلف بغداد، هذا الحلف الذي تمت معارضته من جميع الاطراف خاصة الاحزاب القومية، وكان لهذا الحلف تأثيره الكبير على الرمثا وابنائها بحسب ما قال يوسف العبد الله.

وقال:

- تمت مقاومة حلف بغداد ورفضه من جميع أطياف المجتمع الاردني، وكان لنا في الرمثا من تبعاته مواقف تذكر، كان نصيبنا الشيء الكثير، معاناة شديدة، سيعاني منها أبناء الرمثا لأوقات طويلة، لن نتخلص من تبعات هذا الحلف بسهولة.

قال سلامة:

- لا تورطنا يا يوسف، خلينا نترزق.

- الخوف يطاردنا حتى ونحن في بلاد الحريات.

قلت: الحيطان لها آذان.

قال يوسف:

- إلا في أوروبا، رغم كل ظلمها للشعوب فإنها تحفظ من على أرضها.

نظر يوسف إلى الشباك وقال:

- كانت الاحتجاجات على حلف بغداد في الأردن مثل بعض الدول، كان التوجه الرسمي يسير نحو الانضمام إلى الحلف، احتجاجات واسعة انطلقت في كل المدن والقرى الأردنية آنذاك واستمرت إلى أن أعلن عن التراجع عن فكرة الانضمام.

قلت ليوسف العبد الله:

- انتم من نقل الحدود؟ عملتم جمهورية مستقلة؟

قال بعد أن صفن قليلا:

- أصغر جمهورية. من الذي أسسها؟ من الذي حاول فصلنا عن الأردن؟ لم يكن الأمر في الرمثا استثناءً، فالاحتجاجات كانت شاملة، لم تكن احتجاجات الرمثا لتحظى بذلك الحضور الحي في الذاكرة، كانوا مجموعة من الشباب، لا تتجاوز أعمارهم العشرين عاما، تم اعتقال عدد كبير منهم، هرب عدد منهم إلى سورية، كان ممن هربوا سالم الفقير، رجل على البركة، على الحدود سأله الصحافيون:

- «شو فيه بالرمثا؟».

أجاب ببساطة:

- «طلعة وقايمة».

كانت التهم الإخلال بالأمن، كانت الرمثا مليئة بالأحزاب،

الإخوان المسلمين، الشيوعيين، التحريريين، البعثيين، لكن عدد المنتسبين لهذه الأحزاب قليل جدا لا يتجاوز أصابع اليد، لم يكن أي من منتسبي الأحزاب مؤثرا.

كان الوضع السياسي يزداد غليانا، تم بث الأخبار من قبل الحزبيين أن حلف بغداد خطير جدا على الأردن، سيحاصر سورية والعراق ويحول الأردن إلى كيان محتل. خرجت المظاهرات، الكبار والصغار، الرجال والنساء، في كل منطقة، تعطلت المدارس...

قلت له:

- والجمهورية؟

ابتسم وقال:

- كانت بداية اللعنة على الرمثا وستستمر، لن تتوقف أبدا.

كانت المظاهرات تجوب أنحاء البلدة، وبشكل خاص على الطريق الرئيسي الموصل إلى الحدود مع سوريا، هاجم الجمهور مركز الحدود وأحرقوا مبنى الاستراحة، التي كان الناس يعرفونها باسم الرّست، كما أحرقوا أحد مشاريع ما عرف حينها بـ«النقطة الرابعة الأمريكية» الذي كان يضم ماكنات لغربلة الحبوب، لم تعد هناك نقطة حدود واختفى موظفوها ورجال الأمن فيها.

سكت يوسف العبد الله قليلا، نظر في وجه صديقي إلياس وقال:

- في هذه الأثناء بدأ الحديث في الرمثا عن الاستقلال والجمهورية، تم نزع قارمة الحدود التي تعلن نهاية الحدود الأردنية

مع سورية ووضعوها على مثلث الرمثا، اقل من نصف ساعة، جاء وزير الداخلية إلى الرمثا، منعوه من الدخول، انتظر على المثلث «تقاطع الرمثا-عمان-المفرق-اربد»، نصف ساعة غيرت مستقبل القرية، يا خوفي من استمرار لعنة النصف ساعة على القرية واهلها.

احد قادة ما اطلق على نفسه الانقلاب عندما علم بقدوم الجيش بقيادة الحياري كان يحمل بيده سيفا، خطب بمجموعة من الشباب وقال لهم:

- «انتم امام خيارين، المقاومة أو الاستسلام، وابلغهم أنه مطلوب وسوف يهرب إلى سورية، وبالفعل نزل عن سطح المنزل الذي كان يخطب من فوقه وغادر البلدة باتجاه قرية الطرة متجهاً نحو الحدود السورية، تركهم لمواجهة قوات الجيش بقيادة الحياري. اصبحت هذه السنة تاريخاً، يؤرخ بها أهلنا مناسباتهم.

قال سلامة ضاحكا:

- سنة الحياري مثل سنة الثلجة.

ضحكنا، قال يوسف العبد الله:

- سنة الثلجة وسنة الحياري وسنة الشيبة، هي أوقات مرت على الرمثا ارخ بها سكانها لتظل حية في حياتهم.

حك يوسف رأسه وكأنه يبحث عن فكرة ما يختم بها هذه المحاضرة السياسية، قال:

«استيقظ الناس على انتشار قوات الجيش في الرمثا، امتلأت

بالجنود، فرضوا على كل منزل أن يرفع راية بيضاء على سطحه، واعلن منع التجول في كل البلدة، وجرت حملة اعتقالات واسعة اقتيد بها الناس إلى مواقع للاعتقال أعدت خصيصاً في بعض المنازل، وكان الواضح أن المقصود توجيه إهانة شاملة، والقيام بعملية تاديب جماعي للناس، وقد تصرف هؤلاء بعنف، كما جرى فرض غرامة مالية على الناس فرداً فرداً كتعويض عن ما تم تدميره من ممتلكات.

●●

سالني يوسف العبد الله عن صديقي إلياس. قال:

- حكيت لكم كثيرا ولم تحدثني عن صديقك، خايف يكون مخابرات عربية.

قال كلمته الأخيرة وضحك. نهض ليصنع القهوة وقال:

- حدثني عنه بعد ان احضر القهوة.

جمع يوسف وشريكه في الغرفة أدوات صنع الشاي والقهوة البسيطة على طاولة في زاوية من زوايا غرفتهما الوحيدة، قلت له: عندما أعود إلى الأردن سوف أذهب إلى الرمثا.

- ساكون معزبك، بيتي هناك بيتك في أي وقت.

جهز لنا القهوة واحضرها مع فناجينها، جلس في مكانه وقام بسكبها وتقديمها لنا، تناول إلياس فنجان القهوة، رشف رشفة صغيرة، أشعل سيجارته، قال:

قلت لأبي:

- الحل أن اخرج من هذه البلاد. لازم أهاجر.

تابع إلياس بعد ان وضع فنجان القهوة من يده:

- كنت أعمل صاحب بسطة في سوق السبت، مساحة واسعة في قريتي، قرية كفريا البقاعية، شرقي لبنان، تتوزع المساحة إلى اقسام كثيرة تشغلها بسطات متنوعة بين خضار وفاكهة وملابس وأدوات منزلية بسيطة ومنوعة تلبي احتياجات الفقراء وذوي الدخل المحدود. يأتي الى هذا السوق فقراء المنطقة لابتياع حاجياتهم بدءاً من الأكل وانتهاء باللباس والألعاب والعطور والهدايا.

اخذ إلياس نفسا من سيجارته وقال:

- كنت ابيع الألبسة والأحذية الولادية والرجالية المستعملة بسعر زهيد، كانت الحالة مستورة، لكن الأوضاع تغيرت فجاة، أصبح الوضع الاقتصادي معدوما.

صرخ إلياس فجأة:

- سباط للحساسية بتلبسه الختيارة بترجع صبية.

ضحك بصوت عال، قال:

- كنا نعيش اياماً جميلة، نغني، نضحك، كل شيء مباح. تشاهد جموعاً غفيرة تتوزع على البسطات وتشتري من هنا وهناك، فهذه امراة تقلب ثياباً لابنها الواقف بجنبها وأخرى تتفحص البسة الأطفال المستعملة وشاب يقيس ويبحث عن حذاء مناسب بين كومة أحذية ملقاة أمام البسطة.

سكت قليلا ثم تابع حديثه:

- راحت تلك الايام ولم نعد قادرين على ثمن ستدويشة، قلت لأبي «الحل أن اخرج من هذه البلاد. لازم أهاجر».

قلت ليوسف العبد الله:

- إضافة لكل ما ذكره إلياس فهو قاتل.

تبسم وقال:

- الله يخليك دكتور عمر لا تذكرني.

اصر يوسف على أن يعرف قصة القتل، قال إلياس:

- كانت يهودية، طلبت مني ان اسميها اسما عربيا، أطلقت عليها اسم سامية كمال. كانت صحفية محترفة، قاتلة، تعرف اللعب بالأرقام والألوان والبشر، ادعت أنها تحبني، لكنها كانت تسخر مني، قالت لي ذات مرة:

- زوجني أبي من رجل لم أره من قبل، كنت في السابعة عشرة من عمري، كان والدي يريد ماله، وافقت واخذنا ماله ومات فجأة، كل شيء مباح لنا، حتى الجسد.

رفع فنجان قهوته إلى فمه واخذ رشفة اتبعها بوضع سيجارته بين شفتيه وضغط عليها، أخرج سحابة كبيرة من الدخان وكأنه يخرج غلا من صدره، تابع كلامه وقال:

لم تكن تعني لي الكثير هذه الأمور، لا فرق عندي بين القدس او اورشليم او بيروت او باريس، ما يعنيني ان اعمل، امتلك بيتا وامرأة، كنت وحيدا كغيري من المهاجرين العرب، جعلتني مدمنا، أمضيت ايامي تحت قدميها من أجل المخدرات، كان آخر شيء

أفكر فيه القتل، قالت إنها أحبتني ومستعدة أن تغير ديانتها اليهودية إلى المسيحية، لم أطلب منها أن تصبح مسيحية فهذه الأمور لا تعني لي شيئا كما قلت لكم، اتفقنا على الزواج، رغم رفض أهلها غيرت ديانتها، وقبل أن نتزوج بشهر وجدوها مقتولة في شقتها، اتهموني بقتلها.

تلمس إلياس عنقه وقال:

كاد حبل المشنقة يلتف حول عنقي لولا تدخل راحيل واحمد تقي الدين الذي ظهر فجأة واختفى فجأة.

قلت:

- راحيل فتاة يهودية من حارة اليهود في دمشق، رافقتنا في السفينة في سفرنا، لها نفوذ كبير في باريس.

قال إلياس:

- جاءت إلى محقق الشرطة وقالت له:

- كان إلياس برفقتي تلك الليلة.

لم أكن برفقتها، هي ساعدتني، أحببتها فوق الباخرة وتمنيتها لي، اعتذرت راحيل وقالت إنها لصبحي وحده ولن تكون لغيره، ما زالت تبحث عنه، صبحي قضيتها.

سكت قليلا ونظر إليّ وقال:

- أحمد تقي الدين ذاك الفتي اللبناني، بعد أن كفلني أوصاني ان أنتبه لعملي ولنفسي واختفى، وقال لي: اعتن بصديقك عمر، عمر يعرف كيف يصل إلي.

## -13-
## الاميرة

بعد عودتنا باسبوع من زيارة المانيا وقضاء أيام عيد الفطر برفقة بعض أبناء الرمثا التقيت بالسيدة الباريسية من أصول اسبانية، الميرا، قالت لي إن معنى اسمها الأميرة، التقيتها في شقتي، قالت لي إنها جاءت لزيارتي في ثاني أيام العيد برفقة زوجها لتقدم لي التهنئة لكنها لم تجدني.

اخبرتها انني قضيت ايام العيد في المانيا عند عمال عرب.

قالت: تحن للعرب؟

- كانت صدفة، التقيتهم في أحد الأسواق.

- على ذكر العرب والصدفة، ما رأيك أن ترافقني إلى ندوة عن الاستعمار الفرنسي للمغرب العربي؟

وافقت، رغبة في أن أكون بصحبتها، وفي الوقت المحدد التقينا في مكان الندوة، كانت الميرا إضافة إلى إنها طبيبة أسنان مثقفة وسياسية وعالمة، تعرف كل شيء، امرأة غزيرة الثقافة، يسارية الهوى، تعرف عن قضايا العرب اكثر مما أعرف، وهي أيضا جميلة جدا.

كانت الندوة في قاعة الجامعة الرئيسية، تحدث المحاضر عن العلاقة بين الاستعمار والدين، استمعنا إلى المحاضر القادم من

تونس أكثر من ساعة، خرجنا معا نتمشى، دعتني إلى أحد المطاعم وقالت غامزة:

- إقبل دعوتي، فأنا في عمر أمك.

ضحكنا.

سرنا على الأقدام إلى المطعم، جلسنا متقابلين، حدثتها عن الظلم الذي وقع على الأمة العربية من أوروبا، أكدت لي أنها مع العرب وقضيتهم.

ضحكت عندما سألتها عن سر تعاطفها مع العرب. قالت:

- قد يكون جدي الأكبر عربيا، أندلسيا تزوج من جدتي الأندلسية ذات الأصول العربية.

كان حديثها ممتعا، أكثر من ساعتين، جعلتني أصغي إليها باهتمام، كانت بارعة في الحديث كما هي بارعة في الاستماع، كانت امرأة مختلفة عن غيرها من النساء.

أخبرتها عن سناء، وقلت لها إن أصولها غير عربية:

- من أصول شركسية.

ابتسمت، طلبت مني أن أحدثها عن سناء.

قلت لها:

- لم يعد يربطني بها شيء، تركتني لأني خنتها.

حدثتها عن تلك الرسالة الغامضة التي فرقت بيننا.

صمتت قليلا، رفعت فنجان الشاي إلى فمها، ارتشفت منه القليل، قالت:

- انتم الرجال لا أمان لكم، ومع ذلك ما كان عليك أن تستسلم.

- كانت كل شيء بالنسبة لي.

سألتني:

- جميلة؟

شخصت ببصري باتجاه الشارع المار من أمام المقهى. قلت لها:

- انوثتها ظاهرة، خلقت لكي تكون جميلة دائماً، مفعمة بالجاذبية، جالبة للفرح والسعادة لكل من حولها، موقع فخر لذويها، وموضع حب من الأطفال، كل أطفال الحارة احبوها. قامتها فارعة مشدودة، الرقبة طويلة جميلة، خصر نحيل، كفها صغيرة واصابعها رقيقة، بشرتها بيضاء مع بعض الاحمرار الوردي والجبين العالي والحواجب الضيقة، عيناها براقتان جميلتان، لوزيتا اللون، اهداب كثيفة، أما الأسنان فصغيرة بيضاء ناصعة في فم ضيق، مشيتها بمنتهى الرشاقة والخفة والأناقة.

- جمالها أوروبي.

- هذا الجمال الأنثوي الباهر، يزينه شعر طويل ذهبي، كأنه شعر حورية بحر. كان قبل ان تتحجب تجدله في ضفيرتين تمتدان على طول الظهر..

لكنها قتلتني، كما قتلت الأميرة «نارتسانة» حبيبها، بل إنها كانت هي نفسها، كتمت حبها، وحاربت من اجله، إنها أميرة رائعة الجمال «نارتسانة» التي خلدت اسمها بخنجرها.

كانت تكتم في قلبها حبها العنيف لفتاها الشاب، كما قالت الجدة ستاي «ان نارتسانة وفي إحدى المعارك استطاعت بمديتها ان تصلب فارسا في قلب الأرض، كان الشرر يتطاير من عينيها وشعرها الحريري الناري يخفق في الهواء. توقفت الأميرة «نارتسانة» تلتقط أنفاسها وتحدق في الفارس الصريع الذي قتل على يدها، صدر عنها فجاة صرخة أليمة إذ رات حبيبها الفارس وقد صرع على يديها.

صرختْ:

- يا الهي ماذا فعلت يداي،

كان حبيبها مغمض العينين غارقا في الدم، ارتمت على صدر قتيلها تقبله، تحاول ان تدفئه لعله يعود إلى الحياة. فات الأوان، إن الموتى لا يسمعون رجاء ولا يشعرون بالخوف او العطف.

صاحت بأعلى صوتها:

- لقد غابت شمسي،

انطلقت تلك الصرخة من أعماق الأميرة «نارتسانة» فاهتزت لها نجوم السماء، استلت خنجرها وغرزته في صدرها، سالت الدماء من قلبها الجريح واختلطت مع دماء حبيبها، كانت نهايتها».

وقالت الجدة ستاي: «يقال ان المكان الذي سقط فيه القتيلان انفجر ينبوع، الينبوع النبيذي الذي يمكن ان يراه أي زائر للقفقاس حتى هذا اليوم».

شعرت بقلبي يتمزق وكأن خنجر «نارتسانة» غرز فيه، لم أكن

أريد الحديث عن هذا الأمر، غيرت مجرى الحوار. سألت الميرا عن السبب الذي جعل أسرتها تهاجر من اسبانيا، قالت:

- كأني بك تريد ان تتهرب من الحديث عن سناء. حسنا. هربتْ أسرتي من فرانكو.

وقالت المرأة ذات الملامح الاسبانية:

- «الجنرال فرانكو حكم بلادنا بالحديد والنار، حوّل إسبانيا إلي سجن كبير، وقع عليه الاختيار عام 1934 لضرب ثورة العمال حيث اخمدها بقسوة شديدة، وقتل الكثير منهم في مناجم استوريا.

حكم الرجل إسبانيا حكما مستبدا، حتى انه كان يعين كل أعضاء البرلمان الاسباني «الكارتز» والذي اقامه كمجرد ديكور حتى يقال عنه انه يمارس الديمقراطية رغم انه كمم الأفواه، وملأ السجون بالمعتقلين وكان لا يطيق أن يسمع كلمة لا! وسادت الأحكام العرفية طوال حكمه، وكانت المحاكمات تقام أمام محاكم عسكرية!

نفى خلال حكمه أكثر من نصف مليون مواطن بعيدا عن الوطن الأم، ومن ضمن الذين نفاهم فرانكو كانت أسرتي، كنت طفلة صغيرة، امتلأت السجون بالأحرار، وقيل إن حكم فرانكو قام بإعدام اكثر من 250 الف مواطن!

ان فرانكو ككل طاغية في التاريخ عاش معزولا عن شعبه، يحكم من خلال البندقية ويظن انه مبعوث العناية الإلهية!».

شعرتُ أنها تريد البكاء، ناولتها منديلا ورقيا من العلبة الموجودة على الطاولة، امسكتْ بيدي وقالت:

- إنها صور بغيضة، صور تمر على عالمنا فتملؤه قبحا وألما.

ويمضي موكب الطغاة ولا ينسى التاريخ أبدا أن الذين كبلوه بالأغلال، وأقاموا الحواجز ضد حريته ولم يراعوا كرامته، ولم يصونوا آدميتهم سوف ينساهم التاريخ، ويهيل عليهم تراب النسيان، ولا يذكر الناس لهم إلا صب اللعنات عليهم، وعلى أيامهم التي عانوا فيها ما عانوا.

ويبقى تساؤل واحد، هل تنتهي صور الطغيان؟ والإجابة، سيظل الطغيان على الأرض لعدم وجود أحد يستفيد من دروس وعظات التاريخ!

قلت لها: إن العالم مليء بالكره والحقد، عالم فارغ من الحب.

سألتني:

- وسناء؟

-14-

## حنين

صرت أعد الثواني في السنة الأخيرة من دراستي في كلية الطب، أصابني حنين يختلف عن السنوات الماضية، شوقا لمن غابوا عني، تعبت من الغربة، الغربة قاسية مليئة بالمرارة، لعن الله الغربة كم تسبب من آلام.

مضت سنوات الدراسة ولقد كنت فيها غريبا بمعنى الكلمة، كنت كلما وقعت في ضائقة أو كرب تذكرت الماضي، تذكرت بيتنا وشارعنا وسهرات العائلة والجيران وحكايات الجدة ستتاي وسناء، تذكرت حضن أمي ولمسة يد أبي. نعيش الفرح في غربتنا وحدنا ولا يشاركنا أحد في أحزاننا، في غربتنا لا نجد من يحتضن آلامنا ولا احتواء أوجاعنا ولن نجد أحدا هناك يشبهنا.

الغربة جامعة مِن الطراز الأوّل، ولكن ليس لديها إلا أسلوب تعليمي واحد، هو القسوة، قسوة اشتياقك كل يوم لحِضن أمك الدافئ لجُرعة الحنان التي تعودتَ عليها في كلّ صباح. وتبقى أفراح المغترب معلقة في الوطن ولا يعاني الشوق إلا من كابده، ولا يشعر بالغربة والحنين إلا من عاشهما لحظة بلحظة، ولا يحسُّ بالألم إلا من تذوّق مُرّ ضرباته، ولا يشعر بقيمة الأرض والوطن إلا

من ذاق طعم الغربة وقسوتها، ولا تخلو المنازل في الوطن من غال هجر الأرض، وامتطى السماء أو البحر جواز سفر كرمى لعيون الأهل والحبيبة، ولقمة عيش من طينة زيت الزيتون وتمرات نخل الصحراء..

السؤال الذي اطرحه واعرف اجابته: ترى، هل سنوات العمر طويلة حتى نعيشها مغتربين مبعدين عن الوطن والأهل والأصدقاء والأحبة؟ ولماذا نعيشها هناك ولا نعيشها هنا؟ هنا الأرض والتراب والهواء، لوننا من لون تربتنا فهل نغير الواننا طمعا بالمال الذي يأتي في وقته وفي مكانه؟ اليست النفوس اهم من الفلوس؟ الَم نحيَ حياة في شجرة العمر الذي لا بدّ أن ينتهي؟ اليست الأم أولى بالولد؟ أم أن الدنيا وما فيها تختلق الوجع والحنان وحتى النسيان؟

متى تكون العودة، عودة كل مغترب متسلح بالحبه، والحب في شرعة العشاق أول الغيث، لا تسافروا كي لا تعودوا، سافروا كي تعودوا، لتكتمل حكاياتكم هنا، بين الحقول.

في أواخر ايامي في باريس، وقع حادث سير لصديقنا العراقي خطاب، نقلوه إلى المستشفى، ما لبث أن فارق الحياة قبل ان يصل إلى الإسعاف، تجمع العشرات من العرب أمام غرفته، بكيت بحرقة، يا وجع قلبي عليك يا خطاب، يا رب جئنا لنموت هنا في ديار الغربة، كيف سنرسله، نلفه هدية لأمه العجوز التي رشت الأرض بالماء ليعود إليها سالما، ما زالت تبكي رحيله، وغربته، جاء ليحصد الخير والمال فحصده الموت.

وعد خطاب أمه واخوته بانه سيعود بالمال الوفير ليغير حياتهم، جاء إلى باريس بعد ان تعسرت حياته في مرسيليا، وها هو يعود محمولا على اكتاف الرجال.

وضعناه في صندوق خشبي. لم يبك على خطاب إلا رجال لا يزيد عددهم على عدد اصابع اليدين، عدنا بعد ان أرسلناه جثة هامدة إلى بغداد، عدنا إلى شقة احد الأصدقاء، جلسنا متلاصقين صامتين.

كانت الكلمات عاجزة عن وصف هذه الفاجعة، أقول فاجعة من منطلق اكبر، من حجم ان يفقد الأب او الأم ابناً، الصديق صديقاً، والحبيب حبيباً، فالخسارة اليوم كانت على الكل!

تألمنا كثيراً، دقّ الحزن باب غربتنا في زمن الفرح الذي طال انتظاره، ليس لأنّ الموت قد انتشل احدنا من الحياة، فهذا مصيرنا جميعاً وقد تجد فيه راحة ما، وليس لأن خطاب شاب في عزّ عطائه وحياته، خطاب تجاوز عمره قرناً من القمع والظلم، حجم الألم والحزن مساوٍ لحجم الخسارة، خسارتك ثقيلة جداً على قلوبنا.

تفنّن خطاب في حبّ العراق وبغداد، كانت كلماته تلمس قلوبنا وعقولنا بحنين فاتن عجيب إلى الوطن.

لن تف الكلمات حق المعنى في هذا المقام، كنت أتمنى أن ترى وطنك وتقبل راس أمك وتتمم فرح اخوتك.

التقيت بخطاب رابع أيام عيد الفطر، ترك مرسيليا وجاء

إلى باريس، كان فرحا جدا، قال لي إنه أرسل اليوم لأمه واخوته مبلغا من المال بعد أن وجد عملا في مغسلة سيارات. كانت فرحته كبيرة، شعر أنه بدأ يحصد ثمن غربته عن بغداد وعن أمه واخوته، وقال:

- ارسلت لحبيبتي صباح رسالة «طمنتها» باني ساعود لاصطحبها معي، زوجتي وام اولادي.

وقال خطاب:

- اتعرف يا دكتور عمر، اقسى ما في الغربة ليس البعد عن ارض الوطن، ليس معايشة العيد في بلاد بعيدة، أصعب ما في الغربة يا صديقي هو الإحساس بفراق الأحبة، إحساسك بأن الغربة فرقتكم، لا مشاركة بأفراح ولا بأحزان، إحساسك أنك أصبحت أقوى على الصبر والتحمل، تخاف على قلبك أن يتعود فراق الأحبة.

يا صديقي، بعيداً عن ارض النخيل، الليل أطول، الشتاء أبرد، بعيداً عن أرض دجلة، الجرح أعمق، الألم أوجع، بعيداً عن بغداد، أفقد الأمل والحب وكل جميل في هذه الدنيا.

صمت قليلا مقدار سحبه لنفس دخان من سيجارته وقال:

- تتشابة الأيام في الغربة، تكبر الأحزان، لا يتوقف نزف الجروح.

- اليوم عيد يا صديقي والعيد يحتاج الى الفرح.

- العيد ليس لنا، للعيد أصحابه وخلانه.

الغربة صعبة والشوق فيها جارح والدمع مثل صورة أمي، أنت جئت تدرس، لا تتحمل اي مسؤولية وتعرف انك سوف تعود إلى عمان، اما انا فجئت لأموت، نعم، الموت في كل لحظة، اراه يقترب مني، لست متشائما، اقسم بالله أنني مليء بالامل، لكن الغربة والبعد عن الاحبة هما الموت بعينه.

اخرج صورة امه من حافظة في جيبه الداخلية، نظر إليها مطولا، نزلت دمعة، خاطب الصورة:

- الجرح يا أمي ما عاد بعدك يشفيه أحد، الغربة صعبة يا أمي وما يعلم بجرحي غير الواحد الأحد، بفراقكِ كبر همي يا أمي، ما عدت أفرق بين الخميس والجمعة والأحد.

عدت إلى شقتي فجرا، صليت الفجر، وجدت إليـاس نائما، صنعت فنجان قهوة، جلست على شباكي ارتشف قهوتي، أراقب شروق الشمس معلنة بداية يوم جديد من أيام غربتنا، يوم يزيدني ألماً، يزيدني هماً.

يظن خطاب أنني متشوق للعودة إلى عمان، هو لا يعلم أنني بعودتي سأظل وحيدا وغريبا في وطني، كنت أحلم أن تكون سناء أول من التقيه وتراه عيناي، كانت حرقة قلب مشتاق وحنين، حنين بالعودة وألم وعذاب بعدي عنها.

أيام قليلة وأودع باريس، كنت أعد أيام غربتي متشوقا للعودة إلى عمان، ولكن كيف ستكون عمان بدون لعبنا ومشينا في شوارعها، كيف ستكون بدون جلوسنا تحت أشجارها زوجين حلمنا

بكل تفاصيل حياتنا. كيف ستكون عمان وشوارعها وحاراتها بدون عمر أمين وسناء؟

بعدك أيتها القريبة فارقت كل الخلق، لم يعد لي سوى طيف مع الفجر بسري، طيفك فقط، عيناي غشاهما الدمع مع هذه النسمات الصباحية الجميلة، فتلتي الشوق في الغربة، شوق منقوص مجروح ببعدك عني، إنها الغربة، التي قتلت خطاب قبل أن تقتله السيارة.

قالوا في المثل «مَن خرج من داره قل مقداره»، إنه عين الصواب، الوطن الذي عشتَ فيه، يَعرفك وتعرفه، معرفة العادات والقيَم والتقاليد والأعراف، يَعرِفك معرفةَ الدِّين، يعرفك وتَعرِفه.

قال لي صديقي يوسف العبد الله:

- تبقى الأوطان صامتة تراقب قهر أبنائها بعيون شاخصة، وعندما يتسرب اليأس إلى نفوسنا ظنّاً بموتها فإنّها تنهض وتُرسِل صوتها هامساً في الأرجاء، تطلب منها كلّ شيء ولا تعدنا بشيء، في المقابل ومع ذلك نلبي النداء مخلصين، نستمر ما قدّر الله لنا أن نستمر في تلبيتنا لنداء أرضنا.

## -15-
## الحارة القبلية

عدت الى عمان بعد أن أنهيت دراستي في كلية الطب، مكثت أسبوعا أستقبل الجيران والأصدقاء، بعد ذلك قررت أن ازور امي في مسقط راسي، عرفت من زوجة ابي أن أمي على قيد الحياة، لم يعترض أبي على هذا الأمر، ربما يكون ندما على ما فعله بي وبها وربما قدر أنه لن يستطيع منعي، بل إنه دلني على المكان الذي تتوقف فيه السيارة الوحيدة التي تنقل الركاب إلى الرمثا.

استغرقت المسافة ما يزيد على الساعتين، كنت أستعجل الوقت الذي بات بطيئا جدا، نزلت في أول القرية حيث الحارة القبلية تستقبل زوارها، مشيت باتجاه الشمال، بحثت عن طرقات لعبت فيها طفلا مع رفاق السنوات الأولى.

زرت الرمثا قبل سنوات، كنت ضيفا على صديقي يوسف العبد الله الذي عرفته أول مرة في المانيا، لم اكن أعلم وقتها أني ابن هذه الحارة، رسالة زوجة ابي الأخيرة هي السبب في معرفتي، تأملت بيوتها الطينية ومزاريب المياه التي تصب ماءها في آبار الجمع الموجودة في زوايا ساحات الدور، دخلت دكان القرية الوحيد، داخل

الدكان، صادفت مصطبة عند الباب، يتمدد عليها صاحب الدكان العم عبد الرحمن.

قال لي صديقي يوسف أنه سيحكي لي عن العم عبد الرحمن قصة طريفة إن التقيا مرة ثانية «كان يفصل المصطبة عن جسم الدكان قطعة خشب يوضع فوقها الميزان، وبالقرب من باب الدكان كانت أكياس غير ممتلئة بها من أصناف الحبوب، وهي عادة تزيد في محتوياتها، ولا تنقص، لأن ما بداخلها كان نتيجة دفع الزبائن أثمانا لما اشتروه، عندما تمتلئ تلك العبوات يأخذها صاحب الدكان إلى المخزن أو يبيعها لتجار الحبوب.

بضائع قليلة تتناثر هنا وهناك في الدكان الصغير، السكر والشاي والصابون وبعض أدوات المطابخ كالمنخل والسكين وملاقط الغسيل وليف الحمّام، وحجار النيلة وإبر الخياطة، والملح والفلفل والقهوة والهال وحلويات القوم والقنبز والكمكبان والراحة والفيصلية، توضع في مرتبانات لها أغطية تصف على الرفوف وأحيانا يكون هناك بعض الفواكه كالعنب والتين.

أجواء كهذه تجمع الذباب، ولمكافحتها علق العم عبد الرحمن شريطا لاصقا يتدلى من السقف بارتفاع أعلى من الرأس بقليل، وقد التصق به الذباب حتى أصبح لونه أسود.

أحضرت لأمي هدية خاصة من باريس، واشتريت من دكان العم عبد الرحمن علبة حلويات عقال الشايب، تصنع في بلدة درعا

السورية القريبة جدا من الرمثا. قال لي صديقي الذي كان دليلي في الرمثا، ابراهيم جميل:

- يحضرها الشباب مع اشياء أخرى من درعا.

حملت اشيائي وسرت باتجاه منزل أمي القابع في طرف الشارع الآخر من الحارة القبلية. عبرت عددا من الشوارع الترابية في حارتي القبلية التي تشكل جزءا مهما من الرمثا، أخرجني أبي غصبا منها، طلق أمي وباع كل ما يملك ليعاقبها بحرمانها مني فحرمني من حنانها اكثر من عشرين عاما، هجرنا القرية التي تطل على العالم بلونها الذهبي المصبوغ باشعة شمس الصباح المليئة بالذاكرة والحب، ذكريات جميلة مليئة بالفرح والحزن.

قالت لي أمي إنني كنت أستيقظ صباحا على صوت حركتها المستمرة، أستعمل حاسة الشم لكي أتذوق طعم القهوة، واحيانا، كنت اغافلها وأسكب القليل من القهوة المرة واشربها بتلذذ.

ضحكت أمي وقالت:

- كنت أراك في صباح اليوم الثاني وأنت تمد يدك إلى مؤخرتك وتبحث عن ذيل القهوة الذي كنت أهددك به إن شربت القهوة، فكنت تبتسم لأنك لم تجد الذيل وبالتالي فإن أمرك لم ينكشف.

بدت الرمثا لطيفة جميلة جنابة حبلى بالهموم. ففيها تتغير الأشياء، وتختلف الحياة، حتى البشر يتغيرون بصورة مستمرة ويختلفون، طباعهم غير مستقرة، تتولد فيهم أحزان قديمة لا يعرف

لها أصل، هذه الأحـزان لا مـواسم لهـا ولا أوقـات، تـأتي في وقت لا يريدون لهـا ان تاتي، يخـافـون من الفـرح والضـحك، خـاصـة في مواسم القحط، وبعد الضحك تمتمهم يرددون:

(الله يكفينا شر الضحك).

الرمثا عاصمة الشمال، ذات السهول الخضراء، الواقعة بين صحراء الشرق وسهول الغرب، تنعكس الوانها الصفراء صيفا في واجهات البيوت الطينية وبخاصة في وقت الفجر، حيث يغلف السكون كل شيء، ولم أجد طريقة مقنعة لبدء يومي الجديد كل صباح اكثر من التنزه مشيا على الاقدام في زقاق الرمثا ومشاهدة قوافل الأغنام تنطلق من الأحياء المختلفة باتجاه الجنوب والشرق.

وفي منتصف الشتاء، عندما يتوقف المطر، تكون الشمس خجولة، تبادلهم حرارة الحب، يدخل الحزن كل بيوت القرية، بيتا بيتا، ويصبح واحدا من سكانها. ففي مواسم الغيث يكاد يختفي الحب، الحب الذي لم تتعود عليه الرمثا بسبب الحزن والقحط، ومن يجرؤ على الحب وكل نساء الرمثا مكتوب في قدرهن أن يصبحن أمهات في سن الرابعة عشرة. إنها المأساة، المأساة نفسها التي تتكرر مرات ومرات، وتشهدها كل البيوت، ليس لديهم الوقت للحب والعشق والغرام، حتى الزوج يخجل ان يعلن حبه لزوجته.

●●

تعتبر الحارة القبلية المدخل الوحيد للرمثا، تطل على الداخل اليها مئذنة مسجدها الوحيد «المسجد العمري» مئذنته عالية

بارتفاع واضح حيث بني المسجد في أعلى تلة بالقرية. لم يكن للقرية ألوان زاهية يصبغون بها بيوتهم، كان لونها في الشتاء هو لون التراب، وفي الصيف كان بعض المقتدرين يدهنون بيوتهم بلون حجري كلسي ابيض، لا يصمد إلا لشهرين أو ثلاثة ثم يختفي نتيجة لخواصه الكيميائية او نتيجة لنزول زخات من المطر، وعلى العموم لم تكن الألوان متوفرة.

كان في القرية ثلاث أشجار عالية تظهر للقادم بكل وضوح، في الجنوب شجرة التين وشجرة صنوبر تظهر عليك إذا أتيتها من الشرق وشجرة سرو أخرى تظهر إذا جئتها من الشمال، وكانت هذه الشجرات تسهل مهمة من يصف بيتا لأحد، وكان نادرا ما يسأل أحد عن بيت ويتعب في إيجاده. كانت كل شجرة من هذه الشجرات تشكل شاهدا استقر في ذاكرة سكان القرية.

صادفت تحت إحدى الشجرات رجلا رث الملابس، شعر رأسه ولحيته طويل، عرفت فيما بعد أن اسمه سالم الفقير، هكذا يحلو لأهل القرية أن يطلقوا عليه، ذو نظرات حزينة، تلك النظرات تكون مليئة بالفرح إذا رأى أطفالا، يحب الأطفال ويعطف عليهم ويتحملهم، رجل في السبعين من عمره.

قال لي يوسف العبد الله:

- سالم الفقير رجل مبارك.

وأضاف وهو يمسح على وجهه كأنما يتبارك من أثر مصافحته له:

- لديه الكثير من الأسرار، يعرف من أسرار الرمثا أكثر من كل سكانها، عيناه المسليتان مليئتان بعشق ما، يقال إنه عشق لزوجته التي هربت من القرية وتركته، حب لابنه الذي لم يره أبدا، لم يكن من أهل الرمثا، جاءها ضيفا واستقر فيها مع ابنة عمه، يقضي أكثر وقته تحت شجرة التين ولا يكاد يفارقها.

••

عندما ينتهي صيف الرمثا الطويل تتساقط حبات المطر على السهول بهدوء معلنة حضور العاشق، يرتسم العرس الشتوي ويعلن الأطفال فرحتهم بالزائر الحبيب، يشتد فرح الكبار الذين يعرفون قيمة هذا الزائر.

وعندما يسمعون صوت الرعد وصوت الزخات الأولى من المطر وتنتشر رائحة التراب كان الاطفال ينشدون:

(إشتي وزيدي

بيتنا حديدي

عمنا عبد الله

والرزق على الله).

وعندما يشح المطر وتتوقف السماء فإن أهل البلدة يصابون بخوف شديد ويصبح المصاب جللا والكرب عظيما، والرعب يدب في صدور الصغار والكبار، فالمطر يعني لأهل الرمثا الحياة.

يذكر اهل الرمثا أنه قبل سنوات، سنوات بعيدة، أمحلت ولم تمطر، كانت سنة صعبة، أطلق عليها اهل الرمثا سنة المحل، كان

فصل شتاء يختلف عن كل الفصول، الأمطار خفيفة والشوارع فارغة ومليئة بالغبار، بداية موسم شتاء بارد بدون مطر سوى زخات قليلة لم تنظف أجواء الرمثا من الغبار.

وبسبب قلة نزول الامطار حدد شيخ المسجد العمري وقت صلاة الاستسقاء، بعد صلاة الجمعة، اتجه السكان كباراً وصغاراً، رجالاً ونساء، حتى الحيوانات اصطحبوها معهم خارج القرية، خلع الرجال فراءهم وقلبوها فأصبحت كجلود الخراف الجائعة، وقال لهم: هل يكفي أن نقلب ملابسنا فقط، الا تحتاج نفوسنا أن تقلبْ وتصبح بيضاء كفراء الخراف الصغيرة؟

وقال لهم: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وقال لهم إمام المسجد بعد ان صعد الى مرتفع يشرف على الجموع، كان يجلس الرجال في جهة والنساء والأطفال في جهة أخرى، وبعد أن حمد الله وصلى على رسوله عليه الصلاة والسلام:

- لن نسقى وفينا رجل عاص.

••

انتظر إبراهيم الجميل كغيره من الشباب والصبايا الذين يرتبط موعد زواجهم بالمطر، انتظر الموسم يعدد أيامه بل إنه يحصي حبات المطر النازلة على سهول الرمثا، وكانت آهات وكلمات الصبايا المنتظرات موسم الحصاد مليئة بالحسرة، خيبة أمل تواجههن إذا تأخر الموسم الشتوي. هذه الآهات والقسوة كانت

مقدمة لتأجيل إقامة موسم الزواج، يكاد يسمع صراخهن في غرفهن المغلقة:

- (لو كان القحط رجلا لقتلته).

صورة مرعبة لا يتمناها أحدنا، ولا يطمح للعيش في يوم كهذا، إننا نمسك عن الماء فترات محددة، فنشعر كيف تجف العروق، ويتقرح المريء، وتتشقق الشفاه!!، فكيف بنا في وضع أقسى من هذا، هو وضع الجدب، صورة مختلفة عن صورة الجدب المخيفة، إنه أثر الغيث في كل مناحي الحياة، على الإنسان، والحيوان، والنبات.

كان أطفال القرية، كبارا وصغارا يشاركون في طلب المطر من الله، ويمارسون طقوساً قديمة، يصلون صلاة خاصة لطلب المطر، يخرج جميع أطفال القرية زرافات، يتجمعون قبل غروب الشمس أمام بيت سالم الفقير وينشدون:

يا الله الغيث يا ربي    تسقي زريعنا الغربي

يا الله الغيث يا دايم    تسقي زريعنا النايم

وكانوا يتوقفون عند كل بيت فيخرج أصحابه ويقدمون لهم الطحين والخبز ويرشونهم بالماء. ويشهد الجميع أن السماء لم تخب طلبهم قط، ينزل المطر وتعود البسمة والحياة إلى السهول خضراء يانعة. ويصف الرجال المطر بقولهم «كب من الرب».

في فصل الشتاء يحمل الرجال فؤوسهم استعدادا لتجميع مياه الأمطار التي جادت بها عيون السماء، يقومون بحفر الأقنية التي

تصل إلى الآبار الموجودة في المنازل والمزارع، فتمليء بالمياه، وتكاد هذه المياه التي حصدوها في الابار تكفيهم طيلة المواسم الثلاثة الاخرى، وكان نصيب يوسف هذا العام خيرا، سيتحقق حلمه بالزواج الذي انتظره طويلا، أمطرت السماء بغزارة وعوضت أهل الرمثا ثلاث سنوات عجاف مضت.

••

عشت عشرة أيام في مسقط راسي، كانت اجمل لحظات عمري تلك التي كنت أغفو فيها في حضن امي، أستمتع بقربها ودفء حنانها، وكنت عندما يحل الليل اجلس مع رجال القرية في مضافاتهم حول نار القهوة المشتعلة في منقل حجري مليء بالفحم المشتعل، أسمع حكاياتهم الحزينة والمفرحة، كل حكاياتهم. حكاية الكوليرا الحزينة، مرض الكوليرا الذي حصد أرواح الأهالي ونوب اجسادهم وجعلهم جثثا في مهب الموت، حكايات التهريب وحكايات العشق التي تنتهي قبل أن تبدأ، أو تموت في مهدها، الانتخابات التي تجري كل أربع سنوات ويتناقض عليها تجمعان.

لم تكن الدولة آنذاك تستورد القمح أو الحبوب لسدّ النقص الحاصل جراء الجدب وقلّة المطر، كان أصحاب الملكيات الكبيرة من الأرض يخزنون حبوبهم في سنين (الغلال) والإنتاج الوفير بالآبار التي كانت مخصصة لذلك، ويطمرونها بالتبن حتى لا تقضي عليها الحشرات. ثمّ يستخرجونها من هذه الآبار في سنين المحل والقحط.

كان الأهالي في سنوات الجدب يخلطون القمح بمادة الشعير والذرة البيضاء وتُسمى هذه الخلطة البغيثة. وكانوا يطحنون الشعير ليصنعوا منه خبزاً، والبعض كان يطحن الذرة البيضاء ويصنع منها خبز الكراديش.

وما إن يبدأ الموسم المطري الجديد حتى تبدأ النباتات بالظهور، وتُنبت الأرض من بقلها وخُبيزتها وعكوبها حتى تتسارع النساء إلى الحقول والسهول زرافات ووحدانا لجني الخبيزة والعكوب وغيرهما من النباتات التي تبرع المرأة الرمثاوية في طبخها، فلم يكن يخلو بيت من بيوت الرمثا من طبخة خبيزة أو عكوب على الغداء أو على العشاء.

وفي سنة من سنين الجدب، نفق الكثير من الماشية لقلّة التبن والأعلاف والمراعي، ارتفعت أسعار التبن لندرته إلى أسعار خيالية، واستخرج الناس التبن الموضوع على أسقف بيوتهم فوق القصب وتحت الطين وباعوه بأسعار عالية لأصحاب الماشية، وبسبب الفقر الشديد باعوا أوانيهم النحاسية كالقدور والطناجر والصحون والمناسف وغيرها بأسعار عالية، ليس ذلك فحسب بل ان الكثير من نساء القرية قمن باستخراج أصواف الفرش والمخدات واللحف وبيعها.

●●

كانت بيوت الرمثا متناثرة في شتى الأنحاء، لم أعرف كم عدد بيوتها الطينية، ولكني عرفت كل ساكنيها وعرفت قصصهم

وحكاياتهم، ويعتقد سكانها أن يوم الرمثا طويل، أطول يوم في العالم، فهي على راي «ختياريتهم» تصحو قبل الشمس على صوت المؤذن وصياح الديكة البلدية ذات اللحم الأحمر الشهي.

ومع انخلاع أول أثواب الليل مع خطوات الرجال وهم عائدون من المسجد كنت أسمع قصصهم كلها بحزنها وفرحها وخوفها، قصص العشق والموت، القصص كثيرة، كثيرة جدا.

وعند الغروب، عندما تميل الشمس غربا كنت أتمشى في شوارع الرمثا، لم تكن شوارع بل دخلات وزقاق، تعيدني هذه الزقاق لذكرى قديمة، لأشياء أظنها قديمة خزنت في حواسي، أستطيع التعرف على الشوارع من روائحها، أشم مزيجا من روائح فضلات الحيوانات، خاصة المحترقة منها التي تضعها النساء على التنور حتى تظل حرارة الطابون عالية، طريقة خاصة تعتمدها النساء الخبازات، يتركنه خلال الليل يلامس الجمر القديم والذي يبدأ بالاشتعال البطيء حتى الفجر، وفي الصباح يضمن الجلة «بقايا مخلفات الحيوانات الجافة» أو القصل «سيقان القمح» تشعلها الخبازات داخل تنور الطابون من أجل إنضاج الخبز.

التصقت تلك الروائح بملابسي حتى أصبحت جزءا مني، ترافقني في الازقة والتي لا تشبه الشوارع بشيء، لا يوجد أي شارع مستقيم، أشبه بالمتاهات تفتح عليها بوابات عالية ومرتفعة تتفق مع ارتفاع البعير وهودجه والخيّال وفرسه، وتم تصميم عرض الشارع الواصل للبوابة لمرور جملين أو حمارين عليهما حمولتهما.

تحيط بالزقاق او الشوارع جدران طينية لا نوافذ عليها، حتى لا ينكشف ما بداخل المنزل من عورات وفي بعضها نافذة صغيرة «طاقة» تكون في أعلى الجدار لا تسمح لمن تسول له نفسه رؤية من بالداخل.

سرت في تلك الازقة باحثا عن ذكريات عشتها في طفولتي، أسلم على النساء الجالسات أمام البيوت، أرى في عيونهن كلاما عن ماض بعيد، عن أبي وعن أمي وعني، تقطع إحداهن مسيري وتقول:

- تفضل يا خالة.

اشكرها، اواصل مسيري، لا أدري إلى اين تأخذني قدماي. التقيت بصديقي إبراهيم الجميل الذي اصطحبني في جولة سياحية تطوعية، ابتعدنا قليلا باتجاه الشمال، ذهبنا إلى منطقة البرج. قال لي:

- هذا المكان البعيد عن القرية والذي يشبه الحصن بناه العثمانيون، اطلقوا عليه اسم البرج، جعلوا له سورا عاليا يضم مبنى متعدد الغرف، يتسع لقوات الترك وجنودهم ومناماتهم ومخزنا للمؤن.

ضحك صديقي ابراهيم وقال: كان من يأتيه طلب لمراجعة البرج تحل عليه العقوبة قبل وصوله، يمضي الليل يتقلب ويسال زوجته وابناءه: ما السبب؟ ولماذا دعوني؟ وماذا عملت؟ حتى تذهب به الظنون إلى ان يستدعي ذنوب ارتكبها أجداده الميتون قبل نصف قرن.

اراضي الرمثا جميلة، سهولها خضراء وأرضها منبسطة، كانت

الأراضي مشاعاً حتى أوكلت إدارة الانتداب البريطاني إلى مساح اسمه موفد، أوكلت إليه مهمة تنظيم وتقسيم وإفراز الأراضي، كانت مهمة صعبة عمل عليها سنوات، كان الرماثنة يحتفظون بسندات عثمانية، وبعضهم كان يحتفظ بحجة تملك وهي سندات تنظم بوجود شهود على أن فلانا باع أرضه لآخر.

وكان يطل على المنطقة الشرقية من الرمثا مرتفع أطلق عليه اسم الكيال، سكن أغلب أهل الرمثا في كهوف موجودة فيه وما حوله، أتوا إلى الرمثا كما يدعي بعضهم بسبب التهجير خوفا من الثار او هروبا من الخدمة في الجيش العثماني الذي أجبر بعضهم على الالتحاق به.

كانت الرمثا قرية صغيرة تسكنها عدة أسر، تسكن المغر في منطقة الكيال، وفي المضافات يتنافس شيوخ العشائر «من سكن الرمثا أولا»، سكنت فيها عائلات قادمة من فلسطين والحجاز وسورية، وكان لكل عائلة قصتها التي تختلف أو تتفق مع قصة ورواية العائلة الأخرى، ما تزال المغر موجودة في تل الكيال، هنا التل الذي اطلق عليه اسم الكيال نسبة الى تاجر كان يبيع أهل الرمثا ويكيل لهم بميزان يدوي، دفن في مقبرة الكيال، أول مقبرة في الرمثا قبل مقبرة ليلى. وفيما بعد نبتت البيوت في الرمثا مثل حوض النعنع وامتدت باتجاهات مختلفة، توسعت حتى وصلت الى الحارة القبلية وهي أبعد منطقة عن الكيال.

**

استضافني عدد لا بأس به خلال الفترة التي قضيتها في الرمثا، قاموا بواجب الضيافة على شرفي، ومن ضمن هؤلاء المختار، ذهبت برفقة صديقي ابراهيم الجميل، وجدنا بوابة الدار مفتوحة كعادتها، أردت أن أطرق بقطعة نحاسية معلقة على البوابة فقال لي:

- لا حاجة لطرقها أدخل.

صاح إبراهيم بصوت عال:

- يا ستير، يا الله يا الله.

سمعنا صوتا من داخل مضافة المختار:

- «فوت جاي».

تشبه دار المختار أغلب بيوت القرية لكنها تزيد قليلا بعدد الغرف والحظائر، إضافة الى غرف الأسرة هناك البايكة وهي حظيرة لمبيت الحيوانات معتمة من الداخل، فيها أماكن طعام الحيوانات وأوتاد غرزت بالجدران الطينية علق عليها بعض الأدوات الزراعية كالمذراة والغربال ومجموعة حبال، بجانب البايكة مخزن التبن، كبير جدا يستوعب كمية كبيرة من التبن تكفي لثلاث سنوات عجاف، تم حفر أرضيتها مسافة مترين تنزل إليها من خلال أربع درجات حتى تتسع لأكبر كمية من التبن، وفي زاوية بعيدة عن المضافة الطابون، بجانبه بيت العيلة لتخزين المؤونة، تحتفظ بمفتاح هذه الغرفة أكبر نساء الدار، تعلقه في رقبتها ولا تتسامح حتى في النظر إليه.

دخلنا المضافة فنهض المختار وكل من تمت دعوتهم لتناول الطعام لاستقبالنا والترحيب بنا. دخلنا من باب المضافة والذي يتكون من ظرفتين، إحداهما أغلب الوقت مغلقة، عندما أحضروا المناسف فتحوا الظرفتين، خلعت حذائي في مساحة منخفضة عن سطح أرضية المضافة بحوالي عشرة سنتمترات.

كانت المضافة أفضل وأوسع غرف دار المختار. أرضيتها تغطى بالإسمنت المخلوط بالحصى الذي تجلبه النساء من الوادي، يحملنه على رؤوسهن، تغسل الحصى قبل خلطها بالإسمنت، يرش فوقها الاسمنت ثم يصقل باداه خاصة ليصبح ناعما.

في أحد جدر المضافة تجاويف تستخدم كخزائن، فيها أدوات صناعة القهوة والشاي وبعض أوراق الدخان الهيشي، وزجاجة صغيرة فيها بنزين لتعبئة قداحة المختار. وفي وسط المضافة حفرة صغيرة تحيط بها الحجارة الملساء تستعمل موقدا لتسخين دلال القهوة السادة.

وعلى بعد منها ثقب مصنوع بعناية، يثبت به عمود معدني بطول مترين معقوف الرأس يتدلى منه قفص زجاجي مثمن الشكل مثقوب من أسفله ويثبت داخله اللوكس ويزود بالنفط من أجل الاضاءة، رغم انه تم استبداله بانارة الكهرباء إلا أن المختار ما زال يحتفظ به بسبب الانقطاع المتكرر للكهرباء.

بعد ان تناولنا طعام الغداء قام ابن المختار وصب القهوة للحضور ولما انتهى سأل المختار صديقي إبراهيم:

- حدد أبوك يوم عرسك؟

التفت ابراهيم الجميل ناحية المختار وقال:

- ذهب أبي إلى المدينة لإحضار بعض احتياجات العرس، إن شاء الله الجمعة بعد الجاية.

قال أحد الحضور:

- يعني التعاليل الجمعة الجاية؟

قال إبراهيم موجها كلامه لي:

- الجمعة أول أيام التعاليل، الكل مدعو والاعتذار مرفوض.

-16-

## اوراق السيدة ستناي زاهر

اخبرتني أمي أنها ستذهب إلى دار «أبو إبراهيم» حتى تساعدهم في شد فرشات الصوفه واللحفة والوسائد وتنقية القمح استعدادا لزواج إبراهيم.

وقالت:

- اللهم صل على سيدنا محمد، اشترت العروس جهاز بعشرين ليرة.

قبلتني وخرجت، نهضت إلى مطبخ أمي واحضرت القهوة السادة واخرجت من حقيبتي اوراق السيدة ستناي التي احضرتها معي وقرأت:

«ذات صباح، خرج الجد ادمر من الغرفة الوحيدة التي نسكنها في راس العين، وادمر كان من فرسان قبائل الشركس الشرسين، كان له باع كبير في قتال الروس، خرج في يوم مشمس إلى جبل عمان، جلست وحدي في المطبخ، كان الوقت ما يزال مبكرا عن موعد الغداء، قررت أن اشغل نفسي بتجهيز وجبة تحتاج إلى وقت وجهد كبيرين وتحتاج إلى إعداد، قررت في ذلك اليوم أن أطبخ الحلفا فاخرجت الطحين ووضعته في وعاء عميق ثم أضفت الملح

والزيت النباتي وفركت الدقيق جيدا مع الزيت حتى امتزجا معا ثم أضفت الماء وبدأت بالعجن حتى أصبحت طرية وملساء، تركت العجينة في وعاء جانبي وغلفتها بكيس بلاستيكي لمدة 20 دقيقة حتى ترتاح العجينة وبعد ذلك فردتها بكل راحة وسهولة.

أستمتع جدا بإعداد وجبات الطعام ويسعدني جدا إن كانت تلك الوجبة تحتاج إلى جهد كبير، أحب الطهو جدا منذ كنت صبية في بيت والدي. كنت أعِدُّ نارت الفارس الذي لا مثيل له بأن أطبخ له أشهى المأكولات الشركسية، لكنه لم ينتظر حتى أعد له حتى كوبا من الشاي، نارت ذلك الفارس الذي حارب الروس بشجاعة منقطعة النظير يشهد له الأعداء قبل الأصدقاء، خرج حاملا سيفه وركب على حصانه الأسود المحجلة ساقاه بالأبيض لكنه لم يعد، رغم أنني وعدته أن أنتظره ووعدني أن يعود سالما غانما بأسرع وقت.

غسلت حبات البطاطا الصغيرة جيدا بالماء ووضعتها في وعاء على النار مع كمية وافية من الماء، تركتها على نار هادئة حتى تنضج.

كان المطبخ قصري، وغابتي الجميلة ودنياي التي أختبىء فيها عن الناس وأخفي فيها دمعتي التي لم تتوقف يوما إلا أمام الناس. أوصيت بناتي وزوجات أبنائي وحفيداتي بعدم شراء الخبز من الفران، ما من شيء يحبه الرجل في بيته أكثر من رائحة خبز القمح. وكانت أمي رحمها الله توصيني بهذه الوصية، كانت أمي

طيبة القلب مع البنات وقاسية مع الأولاد، كانت تقول: البنت لزوجها والولد للحرب.

قشرت حبات البطاطا وهرستها وأضفت إليها الملح والفلفل الأسود ثم هرست الجبنة الشركسية وأضفت إليها البهارات مع عجين البطاطا المهروسة وقطعت العجينة إلى كرات صغيرة بحجم البيضة ثم مددتها بيدي ووضعت فيها الحشوة وأغلقت العجين من جميع الأطراف بحيث صارت على شكل مثلث ووضعت الزيت بمقلاة واسعة وعميقة ثم قليت حبات الحلفا وصرت أقلبها حتى تصبح ذهبية اللون ثم وضعتها فوق ورق الزبدة حتى تتشرب الزيت تماما.

زوجي ادمر يحب الحلفا جدا، في ليلة زفافنا وعندما رفع الحجاب عن وجهي وطبع قبلة سريعة وصغيرة على شفتي، تبسمت له، وشعرت بالخجل، قال لي: أنت جميلة جدا، جميلة جدا يا ستناي.

تلون وجهي الأبيض باللون الأحمر حياء، وارتخى جسمي، واصبت بقشعريرة هزته هزا، بذلت ما بوسعي لأعيد الهدوء من جديد، ترددت قليلا، قلت له: أنا زوجتك.

عندما لم يعد نارت، تقدم لي ادمر، لم اكن لأرفض فارسا كادمر، وبدأت التحضيرات للزواج. اجتمعت العجائز والمسنات من ذوي القربى في غرفة من غرف دار والد ادمر، جاءت النساء الصغار والفتيات وأخرجنني من غرفتي مع الأغاني ودخلن بي على

العجائز، لم تكن حماتي، والدة ادمر معهن. قبلت أيديهن فنثرن عليّ الدراهم وقدمن لي الهدايا وغنت لي إحداهن الأغنية الخاصة ولاطفنني ودعون لي بكل خير. ثم عدت إلى غرفتي وانتهت هذه الحفلة وأصبح من حقي ان أخرج من غرفتي وأقوم ببعض الأعمال ولكن كان ممنوعا عليّ رؤية حماتي وحماي وأبناء حماي لمدة ثلاثة أيام. بعد تلك الفترة أقامت حماتي مادبة عائلية، كانت الحلفا الوجبة الرئيسية، قالت حماتي إن ادمر يحبها، قبلت يدها دون أن يسمح لي بالكلام معها.

قبلت الزواج بادمر لأني خفت عواقب حبي لنارت، فعندما لم يعد نارت وانقطعت أخباره وأخبار الكثير من فرسان الشركس، صار العالم صحراء قاحلة، وأصبحت الدنيا ظلاما، وأضحى الكون سديما، لم تعد الحياة تعني لي إلا ظلمات ولم تعد لابتسامتي حاجة، منذ تلك اللحظة التي ودعني فيها نارت أصبحت قريتنا كلها ظلاما وكان فيها بؤس وحزن، منذ أن ركب حصانه الأسود لم تغمض عيناي ليلا أو نهارا.

كنت أقف مع المودعين للفرسان، كان نارت يتقدمهم وبجانبه الفارس ادمر، مروا من أمامنا على ظهور الخيل، كانوا يبتسمون لنا مودعين وكانت خيولهم تحمحم وتصهل، وكانت عيونهم بارقة وعيوننا دامعة باكية وعيون خيولهم براقة كعيون فرسانها. شممت رائحة حصان نارت الأسود. كنا صديقين، كان يحبني لأنني كنت أطعمه السكر وامسح على عنقه كلما التقينا.

قاد نارت عددا من فرسان قريتنا وقرى مجاورة لمنع تقدم الجنود الروس، كان جنود الروس يأكلون أرضنا شبرا شبرا ويقتلون الرجال ويغتصبون النساء ويدفنون الأطفال أحياء ويحرقون الأرض وما عليها.

قال الفارس ادمر في مجلس القرية: لا بد أن نوقف زحفهم على قرانا وإلا اختفى جنس الشركس كله. سيختفي أبناء القفقاس بصمت لأن لا أحد في العالم كله يتنبه لمأساتنا ولن يتنبهوا.

انتظرناهم اسبوعا كاملا، يجلس الرجال منذ الصباح حتى المساء تحت شجرة عظيمة والنساء يقفن على نوافذ البيوت، وفي ذاك المساء الأسود عاد الفرسان بدون قائدهم نارت، حتى حصانه الأسود لم يعد مع الفرسان، فقدوه وسط المعركة ولم يعرفوا له مكانا.

جلس الفرسان وسط تجمع أهالي القرية ووقف الفارس ادمر وقال: خسرنا آخر معاركنا، لم نستطع صدهم، قتلوا الصغير قبل الكبير ودمروا القرى التي اجتاحوها ودفنوا الأطفال في حفرة واحدة وهم أحياء، هم جيش منظم ونحن فصائل متناثرة ومتباعدة، جنودهم كالنمل ونحن فرسان في تناقص مستمر.

سأله كبير القرية: وما العمل أيها الفارس ادمر؟

نظر ادمر إلى الأطفال المتواجدين في الساحة وتفحص وجوه النساء وقال: الهرب والسلامة.

وبعد سنة تركنا أرضنا وركبنا البحر الأسود إلى تركيا.

لاحظت أمي شرودي، لم أعد أساعدها في أي شيء، خفت ان تخبر أبي عن مرضي، لكن الأمر ليس بيدي، اجلس مع أهلي ولكني لست معهم، أصبحت حياتي بدون نارت بلا معنى ولا قيمة لها، قلت بنفسي: سيعود، نعم سيعود نارت كغيره من فرسان الشركس الذين اختفوا فترة ثم عادوا، أملي بالله أن يعود برفقة الشباب منتصرين، لن يهزم جنود القيصر إرادة الشركس.

لكنه لم يعد وخفت ان يفتضح أمري وعندما تقدم لي الفارس ادمر قبلت به زوجا دون تردد.

قبل أن ينطلق نارت إلى الحرب الأخيرة قلت له: تذكر دوما وإياك أن تنسى، لم يعد لنا أمل إلا بك».

●●

فتحت ورقة ثانية من اوراق الجدة ستناي، كتبت فيها:

«قالت أكواندة الجميلة -نعم جميلة رغم أنها أصبحت زوجة لمن كنت أحب ومن كان فتى أحلامي إلا أنها اكواندة الجميلة- قالت: عندما ولدت في تلك الأراضي الخضراء الجميلة والتي هُجّرنا قسرا منها وقتلا فيها كنت المولود الثالث في العائلة والأنثى الأولى، كان يكبرني شقيقاي انزور وحيدر، كنت كما أنا البنت الجميلة جدا، بشرتي بيضاء وعيناي لوزيتان لا مثيل لهما كما كان يقول لي زوجي نارت.

أنا سعيدة جدا كوني أنثى رغم الخوف الشديد الذي كان يصيب الأسرة التي يولد فيها الإناث لأن الحرب لا ترحم، والترحال أيضا لا يرحم، فالذكر يستطيع تحمل المصاعب الكبيرة وعلى

العكس من النساء، ورغم أن عائلات الشركس تعامل الذكور بقسوة إلا إنها تدللنا نحن الإناث، لكن ظروف الحروب جعلت أسرنا تخاف علينا كثيرا.

ولدت في أسرة بسيطة لاب فلاح وأم محترفة في فنون الطهو والأمومة، يوم ولدت كانت الثلوج تغطي الجبال لذلك كانت أمي دائما تقول لي: أنت يا اكوانئة ولدتِ في وقت كانت فيه الأرض بيضاء، وكانت أشجار قريتنا الجميلة تظهر وسط الثلوج الناصعة البياض، فكانت عيناك خضراوين وسط جمال بياض الثلج.

عندما بلغت سناً أستطيع فيها التعلم علمتني أمي الطهو والتنظيف وغسل الملابس وجعلها ناصعة البياض وصناعة الجبن والمخللات والحلويات وعلمتني فيما بعد كيف ارقص وكيف اصبح زوجة وكيف اجعل من نفسي جذابة لرجلي وكيف اصبح زوجة محبوبة وعلمتني كيف اكون امّا مليئة بالحنان.

كانت صديقتي ستناي تشبهني بلون بشرتها وطولها لكنها كانت تختلف عني بلون عينيها، كانتا سوداوين كالليل وجميلتين جدا، كانت ستناي أجمل النساء، وعندما لم يعد نارت بكته كثيراً، لكنه عاد، عاد إلى القرية كما قال لي، وقال إنه لم يجد أحدا من أهل القرية وأخبروه الذين رفضوا فكرة الهجرة ان أغلب سكان القرية هاجروا إلى تركيا عبر البحر الأسود، وعندما وصل إلى إسطنبول قال لي إنه بحث عن ستناي كثيرا وبالصدفة التقى باخي في أحد مساجد المدينة الكبرى.

سأل أخي عن عائلة ستناي فلم يجد جوابا، أخبره أخي أنه لا يعرف إلى أين توجهوا، ودعاه إلى بيتنا ومكث عندنا أكثر من شهر، توجهنا بعدها إلى حلب ثم دمشق، وهناك تقدم لخطبتي بعد أن فقد الأمل بالعثور على ستناي.

قبل ليلة زفافي إلى نارت علمتني أمي معنى الحب بكلمات قليلة وقالت: إن الحياة الزوجية تكون سعيدة إن كانت تحت شعار عش لشخصين، لا تسمحي لأي طرف ثالث بالدخول بينكما مهما كانت درجة قرابته حتى أنا أمك، وإن حاول زوجك الابتعاد عنك فاعلمي أنك السبب في بعده.

عندما وصلنا إلى عمان، والتقينا بأهل قريتنا الشركس، كان من ضمن النساء ستناي، يا إلهي ماذا أقول لها، أخذت حبيبها، لكنها تزوجت من أدمر قبل أن أتزوج من نارت، وبدأت النيران تشتعل في صدري عندما أخبرني نارت أنه زار أهل ستناي وقال لي إنه التقى بزوج ستناي الفارس أدمر، ومن أجل أن يمتص غضبي ويخفف عني غيرتي قال لي: لم أجد امرأة بين جميلات الشركس كجمالك يا أكوانئة، نساء الشركس أجمل جميلات العالم وأنت جميلة جميلات الشركس».

أغلقت أوراق الجدة ستناي، وسألت نفسي: ما الذي تريده الجدة مني بهذه الأوراق؟ ولماذا أرسلتها لي وخصتني بها؟ أتكون رسالة منها لي لقطع أي أمل بزواجي من سنا؟ لن أعود بعد الآن إلى أوراق الجدة ستناي قط، لن أعيد فتحها نهائيا.

## -17-
# بيت جدي

عاشت أمي وجدتي حياة العوز والفقر، تضمهما غرفة واحدة للنوم واخرى للضيوف، كانتا مبنيتين من الحجارة والطين وبجانبهما مطبخ صغير وبالقرب من المطبخ مرحاض وتلف الدار سلسلة من الحجارة لو سحبتَ واحدا منها من الأسفل لانهارت كلها. وفي ساحة الدار دجاجات قليلة لا تترك دودة من شرها، وعلى سطح الغرفة طواقي حمام اصطفت باتجاه الشرق، وفي ساحة الدار القليل من المزروعات التي تحتاجها جدتي في وقت لا يتوفر فيه أي طعام مطبوخ.

في زاوية من الحوش بئر حفرت بعمق يصل أحيانا إلى ثمانية أمتار، تأخذ شكل الإجاصة، حفرها رجال من القرية متخصصون في مثل هذه الأعمال، يحتاج حفرها إلى الصبر والقوة. بعد إزالة التربة الطينية ووصولهم إلى طبقات الصخر ينحتون في الصخر بجلد وهمة عالية لمدة تزيد على الشهرين، يستعملون أدوات معدنية، الأزميل والشاكوش، يعملون بصورة متواصلة، يخرجون الاتربة والحجارة من البئر بواسطة بكرة يربط بها حبل مزدوج، يضعون الحجارة والأتربة في وعاء مطاطي يطلقون عليه اسم القفة.

تكفي البئر طيلة السنة للشرب والغسيل وشرب حيوانات الدار

وري الاشجار، تتسع بعد تشييدها وإغلاق مساماتها الصخرية إلى كميات كبيرة من المياة والتي يتم جمعها من مياه الأمطار.

ويلحق بالبئر حجر كبير مجوف يطلقون عليه اسم الجرن، اتهمتني امي باني كنت اسبح فيه وانا طفل صغير. ويتسع الجرن كبيرة لأكثر من دلو من الماء، توضع في تجويفه الذي نحت ليصبح كالصحن، به فتحة في إحدى زواياه السفلى، لتصريف ما يتبقى من الماء المتسخ من مخلفات الحمام والدجاج، أو ما ينزل من افواه الاغنام التي شربت منه، وكان احيانا يوضع به قليل من القطران كعلاج لهذه الحيوانات.

قالت امي:

- كنت طفلة احب اللعب واحب جمع الزهور البرية.

نظرتْ أمي إلى مكان في زاوية الغرفة وقالت:

- كانت جدتك رحمها الله تنام في هذه الزاوية، كانت تستيقظ قبل الفجر بساعة، تستيقظ في موعد محدد، تتوضأ وتستعد لصلاة الليل، استيقظ على صوتها ودعواتها التي لم اكن اميز كلماتها، لكني متاكدة أنها تدعو لي.

كنت أنهض وأتفقدها، أجدها ساجدة في عتمة الليل وتدعو الله، أحيانا كانت تبكي بصوت فيه حشرجة الرجاء، ترملت امي وهي شابة، عاشت وحيدة في قرية سكانها فقراء، لا تملك من حطام الدنيا شيئا، همها طفلتها الجميلة، ربما كان جمالي هو خوفها الأكبر.

عكفت أمي على تربيتي، رفضت الزواج من عمي الذي تحجج أنه يريد ضم ابنة أخيه تحت جناحه.

قالت جدتك: يوم ولدتك يا مريم كان الوقت مساء، كان أفراد العائلة يجتمعون في ساحة البيت بانتظار ولادتك، خرجت صرخة كادت تسطر في قلوب أفراد العائلة لحظات يأس حزينة، إنها أنثى وليس الذكر كالأنثى، لكن والدك أطلق الرصاص من البارودة العصملية فرحاً وذبح كبشا.

وعندما بدأت تظهر على جسدي علامات الأنوثة، كنت في الرابعة عشرة، سجلت كعاملة لقطف الثمار وتعشيب الأرض، سجلت اسمي مع بعض الفتيات كعاملة في مزرعة جدك.

لن أنسى ذلك اليوم، دخلت إلى المزرعة، رجوت جدك أن يشغلني في مزرعته، كان ضخما جدا، يجلس على فرشة تحت دالية وأمامه بكرج القهوة، نظر إليّ نظرة طويلة، تفحصني، أصابني الخوف من نظراته، سألني عن اسمي، قلت له:

- مريم.

ابتسم وقال:

- مريم؟!

عرفني قبل ان أذكر له اسم أبي، نهض بعباءته الحريرية وقال:

- المزرعة كلها على حسابك، وأنت جميلة جميلات الرمثا كما وصفوك، وهم على حق.

لم أكن أعلم أن لهذه المقابلة مع جدك شأنا، لحظات قليلة

غيرت مسار حياتي ومصير عمري. قلت لجدتك بعد أن عدت إلى الدار وأنا فرحة جدا:

- وافق الحاج على تشغيلي.

قالت جدتك:

- الحمد لله، ولكن انتبهي لنفسك.

قلت لها:

- كانت نظراته غريبة وكلامه غامضا، خفت منه.

●●

خصصت الليل لأمي.

ليال قليلة، اسمع منها كل شيء، عن أخبارها وأخبار الرمثا، أتلمس جسدها، استمع لأعذارها وعذاباتها في غرفتها البسيطة الوحيدة المتواضعة، تعيش فيها وتسترزق من عملها بالخياطة لنساء القرية.

وفي نهاري كنت أتجول في طرقات القرية، زرت المزرعة التي كان يملكها جدي وباعها أبي هروباً من القرية، مررت بجانب البيت الكبير الذي سقط فيه رأسي وسقطت فيه طفولتي وعشت بعدها ذاكرة دون جسد، هو نفس الباب الذي كنت أراه قبل أن أنام وأنا طفل صغير.

## -18-

## ليل الشتاء

قال ابراهيم الجميل:

- كانت جدتي تحكي لنا في ليل الشتاء عن رجال يظهرون بلباس أبيض، أولياء الله، رجال ماتوا وعادوا، يظهرون في المواسم والأعياد بأثوابهم البيضاء ولحاهم البيضاء الطويلة ومسابحهم السوداء، يحملون من الدار الآخرة العطور وأعواد البخور، وكانت تقول لنا:

«لا يستطيع الميت مغادرة الدار الآخرة إلا إذا كان صالحاً».

ونصدقها بكل ما تقول، وفي ليل الشتاء، يندس الرجال قريبا من زوجاتهم، محاذرين أن يوقظوا العائلة التي تنام جميعا في مكان واحد، الجد والجدة، الأب والأم، الأخ والأخت وأحيانا الحرات، لا يفصل المتزوجين عن باقي أفراد العائلة غير ناموسيات من قماش أبيض خفيف لا تخفي شيئا مما يحدث بين المتزوجين ليلا أو تمنع سماع ما يهمسون به.

ينام الصغار على رفيف أجنحة البعوض وحكايات الجدات ونباح كلاب القرية التي تحرسها بعيون مفتوحة، مستعدة لمطاردة أي ذئب يحاول الاقتراب من بيوت الدجاج والدواب في الزرائب،

وخرجت، كررت الامر اكثر من مرة.

صفنت أمي وكانها تشاهد شريط ذلك اليوم امامها، قالت:

- جاء المساء محملا بهموم العمر كله، جلس وجهاء القرية في هذه الغرفة، كان جدك على راسهم وكان في استقبال الجاهة أعمامي وأخوالي، كنت وجدتك في الغرفة الثانية، طفلة، صغيرة، حزينة بلا ظهر يحميني أو قوة تدفع البلاء عني.

قال جدك:

- جئنا نطلب القرب منكم.

واضاف:

- كبر الولد ونريد تزويجه.

قال رجل من الجاهة:

- ابنك زينة شباب القرية.

وقال جدك:

- اخترنا له ابنتكم المصون لتشاركه الحياة.

قال رجل آخر:

- فتاة كاملة وعاقلة.

قال جدك:

- الولد يريدها على سنة الله ورسوله.

قال عمي:

- ابنك يا حاج على الراس والعين، ولكن.

قال المختار:

- ولكن ماذا؟ الحاج مستعد لكل ما تطلب.

قال عمي:

- لا يعز عليكم شيء ولكن البنت ما زالت طفلة صغيرة.

قال المختار:

- كل بنات الرمثا تزوجن صغيرات، وابنتكم مصيرها الزواج، الجميع يعرف أن جارتكم خلفت ابنها البكر وهي بنت 14 سنة وجارتنا قراوا فاتحتها على ابن عمها وهي بنت يوم ولما صار عمرها 13 سنة زوجوها.

كانوا يسومونني ويتفاوضون بأمري وأنا وامي وحدنا جالستان بصمت لا راي لنا ولا مشورة.

لم تكن أمي لترفض هذا العرض فهي كالرجال تعلم أن هذه الصفقة لا تعوض، العريس الغني الوحيد في القرية ومصير البنت الزواج لكنها تعلم أنّي لا اريده زوجا.

وعندما دخل المأذون الشرعي لأخذ موافقتي على سنة الله ورسوله ورأى الدموع تملأ عيني. كانت بحرا هائجا يغرق كل ما يصادفه، سألني عن رأيي في الزواج لكن صوتي ضاع واختفى مع أصوات رجال الجاهة، يقرأون الفاتحة ويتبادلون التهاني.

قال المأذون:

- إنها دموع الفرح، إنه حياء المرأة، ألف مبروك.

قال رجل من أقاربي:

- على نية الزواج.. الفاتحة.

## -19-
## المضافة

تعد مضافة المختار مجلسا للشعب يتم فيه مناقشة كل ما يتعلق بالحياة والزراعة والحرب والتهريب والفقر والدولة وينقسم الجالسون الذين يبدأون بالتوافد اليها بعد صلاة العشاء ما بين مؤيد للدولة وآخر معارض.

وكان من هؤلاء الراعي حسن العجيب» او الراعي «ابو مسبحة عاجية»، يرعى أغنام القرية طيلة أيام الأسبوع باستثناء يوم الجمعة، في هذا اليوم يكون في أجمل صورة، يخرج لصلاة الجمعة مبكرا، يظل جالسا في المسجد، يسبح ويحمد الله ويصلي على الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام حتى يصعد الخطيب إلى المنبر، لا يحفظ من القرآن إلا الفاتحة والإخلاص والمعوذتين، وفي يوم الجمعة يأخذ كلبه راحته ويظل ملتويا على نفسه أغلب وقته.

يحاول الراعي إغاظة «أبو عارف» وكان عندما يتحدث يلوّح بمسبحته البيضاء العاجية بشكل دائري، كانت عادة تلازمه عند حديثه، سأله العم عبد الرحمن عن المسبحة، نظر إليها وقال:

- اشتريتها من سوق الحميدية في دمشق، من بائع بسطة، رجل عجوز قال لي إنها مسبحة مميزة وغالية الثمن.

كان على خلاف دائم مع المختار ومع بعض سمار المضافة، وكان دائما يحاول إثارة «ابو عارف» ويعتبر أبو عارف أحد القوميين في البلدة، حرك مسبحته بصورة دائرية وقال موجها كلامه له«ابو عارف» حكم الذئب للغنم خير ألف مرة من حكم الشيوعيين أو البعثيين. وكان ابو عارف الرجل القصير الممتلىء الجسد يغضب من اتهام الراعي للبعثيين، لكنه كان يخفي غضبه حتى تظل صورته امام الناس انه منتم لحزب ويحترم اراء الاخرين، قال له: يا عجيب انت جاهل ولا تعرف اي شيء، البعثيون افضل مليون مرة من الاخوان المسلمين.

لم يعجب الراعي اتهام ابو عارف له بالجهل، فرد عليه بكلمة اعتقد انها سوف تسكته، قال: هذا لانهم تصبوك كبيرهم في الرمثا.

الحديث بالسياسة لا يعجب مختار القرية الموالي، ولم يعجبه حديث الراعي و«ابو عارف» قال: لا نرضى بغير حكم الهاشميين للبلد. الا ان «ابو عارف» لم يلتفت لحديث المختار، ضحك ضحكة صاخبة وقال: تم انتخابي من الحزب ولم انصبه، أنتم تريدون شخصا مثل «التحصلدار» يحكمكم ويسرق اموالكم.

كان لذكر اسم التحصلدار وقع سيئ على الجالسين في المضافة حتى ان الحاج عبد الرحمن انتفض وقال بصوت عال: الله لا يجيبه، شو جاب سيرته يا «ابو عارف». فرد عليه ابو عارف: هو دائما موجود، في كل مكان وفي كل زمان، وهدفنا نحن القوميين تخليصكم من امثاله.

اسكتهم المختار عندما طلب من ابنه ان يسكب القهوة للحضور، وقال مدافعا عن صديقه التحصلدار: التحصلدار موظف دولة، يؤدي واجبه الوطني.

حرك الراعي مسبحته العاجية بصورة دائرية وقال:

- التحصلدار حرامي، حرامي الحكومة.

غضب المختار وقال:

- التحصلدار بشتغل من شان البلد.

غير احد الحضور ممن يملكون راديو في منزله اتجاه الحديث عندما قال: الملك حسين كلف مرة من المرات سليمان النابلسي بتشكيل حكومة.

سأل المختار:

- مين النابلسي؟

تبسم ابو عارف، وقد احس بالفرح لحديث صاحب الراديو دون ان يقصد، شعر بنشوة الانتصار وقال:

- سليمان النابلسي، فاز حزبه بالانتخابات النيابية وكلفه الملك بتشكيل الحكومة، حكومة وحدة وطنية.

ضحك الراعي ليغيظ «ابو عارف» وقال:

- يعني من جماعتك يا «ابو عارف».

- اسقطت جماعة الإخوان المسلمين حكومة سليمان النابلسي، حطت يدها بيد الملك في سبيل التخلص من حكومة حزبية تميل ببرامجها نحو الشيوعية والبعثية.

قـالهـا ابو عـارف ونظـر في وجـه إبراهيم الجـمـيل منتظرا الإجابة.

نهض المختار، فتح باب المضـافة ونظر نظرة طويلة إلى الخارج، عاد واغلق الباب خلفه وقال موجها كلامه لأبي عارف:

- يا زلمة الحيطان إلها آذان.

لكن «ابو عارف» أصـر أن يسـمع الجـواب من أحـد الجـالسين فقال:

- إنتو بتعرفوا إنه الدكتور فوزي الملقي رئيس الوزراء فتح الأبواب المغلقة أمام الأحزاب، حكومته سمحت بتاسيس الأحزاب السياسية.

عندمـا ذكـر ابو عـارف كلمـة احـزاب اعـتلت الدهشـة وجـوه الجالسين في المضافة، وشعروا بخوف شديد لما لهذه الكلمة من وقع سيئ وذكر غير حميد، تابع أبو عارف حديث غير آبه بخوف الحضور: قامت حكومة إبراهيم هاشم بإجراء انتخابات نيابية لاختيار ممثلي الشعب في المجلس النيابي الخامس.

حاول المختار إسكات «أبو عارف»، لكن الرجل قصير القامة، ممتلىء الجسد قال دون ان يعطي للمختار أي فرصة:

- افرزت الانتخابات مجلس نواب اكثر من نصف أعضائه من احزاب عقائدية معارضة.

قال إبراهيم جميل بعد صمت طويل:

- انت يا «ابو عارف» بتتحامل على جماعة الإخوان المسلمين لأنك شيوعي.

سأل الحج عبد الرحمن صاحب البقالة الوحيدة في القرية:

- شو يعني شيوعي؟

نظر إبراهيم إلى «أبو عارف» صمت قليلا. ابتسم بخبث، أراد ان يوقع بينه وبين الجالسين، قال: شيوعي كافر، يقول ان الله غير موجود.

خرجت جملة «استغفر الله العظيم» من جميع افواه الحاضرين بمن فيهم ابو عارف، والذي لم يكترث لما فجره إبراهيم، والذي تابع حديثه: كان تشكيل الحكومة الحزبية العقائدية برئاسة سليمان النابلسي منعطفاً وسابقة لم تشهدها الدولة الأردنية في عهدها الملكي.

قال إبراهيم:

- ظن النابلسي أنه الحاكم بامر الله، اعتبر حكومته الطرف الأقوى في المعادلة.

اشعل ابو عارف سيجارته، سحب منها نفسا عميقاً، واخرج من فمه كمية كبيرة من الدخان وقال: حظيت حكومته بتأييد نيابي قوي وبتعاطف شعبي كان امتدادا لتأثر الشارع الأردني في الضفتين، كما كانت تحظى بدعم لا محدود من وسائل الإعلام المصرية والسورية ومن وسائل الإعلام اللبنانية.

تدخل الراعي الجالس بقرب المختار وقال:

- سمعت وقتها في صوت العرب المذيع يقول «الخلافات تطورت إلى مواجهة مصيرية تفضي إلى إقالة الحكومة الحزبية».

سأل المختار: «وشو قصة الكتيبة اللي طلعت من الزرقاء باتجاه عمان؟».

وجد الراعي الفرصة سانحة للايقاع بين المختار وبين «ابو عارف»، قال ساخرا: بدهم يعملوا انقلاب على الملك.

انتفض المختار كمن سكب عليه ماء بارد وقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

تبسم إبراهيم الجميل بخبث وقال:

- الملك طلع اشطر منهم، أرسل رئيس الديوان بهجت التلهوني وطلب من الرئيس النابلسي أن يستقيل.

قال أبو عارف:

- هذه الاستقالة كادت تجر البلد للتوتر، وصبت البنزين على النار، وجد الملك نفسه مع الحرس القديم يخوضون اكثر مواجهة على الساحة وكان لجماعة الإخوان المسلمين دور في هذا الأمر.

قال إبراهيم:

- انت تحشر الإخوان في كل شيء.

قبل ان يرد ابو عارف على إبراهيم فتح باب المضافة بصورة مفاجئة، ارتعب كل الموجودين، تعوذوا من الشيطان الرجيم، دخل سالم الفقير، كاد المختار يموت خوفا، اتجهت جميع الرؤوس صوب الباب، توقف الفقير قليلا، كان يضع على كتفه جلد خروف صغير وينتعل حذاء باليا، ارتسمت على وجهه تعابير غير معروفة ويبدو

عليه انه توقف ليستمع الى حديث تم قطعه بدخوله المفاجيء، ظل سالم الفقير واقفا عند الباب، يمعن النظر في وجوه الجالسين، صاح المختار مهددا بقتله، ضحكوا جميعا باستثناء المختار، طلب أبو عارف من سالم الفقير أن يجلس بقربه، قال سالم الفقير وهو يبتسم: خوفتكوا؟ جبناء. رد عليه الراعي «خوفت المختار» و«أبو عارف». غضب المختار من كلام الراعي وكاد يطرده لولا أن الأخير غير اتجاه الحوار وقال:

- «بتصدقوا ان مصطفى حي يرزق».

- «مصطفى مين؟».

سأله الحاج عبد الرحمن: مصطفى الحامد، ابن الأرملة اللي انقطعت اخباره وقالوا إنه انطخ بالتهريب؟

- «كلكوا بتعرفوا بالمحبة بينه وبين كلبي. سمعت أول أمس كلبي ينبح في منتصف الليل نباحاً غريباً».

- وهل أصبحت تفهم لغة الكلاب؟

قال المختار:

- من عاشر القوم اربعين يوماً صار منهم.

ضحك الجميع وقال الراعي:

- هذا النوع من النباح كان مخصصا لمصطفى.

فقال المختار:

- كلبك يحلم أحلاماً مزعجة.

**

دخل الراعي بيته، نبح الكلب، قال للكلب:

- اصبحت هرماً، صرت تتخيل اشياء لا وجود لها، اعذرني يا كلبي الأمين إذا سميتك احياناً الأجرب، هل انت اجرب؟

نبح الكلب معاتباً، فقال معتذراً:

- لا تلمن يا صديقي، لقد سخروا مني ومنك الليلة.

نبح الكلب مرة ثانية فقال الراعي وقد أشعل عود ثقاب وأضاء السراج:

- أنت صادق يا صديقي، لم تهرم!! أعلم أنك تحزن وتبكي، اتذكر يوم موت زوجتي؟ إنني أذكرك في ذاك اليوم الحزين، يوم موتها بكيت ونزلت دموعك، الناس لا يصدقون أن للحيوانات دموعا ومشاعر وعواطف وأحاسيس، لكنني متأكد من بكائك ومن دموعك لمّا علمت أنها ماتت، اتذكر تلك اللحظة، كنا أمام الدار ننتظر القابلة لتخرج وتبشرنا بولد يحمل اسمي من بعدي وتلعب معه. وخرجت القابلة، نبحت يا صديقي مستبشراً وارتفعت دقات قلبك مع دقات قلبي، خرجت القابلة والدموع في عينيها، فاعتقدنا أنها دموع الفرح، لكنها كانت دموع الموت، ماتت زوجتي وبكينا عليها، ماتت بالنزيف ولم تستطع القابلة إنقاذها، ماتت ومات الحلم.

نبح الكلب، فقال الراعي:

- أعرف ان الأعمار بيد الله، عمرها انتهى، بقينا انا وأنت سنوات طويلة معا لم نفترق لحظة واحدة.

وضع الراعي إبريق الشاي على النار وقال:

- وانت يا صديقي الم تحن للإناث؟ الم تشته زوجة تعيش معك، هل انت عاجز؟ لا انت فحل، أنت فحل، صحيح انك هرمت ولم تعد الكلب الذي يعرفه حتى اللصوص، قائد الكلاب وحامي القرية، تعرف كل اهل الرمثا . انت افراحهم، فرحهم فرحك وحزنهم حزنك، أنت يا صديقي احزان الرمثا كلها، كل أحزان الذين ماتوا كانت في عينيك وفي صوت نباحك وتختلط مع دموعك.

## -20-

# التحصلدار

تنتشـر الدكاكين بصـورة عشـوائيـة في سـوق الرمثا الصـغيـر، اغلبها مهن كالفرواتي وهو من جنسية لبنانية، ومحل البيطار الذي يعمل على تركيب وتبديل الحنوات للخيل وقريب منه الجلالاتي، أيضـا هو ليس من سكان القـرية الاصليين، ورث المهنة عن والده، يصنع الجلالات لتوضع على ظهور الحمير، ويبعد عنهم قليلا محل صناعـة الهـريط، والهـريط شـراب شـبـيـه بالجلي يصنع من طبخ عظام الإبل ويتناوله معظم الناس، وقـريب من المسـجـد العـمـري السـمكري مـصلح، بوابيـر الكاز، تعلم هـذه المهنة في درعـا، يصلح الفوانيس وبعض البوابيـر الموجودة في بعض البيوت والتي استغني بها عن حطب الفحم.

وفي أول الحـارة القـبليـة دكـان الحـاج عـبـد الرحـمن، أمـامـهـا مصطبة يجلس عليها بعض الرجـال بعد صلاة العصـر، يتحدثون ويلعبون «المنقلة» وهي قطعة خشب جوز سميكة محفور بها عدة حفر، توضع الحصى في كل حفرة وفق نظام يعرفونه، أو يلعبون (القطار) أو (اليـاس وديس) وهي لعبة يرسمونها على سطح بثلاثة مربعات داخل بعضها البعض، ثم يوصلون خطوطا تخترق أواسط

الأضلاع، فيضعون تسع قطع من الحصى لكل لاعب تختلف ألوانها من لاعب لآخر، ويحركون الحصى بالتناوب حتى يكسب أحدهما.

وكان بين الحين والآخر يأتي للقرية باعة متجولون، يحملون بضائعهم على حمير، يبيعون الصيغة الذهبية والفضية ويصيحون:

- «رشادي.. غوازي».

كان السوق ينتعش في أوقات الحصيدة، تلك الأوقات التي يعيش فيها أهل الرمثا أجمل أيام حياتهم، لكن، هناك أيام وأوقات هم غير راضين عنها وتحل عليهم بمصائب، من تلك الأوقات التي يأتي فيها أبو سرور، يأتي بسترته الواسعة وبنطلونه الفضفاض، وعقاله الذي يثبت حطة بيضاء تتدلى إلى منتصفه، يبدو بهيئة تخفي عيوب قصره وسمنته، وقد كان يساعده على التخفي من ملاحقة عيون الناس لتفحص عيوب جسمه، حقيبة جلدية سوداء مليئة بالأوراق، كانت حقيبته تنبئ بوصول الشؤم وتكدير النفوس، يتهامس الرجال:

- جاء «التحصلدار».

كان يضع بحقيبته التي تشبه في طياتها طيات (الأوكورديون) سجلات خاصة بأصحاب الأراضي في القرى التي سيمر عليها، كان يحمل فيها ختما خاصا وعلبة معدنية بسماكة تزيد على السنتمتر بقليل، غطاؤها مثبت بها بمفصلين دقيقين، وضع بداخلها قطعة من قماش قطني أو اسفنجي غمر بسائل بنفسجي، ويحمل فيها أيضا بعض دفاتر وصولات القبض والتي لا تزيد مساحة أحدها على مساحة علبة التبغ.

لم يكن أبو سرور يحمل سلاحا، ولا يرافقه حراس، ومع ذلك كان له هيبة استمدها من ذاكرة عمرها اكثر من الف عام، فيكفي انه يحمل ختم دائرة من دوائر الدولة ويكفي انه يلبس بنطالاً حتى يثير حفيظة الناس فتكرهه، كما كانت تكره الضرائب.

كان أبو سرور يختار ملابس فضفاضة، فالشحاذ يأخذ معه كيسا فارغا لأنه يامل ان يملأه من ما يعطيه الناس، وأبو سرور ياتي بحقيبة مطوية، أملاً ملئها بالنقود التي تفرضها الدولة على الفلاحين من ملاك الأراضي، تسمى (مال وأعشار) وملابسه يختارها فضفاضة تحسبا لزيادة في وزنه أو حجمه، من فعل الديوك التي ياكلها في القرى التي يداهمها.

ولا احد يعلم من اي مكان أو دائرة ينطلق ابو سرور، من أي مدينة، هل ينطلق من مركز المحافظة، من العاصمة، أم أنه لا ينطلق من مكان معين، بل يبقى طوافا، لا يهدأ، يقيم بالرمثا حوالي أسبوعين أو ثلاثة، لا أحد يدري كيف كان يحدد المدة، البعض قال:

- حتى ينجز عمليات الجباية من الفلاحين.

والبعض الآخر اكد:

- حتى ينجز القضاء على كل ديوك القرية، لينتقل إلى قرية اخرى.

كان المختار اول من يحط عنده أبو سرور، وينام في ضيافته، يتسامر مع المختار ليلا فيعرف خلال ساعات أحوال أبناء الرمثا كلها، والمختار هو الوحيد الذي كان لا يقدم الديوك للتحصلدار، بل

كان ينبح خروفا أو جديا ويدعو بعض وجهاء القرية، كان حديث المختار مع المدعوين يساعد التحصلدار في تحديد شكل المطالبة والإصرار عليها، يكشف له قيمة وكمية المحاصيل التي جناها الفلاح في الموسم.

في تلك الليلة، عندما قدم التحصلدار إلى مضافة المختار، تناول اغلب سكان القرية الطعام على شرف أبو سرور، وبعد أن شربوا القهوة طلب المختار من ابنه تجهيز فراش لابي سرور وذلك ايذانا منه وطلب من الحضور أن يغادروا. وبعد أن تأكد المختار من مغادرة الجميع وأغلق باب الدار وباب المضافة ساله عن أحواله، وعن حال الحكومة في عمان، ووضع في أذنه ما دار قبل أيلم من حديث بينه وبين أبي عارف والراعي.

همهم التحصلدار، بدا الغضب في عينيه وقال:

- اصبح الراعي مزعجا اكثر من أبي عارف.

- ابو مسبحة عاجبة كثير وكشة، ولا بخلي حدا من شره.

همهم التحصلدار وقال للمختار:

- اشتهي مسبحة مثلها يا مختار.

- ستكون عندك قبل أن يجف عرقك.

- يهديك المسؤولون السلام وحملوني لك رسالة مهمة.

- خير إن شاء الله، نحن في خدمة المسؤولين.

- اطمئن ولا تخش على منصبك كمختار، لن ينافسك عليه أحد ولكن كن حذرا من أمثال «أبو عارف» والراعي وإبراهيم الجميل.

مال المختار على التحصلدار وقال هامسا:

- ليطمئن بالك يا أبا سرور، هم عبارة عن أصوات غير مسموعة، أهل الرمثا لن يكون ولاؤهم إلا لعمان.

اشار التحصلدار إلى المختار ليقترب منه، اقترب المختار، نظر التحصلدار إلى باب مضافة المختار وجده مغلقا، قال له هامسا:

- كل واحد منهم سينال حسابه، والراعي لا وزن له، اطمئن.

ضحكا معا بصوت مسموع وقال المختار: الله يطمن بالك يا سيدي.

سكب المختار قليلا من القهوة العربية في فنجان ابو سرور وساله عن ابنه سرور وعن أخباره، ارتشف ما في الفنجان دفعة واحدة وقال:

- تخرج من جامعة اكسفورد اقتصاد وعلوم سياسية، طلبة اكسفورد يا مختار مثال للمستوى العلمي والمهاري المنهل على مستوى العالم أجمع.

- ذاك الشبل من هذا الاسد، اتوقع له مستقبلا سياسيا زاهرا ومرموقا.

- البلد بحاجة لمثل ابني سرور.

- نعم البلد تحتاج إلى رجال يحملون العلم والفكر مثل آبائهم.

- مؤكد هذا، ولن نترك البلد للراعي ولأمثاله.

- ابو مصبحة عاجية!؟

## -21-

# جريمة قتل

علاقةُ الزواج علاقةٌ روحيّةٌ وإنسانيّةٌ قوامُها الدين، والرحمةُ، والاحترامُ المتبادل، وحفظُ الأمانات، ومراعاةُ الخصوصية، حتى حين البحث عن حلول للمشكلات، والزواج الشرعي مُكتملُ الشروط والأركان لا تُناسبُه أوصافُ الجرائم والانحرافات، والحقوقُ الزوجيةُ مرتبطةٌ ومتشابكةٌ ومرتبةٌ على بعضها، وحين رغّب الدين الزوجةَ في رعاية حقّ زوجها عليها؛ أَمَرَتْ أدلةٌ أخرى الزوجَ بحسن عشرةِ زوجته، منها قولُه سبحانه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. [النساء: 19]، وقال رسولنا الكريم: «استوصُوا بالنِّساءِ خيرًا».

وينهى الشرعُ الشريفُ عن أن يُفرِّط أحدُ الزوجين في الحقّ الإنساني لصاحبه أو في علاقتهما الخاصة، والذي يحصلُ به مقصودُ الزواج من المودةِ والرحمةِ والإعفافِ وإعمارِ الأرض، وينهَى الشرع عن إلحاقِ أحدِ الزوجين الضررَ بصاحبه، سواء أكان الضررُ حِسيًّا أم معنويًا، كما حرَّم الشرعُ امتناعَ الزوجة عن زوجها بغير عُذر؛ حرَّم على الزوج الامتناعَ عن زوجته بغير عذرٍ كذلك، وأوجب عليه إعفافَها بقدر حاجتها واستطاعته، وإذا وصلت الحياة بين

الزوجين لطريق مغلق، واستحالت العِشرة؛ لا ينبغي أن يُفرِّط أحدهما في حقوق صاحبه.

وعند جمع النصوص والأحكام الشرعية المتعلقة بالزواج في الإسلام؛ نرى صورةً كاملةً من تشريعات حكيمة، قرّرت حقوقَ كل طرف، وحقوقَ صاحبه عليه، وواجباته، وواجباتِ صاحبه تجاهَه، في فقهٍ مَرِنٍ ومُتكامل، يزيل الضَّرر، ويجعل لكلِّ حالةٍ حُكمًا يُناسبها.

أدى عدد من ابناء القرية صلاة الفجر خلف الإمام، وجلسوا حوله في نصف دائرة، سأله خلالها صاحب الدكان الحاج عبد الرحمن:

- سمعت يا سيدنا الشيخ أن من يريد أن يتهم زوجته بالزنا يجب أن يحضر اربعة شهود، هل هذا صحيح؟

قال المختار:

- ما هذا الكلام؟ من أين يحضر الشهود الأربعة؟

- قال رجل كبير بالسن:

- إذا لم تحضر الشهود تجلد.

قال الإمام:

- هل تسمحون لي أن أجيب؟ إذا رأى رجل امرأة تزني واتهمها بالزنا دون أن يحضر أربعة شهود يجلد.

قاطعه المختار:

- وهل يبقى في رأسه عقل حتى يحضر الشهود الأربعة؟

ابتسم الإمام وقال:

- بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون ۞ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ۞ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ۞ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون﴾. صدق الله العظيم. هذا يا إخواني من جهة الزوج، أما الزوجة يا إخواني....

قاطعه الحاج عبد الرحمن:

- يقتلها!

أيد المختار كلام عبد الرحمن وقال: بل يقتل الزاني.

قال رجل آخر:

- إذا قتلها يطالب بدمها.

قال الإمام:

- إذا دخل بيته ورأى رجلا مع زوجته تزني فإنه يقع عليه حكم اللعان.

قال الحاج عبد الرحمن:

- لعنة الله على الزوجة الزانية.

- والرجل الزاني لعنه الله.

قال عبد الرحمن: يجب قتله ورميه بالشارع.

مال المختار على الحاج عبد الرحمن وهمس في اذنه: سؤالك في مكانه.

قال الحاج عبد الرحمن: كما طلبت يا مختار.

قال المختار: لعنه الله من بين خلقه، ويستحق الموت، من يتلاعب باعراض الناس يستحق القتل.

قال الإمام:

- اللعان أن يحلف الرجل أربع مرات أنها زانية والخامسة لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين وتحلف الزوجة لتبرئة نفسها أربعة أيمان والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كذبت وكان الزوج من الصادقين، وقال تعالى في سورة النور (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة احدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ويدرؤوا عنها العذاب إن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين • والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين). صدق الله العظيم.

سأل احد الحضور:

- وإذا حلف الزوجان؟

قال الإمام:

- يفرق القاضي بينهما ولا يرجعان أبداً.

- خرج المصلون من المسجد مع بزوغ أول خيوط الشمس، وما زال حديث الزنا في أذهانهم، قطعه منظر كلب الراعي وبجانبه رجل ممدد على الأرض. فقال البقال:

- أليس هذا كلب الراعي؟

- صحيح ولكن الراعي لم يأت لصلاة الفجر!!

ضحك المختار وقال:

- الله يجازي الراعي طول الليل على شبابيك الخلق وعند الصباح ينام في الشارع.

حاولوا إيقاظ الراعي، لم يتحرك، صاح عليه المختار لم يستجب.

قال رجل:

- الراعي ميت.

ردد المصلون:

- إنه ميت!!

- ميت؟!!

- نعم ميت.

- كيف مات؟ ومن؟ ولماذا؟.

فحصه الممرض، جس نبضه ثم أعلن الخبر:

- الراعي مات خنقاً.

- من القاتل؟

- لا أعداء للراعي!!

- من يقتله ويرميه قرب المسجد؟

●●

حدثتني أمي ان جدتي قالت للنساء وهن مجتمعات عند زوجة المختار:

- رحمه الله كان طيب القلب.

قالت إحدى الجالسات:

- ولكن من قتله؟

قالت امرأة عجوز:

- قتلوه ليسرقوا مسبحته العاجية، ثمنها غالٍ جدا.

وقالت احدى النساء الصغيرات في السن:

- يقال إن رجالا غرباء عن القرية خنقوه ورموه في الشارع.

قالت زوجة المختار بعد أن وضعت كأس الشاي من يدها:

- انا أعرف القاتل.

- تعرفين؟!!

- نعم أعرف.

- من هو؟

قالت وقد رأت كل الجالسات آذانا صاغية:

- اللي قتل الراعي كلبه.

- شو؟؟ كلبه؟!!

- نعم. سمع زوجي المختار الراعي يقول إنه حلت فيه روح شريرة.

- وأين الكلب؟

- خرج من الرمثا ولم نره منذ أول أمس.

وانتشر الخبر، الكلب غدر بصاحبه وقتله، يجب قتل هذا الكلب الأجرب النجس. روح شريرة حلت به وأصبح مسعورا، يجب طخه.

وقرر المختار مع رجل من رجال الأمن الذين جاءوا للتحقيق في جريمة القتل أن رجلا وجد الراعي مع زوجته فانتقم لشرفه.

-22-

## سنة الشيبة

يقولون إن الخوف هو عدوّ الإنسان الأولُ. والخوف كائن اسطوري مرعب يمزق اوصال الإنسان عند اول هجوم، وكثيرا ما تخيلت أحد مواقف الخوف المثيرة للدهشة والضحك في آن واحد أيضا. ولا انسى خوفي من أول يوم في مدرستي التي كانت تبعد عن منزلنا اكثر من كيلومتر، وقتها رفضت الذهاب إلى المدرسة إلا بعد أن رافقتني زوجة أبي إلى بوابتها، وخوفي في أول حركة للسفينة في البحر المتوسط وخوفي في أول يوم دراسي في جامعتي، كان خوفي من عدم اتقان اللغة الفرنسية.

عندما تعود بي الذاكرة إلى المواقف التي كنت أخاف فيها وإلى الكثير من المخاوف التي تواجهنا في حياتنا أضحك، أتخيل الأشخاص الذين يواجهون حدثا يكون الخوف فيه سيد الموقف، أتخيلهم يتسمرون خوفا وترتعد فرائصهم رعبا ويقف شعر رأسهم وجلا، يحاولون أن يظهروا اقوياء أمام اي شيء يخيفهم، وربما يتغلبون عليه وقد يرافقهم طيلة حياتهم كلها.

مرت أيام شديدة وعصيبة على أهل الرمثا، أصيب فيها الأهالي بالرعب والخوف الشديدين، كادوا يهجرون بيوتهم، بل

كانوا يهجرون الرمثا كلها، خوف شديد وهلع، الكثير من السكان سكّنوا البهائم في غرفهم خوفا عليها. ولقد أصاب الجوع العديد من المناطق في الشمال، وغزت الحيوانات المفترسة القرى بحثا عن أي شيء تسد به جوعها الشديد.

وعندما زرت الرمثا في المرة الأولى لم أنس أن يوسف العبد الله وعدني أن يحكي لي قصة سنة الشيبة، وقلت له: لم أنس وعدك وأظنك ستفي به.

ضحك يوسف وقال:

- وعدتك أن أحكي لك قصة العم عبد الرحمن، صاحب الدكانة الوحيدة في الحارة القبلية، إسمع يا صديقي قصته من طقطق للسلام عليكم: العم عبد الرحمن أحد الأشخاص الذين هاجمتهم الشيبة، لم يمت، هاجمت الشيبة في تلك السنة المحلة تسعة أشخاص من الرمثا، وقعت هذه الحادثة بعد مقتل الراعي بأشهر قليلة، السكان أكدوا أن الشيبة هي كلب الراعي الذي قتل صاحبه، كانوا يقولون إن روحا شريرة سكنت جسد الكلب، البعض الآخر من أهل القرية أكدوا أن الشيبة حيوان مسالم تعرض للعقر من كلب الراعي المسعور «وانسعرت الشيبة وصارت تعض الناس».

هاجمت الشيبة تسعة رجال من ضمنهم صاحب الدكان الحاج عبد الرحمن، وهو الوحيد الذي نجا من الموت، التزم بالعلاج، بينما الثمانية الآخرون اعتمدوا على قطعة قماش أحضروها من مزار أحد الأولياء وعلقوها بأعناقهم وأيديهم لكنها خذلتهم فماتوا.

ظهرت الشيبة في الرمثا فجأة، حيوان مفترس له أطوار غريبة، أصاب الناس بذعر شديد جدا وبقي ثلاثة أيام يتجول في الرمثا حتى تمكن عدد من الرجال من قتله، راقبوه ليلا واستطاعوا قتله ببارودة انجليزية. لا يزيد حجمه على حجم الأرنب الكبير، شعره طويل أحمر، فمه ووجهه من الأمام يشبهان كلب الصيد.

قال العم عبد الرحمن بعد أن شفي:

- «هاجمتني الشيبة بالليل وأني رايح للمسجد العمري أصلي الفجر».

وقال عبد الرحمن بعد أن أشار إلى مكان الجروح في وجهه:

- «هجمت عليّ من الخلف، وقّعت الحطة والعقال عن راسي».

تحسس عبد الرحمن رأسه وقال:

- التفتُّ إلى الخلف لأرى الفاعل، كانت الشيبة، نطت عليّ، نطت بسرعة البرق في وجهي، غرزت مخالبها فوق عينيّ، أظافرها حادة تشبه السكاكين، سقطتُ على الأرض وفقدتُ الوعي، هربتْ الملعونة إلى جهة غير معلومة.

تبسم يوسف وعدل من جلسته وقال:

- روى العم عبد الرحمن القصة أكثر من مرة وكل مرة كان يرويها تختلف عن الأخرى، إحدى المرات كنا نجلس عنده في دكانه، كنا مجموعة من الشباب. قال:

- «وأني رايح على الجامع العمري، سمعتلكوا صوت نباح مجموعة كلاب، وبطريقة غريبة وغير اعتيادية، كان الصوت جاي

من الشارع الثاني، قلت بحالي يمكن يكون حرامي، رفعت مزنوكي «قطعة من الملابس» ورحت اشوف الأمر، حملت شوية حجار، اخ بس لو كانت معي البارودة الانجليزية، بس لويش بدي اشيلها واني رايح على بيت الله أصلي، الرمثا امان».

تحسس العم عبد الرحمن يده وكأنه يتفقد البندقية. قال:

- شفت كلب مر بسرعة، كأنه كلب الراعي، تركته بحاله، مشيت بالشارع الثاني، اختفت الأصوات، غيرت طريقي، خفت تروح عليّ صلاة الصبح، وقبل ما أصل طريق السوق نط عليّ حيوان غريب عيونه حمر يشبه كلب الراعي، زقمة «فمه» مثل زقم الكلب فكرته ضبع، شفت جنبه مجموعة كلاب مرمية، الملعون مشلخها «مشرحها» والدم بسيل منها، رميت أول حجر عليه طحنه، ثاني حجر طحنه، قلت يا ولد الفليلة تلثين المراجل رحت أركض وهو يركض وراي، صرت مثل الريح، ظليت اركض حتى وصلت على قرب الجامع، أخ لو كانت البارودة الإنجليزية معي كنت رميته فطيسة من أول طلقة.

زادت أنفاس العم عبد الرحمن صعودا، قال بعد أن شرب قليلا من الماء:

- حسبت إنها الشيبة، وقفت بعيدة عني، صارت تطلع أصوات غريبة، بعد شوي وقبل ما أصل الجامع، نطت الشيبة لفوق، الله وكيلكوا نطت اكثر من مترين وهجمت على وجهي، قلومتها بكل ما انطاني الله من قوة، رميتها على الأرض، صار الدم يهطل من

وجهي وراسي وادي، نزل الدم من خشمي تقول حنفية، تركتها ومشيت، خفت اموت، او انسعر.

تفقد العم عبد الرحمن الطريق، كانما يخاف ان ياتي احد ختيارية القرية، لم يجد اي أحد في الشارع المار من امام دكانه وقال:

- حاولت الابتعاد عنها، اسرعت المشي، بس الملعونة غدارة، نطت عليّ من ورا، وقعت عقالي وشماغي وما صحيت إلا واني كلي دم وهي فلت.

ابتسم العم عبد الرحمن للشباب الجالسين في دكانه وقال:

- الحمد لله، الله شافاني وما متش.

وفي رواية ثانية للعم عبد الرحمن قال فيها: كان الموقف رهيبا بحق. وقفت امام الشيبة مواجهة وليس امامي من مفر. كانت الشيبة تقطر غُلا وتنفث غضبا.

كنت أغوص في بحر من الخوف والرعب. العرق يتصبب من جسدي. كل شيء فيي يتحرك بعنف ما عدا قدميّ. قلبي ينبض بعنف ويداي ترتجفان بعنف وعيناي ترمشان بلا توقف، إلا ساقاي فقد تسمرتا من شدة الخوف.

حاولت أن ابدو متماسكا. ذلك التماسك الذي لا مفر منه حينما تكون في مواجهة وحش مفترس يريد منك شيئا واحدا، يريد ان يفترسك! إن الشجاعة لعزيزة وهي بعيدة المنال، بذلت مجهودا كبيرا لكي ابدو شجاعا، يجب ان اكون شجاعا على الأقل امام

نفسي، يا روح ما بعدك روح، يا قاتل يا مقتول يا عبد الرحمن.

ويقول صديقي إن الشيبة اختفت فجأة من الرمثا، وكل ختيار من ختيارية القرية يدعي إنه هو الذي قتلها، ويؤكد صديقي انها تعود وتظهر في أوقات مختلفة وبأشكال مختلفة أيضا. ويقول إن الامهات دائما يحذرن الأبناء من الشيبة والتي هي بالأصل قطة تعرضت للعقر من كلب مسعور وأصبحت شيبة، ويقول انه هو نفسه من مواليد سنة الشيبة واخته من مواليد سنة الحياري.

ضحك صديقي وسألني:

- وانت مواليد أي سنة؟

ضحكنا معا وقلت له:

- انا مواليد سنة الثلجة الكبرى.

## -23-
# قسوة

حاولتْ أن تتقرب من أبي، وعملت كل شيء حتى تحافظ على أسرتها سعيدة، ولكنه كما قالت ظل يحمل في رأسه ذكرى مريضة. وقالت:

- تحملت مرارة وقساوة الحياة معه لاجلك أنت لكنه لم يسمح لنا أن نعيش معا. كان اهل الحارة يحتفلون بمناسبة عودة ابن خالي سالماً، كان أسيراً وكنا نظنه ميتاً. في ذلك اليوم المشؤوم دخل والدك وقال:

- فرحانة اليوم، «شو القصة؟».

- «ولا إشي» يوم عادي، يوم مثل كل الأيام.

- لماذا تخفين عني فرحك؟!

رفض والدك أن يتغير، ظل يعيش بذكريات قديمة، يحاسبني على أمر ليس لي فيه ذنب، اقسم لك يا ولدي اننا كنا أطفالاً وكعادة أبناء القرى يقرأون فاتحة البنت على أحد اقاربها وهما طفلان، لم يكن الحب يعرف طريقه إلى قلبينا، قرأوا الفاتحة ونحن طفلان، لم نكن نعرف ماذا يعني الحب، لكن الظن والشك دمرا أسرتنا وكادا يدمرانك ويدمران والدك، قال لي: لماذا لا أطلقك؟

لماذا ما زلت أحتفظ بك زوجة؟ سكتْ، وكأنه يريد أن يخرج من صدره سماء قال:

- كنت اليوم أمشي في الحارة وأتحدث مع نفسي مثل المجنون، حتى أن صوتي خرج وسمعه سالم الفقير الذي كان يجلس تحت شجرة السرو، نادى عليّ وقال:

- صُن نفسك يا ولدي واحفظها من القهر.

وضعت أمي مخدة كانت تتكئ عليها في حضنها وقالت:

نطق والدك بهذه الكلمات وخرج، تركني خلفه جسدا مليئا بالحزن والحسرة والألم.

سكبت قليلا من القهوة في فنجاني وقدمته لي وقالت:

- الظلم ظلمات.

●●

فقد سالم الفقير عقله عندما هجرته زوجته، يقول سكان القرية إن له حكاية حزينة عجيبة غريبة، كان الفقير من أميز الشباب، كان له ابنة عم تصغره بخمسة أعوام، كانت جميلة، بل أنهم يقولون إنها فائقة الجمال، توفي والدها وهي طفلة فكان سالم الفقير كل شيء لها، وأعالها مع أمها وشقيقها الذي توفي بمرض لم يعرف اسمه.

ويخاف أهل القرية من سالم الفقير ويحسبون له ألف حساب، رغم انه رجل نحيل لكنه يحمل وجها جميلا لو اعتنى به قليلا، إلا انهم يخافون منه كثيرا، كان يصفه الأطفال بالمجنون، يتبارك به

الكبار، خاصة النساء، لم يكن يعجبني وصفهم، لم اكن أخاف منه ابدا، مما شكل صداقة بيننا. بهذه الكلمات وصفت أمي سالم الفقير.

وقالت: لم تكن صداقة بمعنى الود والحديث معا، كنت اتمنى لو اجلس معه وأحدثه ويحدثني، كنت أحلم بفك أسراره والخرافات التي ينسجونها حوله، أستغفر الله العظيم، ليست خرافات إنها كرامات، لم يصادفني يوما بالشارع إلا وابتسم لي، كأنه يعرفني، أشعر به يحمل لي ودا ومعزة خاصة في قلبه.

اقتنع سالم الفقير بما كانوا يصفونه به، أصبح يتعايش مع الأرواح، يحادثها وتحادثه، يسمع اصواتا لا نسمعها، ويرى أشياء لا نراها، يحبها ويحن إليها، مبتعدا قدر المستطاع عن سكان القرية إلا إذا احتاجوه في دعاء أو بركة.

يعرف كل ابناء الرمثا، يؤرخ لهم احداث حياتهم، يعرف الجميع بأسمائهم والقابهم واسماء الأمهات والزوجات وسنة الولادة ويعرف قصص سنة الثلجة وسنة الشيبة وسنة الحياري، ويقال إنه هو من قتل الشيبة وليس رجال القرية، بعد يومين من لقاء والدك بسالم الفقير رمى علي يمين الطلاق.

مسحت أمي دمعة لم تستطع منعها من النزول وقالت:

- حملت ملابسي القليلة وغادرت سجني، نعم سجني الذي وضعني فيه أبوك، بكيت كثيرا، سقطت أرضا، نهضت بتثاقل، غادرت بيتنا، اشتعلت النيران في بيت جدتك.

- (مريم إطلقت)..

وانتشر الخبر في كل أطراف الرمثا، وتناقلت نساء الحارة القبلية قصتي بشتى الطرق والالوان:

- مريم طلقها زوجها.

- لماذا؟

- كيف؟

- لمن تركت صغيرها.

- مريم طلبت الطلاق.

- قاسية القلب.

وقالت إحدى الجارات إن سالم الفقير قال للرجال: استراحت من العذاب.

صمتت امي قليلا ثم قالت:

- انحنيت على قدم والدك أريد تقبيلها من اجل أن يتراجع عن الطلاق.

سكتت، رفعت بكرج القهوة مرة ثانية، هي تعرف ولعي بقهوتها منذ صغري، صبت قليلا في الفنجان وقدمته لي، ابتسمت كأنها تحاول استرجاع قوتها بعد أن ضعف صوتها، اقتربتُ مني، حاولتُ استعادة تلك اللحظات البعيدة، مسحت بيدها على راسي.

قالت:

- حاولت مع والدك لكي يتركك لي لكنه أبعدك عني.

قالت:

- عدت إلى بيتي الذي لم أكمل فيه طفولتي، ولدت هنا تحت هذا السقف الذي يكاد يسقط على راسي، لعبت هناك، ضمني جدك وحملني على ظهره، ومن هنا خرجت عروسا لابيك، وإلى هنا عدت مطلقة وحيدة.

قيل لي إن والدي أطلق عليّ اسم مريم تيمناً باسم السيدة العذراء، كان يحلم بولد ذكر، وليس الذكر كالأنثى.

امي حزنت عندما علمت أن مولودها انثى وحزن الجميع وقالت لي أمي:

- لم أتناول الطعام يوما كاملا من الحزن.

عادت لتواسيني وقالت:

- انت خير من كل الأولاد يا مريم.

كنا رفيقين، لم نكن أُمّاً وابنها. كنا صديقين، ليلنا نقضيه معا ونهارنا نلعب فيه معا. وكنتَ النافذة الوحيدة التي أطل منها على الفرح والسعادة، وكنت من يخفف عني ألمي وحزني. عندما كنت تراني ابكي ترمي بجسدك الصغير في حضني لكي لا أبكي وتمسح دموعي بكفيك الصغيرتين. كنت تقول لي:

- لماذا تبكي يا أمي؟

كنت اخفي عنك آلامي وعذابي وأقول لك:

- راسي يؤلمني..

وكنت ببراءة تقول:

- دائما راسك يؤلمك.

بعدها كنت أضحك وأسكت.

●●

تسمى الأشياء في الرمثا بأسماء الأشخاص، ويؤرخ الرماثنة لأحداث وقعت لهم، فمن حرب البدو إلى سنة الحياري إلى سنة الثلجة الكبرى الى سنة الشيبة وأحيانا تتم كتابة تاريخ ميلاد أو زواج شاب بوفاة البقرة الفلانية ذات اللون المميز والمشهورة بكثرة حليبها، ويكثر ذكر سنة الكوليرا، فلان مات سنة الكوليرا وفلان نفذ من الموت بسنة الكوليرا وفلانة ولدت طفلها البكر سنة الكوليرا ونفذ من الموت.

حكت أمي عن سنة الكوليرا التي عاشتها الرمثا قبل سنوات قليلة عندما تعرضت للوباء القاتل، وقالت: حذر حلاق القرية، وهو بالمناسبة مطهر الأولاد وأحيانا طبيبها إضافة إلى ما تقوم به بعض العجائز من علاج، حذر الحلاق الرجال الجالسين في المقهى من اقتراب الوباء فهذا موعده، هز الحضور رؤوسهم لمعرفتهم أن المقصود الكوليرا.

قتل الوباء العام الماضي اكثر أطفال القرية.

قال الحلاق:

- كونوا حذرين.

- وقعت حالات لأطفال يعتقد المرض أنها الكوليرا.

- وهل تأكد من المرض؟

- يقول الممرض: الأعراض نفسها، الإسهال على شكل ماء الرز

وماء النشا، تطورت الحالات إلى الجفاف نتيجة فقدان الجسم للكثير من السوائل والأملاح.

- وهل سنبقى تحت رحمة المرض؟ الا يوجد حل؟

- يوجد.

- الموت.

●●

كان سكان الرمثا يحجمون عن ذكر اسم المرض، كانوا يقولون لبعض.

- الوباء قادم؟

- «فات الرمثا؟».

- إن الداء مستوطن في أرضنا ولا يريد الخروج.

وقالت أمي:

- وسط القيظ وارتفاع درجات الحرارة ملأ الخوف النفوس وقلل الناس من الزيارات، وأصاب المرض أغلب السكان، وصل إلى أعلى درجات القسوة والقوة له، جمع كل قواه وانقض على القرية، اصبحت الأجساد الكبيرة تنوي والجمال يموت والبراءة تختفي من البيوت مع موت الأطفال.

كما في غيرها من القرى، لم يكن في الرمثا عيادات طبية، لم يكن هناك أطباء في كل المنطقة، كان في منطقة إربد كلها طبيب واحد من أصل إيراني، ومن يدري قد لا يكون طبيبا.

استقر مرض الكوليرا في الرمثا، ورافقه الموت يحصد الارواح،

استوطن فيها، كانوا يقدمون للمريض قليلا من اللبن والثوم كعلاج، أحيانا يقدمون للمريض بعض البصل مع الطعام كخطوة إضافية، وكثيرا ما كانوا يحضرون للمريض عجوزا تحتفظ ببعض المهارات وبعض أصناف أدوية مثل «السنامكة، والمروحة، والعنزروت» وغيرها.

لم يكن لدى أهل الرمثا خيارات، لا بد من قبول علاجات العجوز، وفي حالة مثل مرض الكوليرا لا بد أن يبتعدوا عن العجوز قليلا ويستمعوا للممرض أو للحلاق؛ لأن كل واحد منهما أدرى بمثل هذا المرض، أحيانا كانوا يمزجون علاج التمائم مع علاج المرض، يحضرون عجوزا، تتمتم ببعض الكلام.

في يوم سبت أسود أخبرتني اختك أن أخاك أصيب بالإسهال، وتكررت الإصابات، حتى أصيب جميع من في البيت وطواهم جميعاً تحت جناحيه.

تقول أمي: إضافة إلى علاج الممرض جاءت إحدى النساء الكبيرات بالسن وقرأت على اخوتي:

- (حوطتك بالله، والنايمين تحت الشجرة، لا يأكلون ولا يشربون. عين الولد فيها وتد. عين المرا بيها (...)). تتثاءب وتتكلم وتأتي بكلام شبيه بالأول.

دمعت عينا أمي وانتظرت لحظات ربما لكي تستحضر ذاكرتها الحزينة التي استباحت جسدها. قالت:

- أصبحتُ على عدة جثث، مات الزوج والأولاد. بقيت جثتي

تصارع المرض، عشت وحيدة أعاني من جسدي وذكرياتي وآلامي واعيش احزاني كلها منذ البداية حتى جئت إليّ. جئتَ بفرحك وحبك تحمل إليّ سعادة ما بعدها ولا قبلها سعادة.

وقالت أمي:

- اختلف أهل الرمثا فيما يفعلونه بالجثث الكثيرة التي حصدها الوباء. هل يحرقونها؟ وإذا دفنوها ألا يصابون بالوباء؟ موتى كثر، اجساد ناحلة لم تعرف الرمثا سنة كهذه.

- إنه الغضب.

- غضب رب العالمين على القرية.

- لا إنه وباء نشره اليهود.

واخيرا تم دفن الموتى في قبور متقاربة.

## -24-
## الفراق

بكت أمي وهي تضم يدي بكلتا يديها، مسحت دمعتها بغطاء راسها وقالت:

- اتعبني تفكيري ببعدك عني، كيف حصل هذا؟ راحت الاسئلة تدور في راسي: كيف يعيش ابني، كيف هي حياته وهو بعيد عني؟ كنت اصاب بالجنون، حينما أفكر أنه قد يصيبك اي مكروه وانا بعيدة عنك.

ناولتني امي فنجان القهوة، تعرف أمي كم أحب القهوة السادة، وأعلم أنها كانت تراقبني وانا أسرق في طفولتي رشفة الفنجان خوفا منها، شربت القليل من القهوة، هززت الفنجان وسألتها: لماذا تخليتِ عني؟ كنتِ في مخيلتي أماً عظيمة، اخبروني أنك ميتة، كنت أراك بين سطور كتبي، بكيت عليك الكثير من الليالي وكل ظني أنني يتيم، بينما أنت على قيد الحياة.

- ما الذي زرعوه في ذاكرتك الصغيرة؟ تظن أنني تنازلت عنك وابتعدت بمحض إرادتي، جعلوك تعيش يتيما، كان الأمر رغما عني، إن كنت تتألم قليلا فألمي لفراقك أكثر وأكثر، أكبر وأكبر.

نهضت أمي إلى النافذة واطلت براسها إلى أحد ازقة القرية المعتمة.

قلت لها:

- قبل أن ادخل بيتك تجولت في شوارع القرية، عادت لي بعض الذكريات.

قالت:

- شوارع القرية شاهدة على كل ما عانيته، زواجي، معاملة والدك السيئة، طلاقي وحرماني منك، موت جميع أفراد اسرتي في يوم واحد، وهذه النافذة تشهد أيضا.

●●

اصيبت أمي بالتحول، تحولت منذ وفاة اخواني وزوجها الثاني إلى كائن نحيل صغير ذي ذاكرة مثقوبة، يسمعها الجيران في كثير من الأوقات وهي تنادي على زوجها وعلى افراد عائلتها، تنادي على ابنها البعيد، ابنها عمر أمين. ظنوها فقدت عقلها مع موت عائلتها.

قلت لأمي:

- صديقتي الفرنسية ذات الملامح الإسبانية تحتفل كل عام بعيد ميلادها، تزور الكثير من البلاد والمدن، تتمتع بصحة جيدة، تلعب الرياضة، كل صباح، تقرأ الكتب وتتردد على المسارح، الحياة في باريس يا أمي اقل تعبا من الحياة في الرمثا.

قالت أمي: لم أخرج من الحارة القبلية قط.

صمتت قليلا ثم قالت:

- تزوجت مرتين وانجبت الكثير من الأولاد والبنات لكن لم يعوضني احد عن فقدانك.

سكبت لي فنجانا من القهوة وقالت:

- اكثر من عشرين سنة وانا مثقلة بهمومي، أحمل في صدري كل ما اخفيته وكتمته، احمل همي على ظهري كالحجارة الثقيلة، لكني اليوم اشعر بانني أسعد إنسانة بالدنيا، فأنت قربي، عدت إلى حضني وسافرغ لك كل ما في ذاكرتي، ساقصص عليك صمتي، ساروي لك حكايتي الحقيقية التي عشتها بالدموع.

صمتت امي قليلا، ابتسمت لي وقالت: سعيدة جدا لأنك اخيرا هنا، انت حلمي وخلاصي ونور عيني.

لم تتجب أمي مريم من أبي غيري، جميلة جميلات الرمثا، امي جميلة جدا، لم تكن تنتمي لطبقة أبي الغنية، عاشت يتيمة برفقة جدتي، كان جدي لوالدي من أغنياء القرية وأعيانها، كان بيت والدي من اكبر البيوت في الرمثا، بيت طفولتي ومسقط راسي، فيه أسرار طفولتي، خمس سنوات عشت فيه مع امي وابي، كان بيتا كبيرا مكونا من طابقين، كان يسكنه أبي وجدي، ابي ايضا كان وحيدا لوالديه، يقال إن جدتي لم تنجب غيره بسبب خوف أصابها ليلا، ويقال إن جدي لم يعد يقرب جدتي بعد ولادة أبي، لا ادري ايهما اصح، لكنني أعلم انه كان وحيدا، لم يكن لي أعمام ولا عمات.

كان حوش البيت كبيرا مليئا باشجار الرمان والدوالي وشجرة

ليمون كبيرة، تجلس على مدخله شجرة ياسمين عتيقة، كبيرة جدا، تنطلق رائحتها قوية، تكاد تغطي البيوت المجاورة كلها. كان البيت مسرحا لسنواتي الخمس الأولى.

كنت في كثير من الأحيان، عندما اغمض عيني مستعدا للنوم يفتح أمامي باب كبير، اظنه باب بيتنا القديم، كنت اسمع صوت صريره، كنت أرى طفلا يخرج منه مسرعا هاربا من شيء ما، طفلا يحمل ملامحي، اسمر ذا شعر أسود مسترسل، ممتلئ الخدين، واسمع صوت امي تنادي:

- إرجع، لا تخرج.

كنت في كثير من الليالي احاول تفحص ملامحها ورؤية صورتها لكني كنت افشل، ينتفض القلب شوقا اليها، كأنني عاشق لأول مرة، تستيقظ حواسي كأنّي تحت المطر، تراودني احلامي الممزوجة بذكريات طفولتي، عبثا حاولت ان أستجلب نوما يهرب في كثير من الأوقات، أراها كعلامة ضوء وسط ليل معتم أعيشه في غرفتي وغربتي، كانت قريبة مني، لم تفارقني أبدا، تأتي إليّ بثوبها الأسود وغطاء راسها الرمثاوي، أسمع خطواتها قادمة إليّ، تهدهدني لأنام، تقرأ فوق راسي سورة الفاتحة وآية الكرسي وقل هو الله أحد وقل اعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس. كنت أشعر بها تغادر غرفتي بهدوء بعد أن اطمأنت على نومي وكنت اسمعها تدعو «يا رب إحفظ ابني» لكني عندما أستيقظ صباحا لا أجدها، حتى رائحتها الطيبة، رائحة القهوة السادة تختفي.

## -25-

## العودة

كانت الساعة تشير إلى الرابعة فجرا، غرفة أمي مضاءة بانارة يكاد زيتها ينفد، مصباح معلق بالسقف ويتدلى بسلك كهربائي اسود، وقد تغير لون هذا المصباح ببراز الذباب، ولا يكاد يضيء حتى حول نفسه، وهناك خيط من ضوء ضعيف يتسلل من الخارج إلى داخل الغرفة، لا اعرف من اين جاء هذا الضوء ولم احاول أن انهض من فراشي لأرى مصدره.

بعد قليل من النعاس والكسل، فركت عيني وطردت النعاس منهما، نهضت أبحث عن أمي التي لم تكن موجودة في فراشها القريب من فراشي. فتحت الباب، وجدتها تجلس تحت إحدى شجرات البيت، كان ضوء الفجر قد بدد ظلام الليل، اقتربت منها واخرجت صوتا من فمي لاشعرها انني اقترب منها، كانت تبكي، استيقظت منذ ساعات الفجر الأولى، تبكي خوفا من فراقي مرة أخرى.

قلت لها:

- ساعود لأصطحبك معي، سوف أرتب اموري واعود بعد اسبوع.

تحدثنا ليلة أمس، حاولت اقناعها بالرحيل معي إلى عمان، رفضت بحجة أنها لا تريد أن تترك بيتها، لكني لن أتركها، سوف أعود واعوضها سنين أمومتها الضائعة وأعوض نفسي طفولتي التي ضاعت، اريدها ان تمنح اطفالي ما فقدته.

قلت لها: سوف نسكن في بيت منفصل.

تجولت ساعة في طرقات الرمثا الضيقة، ودعت أصدقائي واعداً إياهم بعودة طويلة ودعوتهم لزيارة عمان وقضاء بعض الأيام فيها. تجولت في أغلب شوارع الحارة القبلية، ودعت من استطعت من أهلها.

اعتصر الأسى قلب أمي وهي تودعني، تعلم أنني ساعود إليها، لكنها لا تثق بالأيام، قبلتني لمرات عدة وضمتني طويلاً، ضمتني مثل طفل يذهب إلى مدرسته لأول مرة. بكت أمي وبكيت، بكينا معاً وانتحبنا حتى أن نفسي حدثتني بعدم تركها لولا أني أعلم ان ابي وزوجته ينتظران عودتي على أحر من الجمر.

قلت لها:

- لا تحزني، ساعود قريبا.

غادرت الرمثا، المكان الذي ولدت فيه مرتين وتغربت عنه مرتين. ركبنا السيارة التي تنقل الركاب من الرمثا إلى عمان، حجز لي السائق المقعد الامامي بحسب ما اوصته أمي لأني دكتور، وقفت أمي مودعة طفلها الذي لم تصدق انه كبر وأصبح رجلا، لوحت لي بيدها، قلبها ينبض سريعا، دموع عينيها شلال. أظنها للحظات كانت تريد اللحاق بي.

تحتاج المسافة من الرمثا إلى عمان ساعتين من الزمن تمر خلالها بقرى ومدن، الصقت وجهي على زجاج السيارة، رأيت مزارعين يصلحون أرضهم وراعيا يتمدد تحت ظل شجرة وأغنامه تجمعت لتحمي نفسها من الحر وجمع كلبه أطرافه بالقرب منها، وفي مكان آخر كان أطفال يلعبون، كانت الشمس حارقة، لكنهم يلعبون، نساء يحملن على رؤوسهن أوعية مليئة بالخضار ويقتدن أطفالهن بحرص وخوف.

شوقي لزوجة أبي لا يقل شوقا عن أمي، لن أنكر فضلها عليّ ودورها الكبير في تربيتي، اشتاق لها جدا.

آخر رسالة وصلتني بخط سناء كانت القنبلة التي فجرت غربتي وذاكرتي، كانت الشرارة التي جعلتني أطير بقلبي من باريس إلى الرمثا، مكثت اسبوعا في عمان ثم ذهبت إلى الرمثا. كتبت سناء على لسان زوجة أبي تخبرني عن أمي واستحلفتني بالله أن لا أخبر أبي بأمر هذه الرسالة.

وكتبت في الرسالة:

«أخبرك يا ولدي الذي لم الده ولم أحبل به ولم اشعر بألم المخاض عند ولادته، حتى ولا طلقة واحدة، أنت بمكانة ولدي ولكني لم أرضعك قطرة حليب، لم اسهر على راحتك خمس سنوات هي اهم سنوات في عمر الطفل. أنا يا ولدي الذي لم يوقظني مرة واحدة في منتصف الليل جوعاً يطلب الحليب، أنا يا ولدي مع أنك لم تتوقف لحظة واحدة عن مناداتي بكلمة أمي، لم اجعلك تشعر

ولو للحظة أنك لست ابني، انا شريكة في جريمة وقعت عليك منذ طفولتك.

قد تستغرب لماذا اكتب لك هذه الكلمات في هذا الوقت الذي أنت فيه تعد العدة للعودة إلى وطنك وتحرق آخر أوراق غربتك وتعود إلينا دكتوراً.

اكتب لك وانا متأكدة انك لن تغير مشاعرك من جهتي أو تتغير او تنظر إليّ نظرة زوجة الأب التي تآمرت عليك لتنسيك طفولتك وذاكرتك.

اخبرك في هذه اللحظات عن أمك. أمك أنت التي حملتك تسعة اشهر وخاضت بك آلام الولادة وارضعتك سنواتك الأولى.

من أين تبدأ حكاية الدمع؟ ومن اي وجع يطلع الألم؟ ولماذا يختصر الألم احتضان الأحزان يا ولدي؟ كانت أمك تختار الصمت عباءة لكلماتها وتتشح ببهاء الصبر، حكاية آلام واوجاع أمك يا ولدي مع دموعها، لا تروى عادةً بالكلمات في لحظات الفجيعة التي تتسع وتصير ازمنة مديدة القامة، طويلة العناء، وشديدة المعاناة، والحكاية يا اغلى الناس، الحكاية كانت لامرأة دفع بها الحزن إلى حافة العجز، حاملة معها سجلاً حافلاً كأنه شرفة تطل على إنجازات قام بها الزمن، بثه دفتر حنون يضم صوراً لك ولزوجها ولأطفالها مكتوبة لامرأة أطلق عليها الجميع فاتنة الرمثا وجميلة جميلاتها.

هذه الجميلة الفاتنة كبرت على الكلام، ورواية سنوات الأمومة،

بأفراحها وآلامها، بنجاحاتها وأمجادها والحزن الفائض الذي لم يفارقها، الحزن الذي تعيش معه من زمان، والبيت الذي تسكنه تقيم فيه، مقبرة تجتمع حولها ذكريات وعتمات ونسيان.

صعبة هي الحكاية يا ولدي، وأصعب منها ان ترويها الأم التي ربتك وعلمتك، إن الألم يأكل معي كما يأكل معها في صحن واحد، صحن الوجع، وانتظارات الأيام.

كانت مريم تظهر قوة في الاحتمال، ومناعة أمام جدوى الإفصاح عن المعاناة، اي آلام هذه الآلام، واي ام تستطيع السير مع هذه الاحزان؟! كبرت الأحزان في قلب أمك، وصارت المقبرة تزين بالأشرطة البيضاء والورد الأبيض اكثر فاكثر، لقد استبيح جسدها كثيراً وتعبت ذاكرتها اكثر.

هذه كلمات أرويها لك حتى تعلم انني لم اتآمر عليك كزوجة أب بل كنت أمك التي منحتك حبها وأمومتها.

علمت يا ولدي من أكثر من سيدة رمثاوية ممن كنّ يأتين الى عمان للعلاج ويبتن في بيتنا ان مريم كانت تعيش هذه الظروف بمرارة وكنا نسمع عنها الأخبار لا منها، اخبار لا تسر صديقا ولا عدوا، وختم المرض حياتها وتركها وحيدة تعيش الغربة في قريتها وبين أهلها، كأنها عجوز في التسعين.

ربما تسأل يا ولدي: لماذا أخبرك بهذا الآن وما هي الدوافع؟ لا اريد من ولدي أن يعرف هذا الأمر من غيري، لأنك لا بد أن تعرف هذه الحقيقة فتعتقد وقتها أني تآمرت عليك، وإذا علمت مني في

هذه الأيام وأنت تحـزم أمتعتك لتعود إلينا فإنني اكون والله أعلم يا ولدي أديت تجـاهك أمومـتي ورعـيتك في غـربتك ولم أخف عنك ماضيك وذاكرة لا بد لك من أن تعرفها».

وصلت بنا السـيارة إلى عمـان، توجهت إلى منزلـي وكان أبي في انتظاري، قبلت يده ورميت بجسـدي في حضن زوجتـه، كنت آمل أن أجد حضنا آخر غير أمي بلقاني، حضن صناء، لعنة الله على تلك الرسـالة التي كادت تقتلني. توقفت عن الكتابة لي نهائياً ولم اسـمع عنها خاصة في الفترة الأخيرة.

## -26-
## عمان

رُسخَتْ ثقافة الهزيمة لدى العرب الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر انتصار الجيوش العربية، ولكنهم اعتقدوا بعد ذلك أنه لا يمكن هزيمة هذا الكيان وأطلقوا عليه لقب «الجيش الذي لا يقهر».

هزيمة 67 تثير في نفوسنا دائماً كماً كبيراً من الغصة والقهر، وغالباً ما تمنع هذه الحالة من الحديث عن هذه الهزيمة البشعة، التي قصمت ظهر الأمة العربية فلم تقم لها قائمة منذ ذلك الوقت، وجعلت من دولة الاحتلال أسطورة زرعت الرعب لعقود طويلة في نفوس الأجيال التي عاشت زمن هذه الهزيمة، هذا الرعب الذي مكّن الاحتلال من الهيمنة والسيطرة ليس فقط على الأرض وإنما على العقول والخواطر والأفكار، وحوّل العربي إلى ذلك الغبي الهمجي ذي الكرش الضخم والنظرة البلهاء، الذي لا يهمه شيء من هذه الدنيا سوى الأكل وممارسة الجنس، مقارنة باليهودي الذي يتصف بالذكاء والفطنة والمتسلح بالعلم والمعرفة.

وبدلاً من سماع خبر الانتصار الكبير، عاش العرب نكبة أخرى ونكسة، لمشروع تحرير فلسطين، في حرب سماها المحتل بحرب الأيام الستة، واحتلت فيها إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة،

وشبه جزيرة سيناء المصرية ومرتفعات الجولان السورية، وأدت إلى استشهاد نحو 25 الف عربي، ومقتل 1000 إسرائيلي.

كانت هذه محاضرة لوزير خارجية سابق شاركنا في حضورها انا وصديقي سرور.

وختم الوزير: جدي الذي مات وهو يحلم بقبر صغير في قريته التي تبعد كيلو مترات قليلة عن القدس، وصمد أمام جهاز (الراديو) القديم حتى وفاته بانتظار أن تذيع إذاعة الاحتلال أسماء الأسرى لديها على أمل في عودة ابنه الشهيد عبد اللطيف حياً. جدي هنا مات غريباً في خيمة، وظل يردد طوال حياته قصص هروب الجنود وتركهم لسلاحهم غنيمة دون حرب.

تجولت مع صديقي سرور في قاع المدينة، كان الحزن ظاهرا في شوارع عمان وفي حاراتها، قلت لسرور:

- ثوب حزيران الأسود في كل مكان.

- كانت كارثة يا صديقي، كارثة أصابت كل الناس.

- العالم فرح بهزيمتنا وكأننا من كوكب عدو لكوكب الأرض.

- قال لي يوسف عبد الله عندما التقينا في ألمانيا:

- «جاء حزيران بهمه وغمه، حزيران أسود. هاجمتنا الصحف الألمانية، إعلامهم سبّنا ولعننا وحرض الغرب على المعتدين العرب، رسوم المسخرة في الجرائد تظهر العرب بأقبح الأشكال، وحوش عربية، ضباع تريد أن تفترس الحمل الإسرائيلي الوديع، همجية العرب تود اقتلاع الحضارة والمدنية الإسرائيلية، المعتدون الأوغاد

العرب يودون طرد الشعب اليهودي من موطن آبائه وأجداده، قادت الصهيونية حملة لإثارة الألمان للتطوع في صفوف اليهود، أبدى العمال والصناع وأصحاب المهن من الألمان استعدادهم للسفر إلى إسرائيل، الشعب الألماني ينتظر المعركة ونشوبها على أعصابه، حملة تضليل وعداء سافر للعرب لم أر لها مثيلاً في الدنيا!

ضحك صديقي سرور الذي تسلم قبل ايام منصبا عاليا في وزارة الخارجية وقال:

- كلام عواطف، «اللي راح راح واللي انكسر صعب يرجع».

قلت له: لا بد من العودة، لن ينام العرب على الجرح.

تبسم بسخرية، قال: بعد هذه النكسة سيظل أهلنا في فلسطين سنوات طويلة يبحثون عن تحرير ارضهم.

امسك بيدي وقال:

- هيا، سأريك الذين لا ينامون على الجرح، تعال أعزمك على فنجان قهوة.

قادني إلى مقهى الثقافة، كان المقهى مليئا بالسياسيين والمثقفين الذي يتحدثون عن الثورات العربية والنضال ضد الاستعمار، ذكرني هؤلاء بأول مرة دخلت فيها مقهى، قبل سفري إلى باريس، حيث كنا نذهب إلى مقهى في قاع عمّان الذي ربما كان اول مقهى دخلته في حياتي، لم اكن اتجرا على الدخول اليه وانا طالب في المدرسة، رغم انني كنت أحب دخوله والجلوس فيه وحجز طاولة لي ولاصدقائي وتناول مشروبات مثل القهوة السادة او

الزهورات والشاي بالنعناع لكن الأمر كان ممنوعا علينا، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي أحرجني فيه اصدقائي وأرغموني على الدخول إلى المقهى، لقد تمردت على العادات والتقاليد الصارمة لعائلتي، أذكر شرفة المقهى المطلة على قلب عمّان النابض، وضوء الشمس المتسلل من شقوق السقف في النهارات الحارة، ما زلت أذكر طعم أول فنجان قهوة شربته هناك، كان على حساب صديقي سرور.

لطالما أحببت شرفة هذا المقهى الشعبي، كان يمثل الصورة الشعبية لطبقات سكان عمان وتناقضاتها، دون زيف أو تزوير، كنت من خلال جلوسي هناك اراقب كل ما أحب، أحب ذلك الدفء في وجوه الجالسين أحيانا بصمت وأحيانا يستمعون لوقع حجارة الزهر على الطاولة، تلك الوجوه التي اختفت منها الأحلام ولم يبق منها إلا الأمل بعودة تلك الأيام لكنها لا تعود، كان أصدقائي يشربون الأرجيلة بينما كنت انا أشرب القهوة.

جلسنا أنا وصديقي سرور إلى طاولة وسط الصور القديمة المعلقة على الحائط، أحتسي قهوتي السادة، أو المرة، أستمع لحوارات كانت تصل إلى مسمعي أحيانا من خلال ارتفاع أصوات متحاورين، يتحدثون قليلاً في السياسة، ما بين مؤيد ومعارض، ثم ينتقلون بسرعة البرق إلى الحديث عن الفن، ثم يشعرون بالجوع فيتحدثون عن الأكلات الشعبية.

جلسنا قليلا، شعرت بالملل، طلبت منه أن نغادر إلى مكان آخر، قال: سنذهب إلى مقهى آخر فيه الأبطال الحقيقيون. جلسنا في

ركن داخل مقهى محروس، بعد قليل وقبل أن يحضر لنا العامل القهوة ارتفع صوت التصفيق للحكواتي الذي قال بعد أن لبس نظارته:

- يا سادة يا كرام ويا أهل العلا والمقام، نكمل بحديثنا هذه الليلة قصة عنترة بن شداد البطل المقدام وصراعه مع أقاربه على عبلة المحبوبة الجميلة.

صاح أحد الجالسين في المقعد الأخير من المقهى:

- يعيش عنترة البطل الذي لا يقهر. ناصر المظلومين وحامي الأرض والعرض.

قلت لصديقي:

- اي أرض واي عرض؟!

تبسم صديقي وقال:

- يعيش عنترة.

قال الحكواتي:

- «قال الراوي يا سادة يا كرام إن عنترة لمّا وقع في الأسر بعد أن غدر به عمارة بن الربيع وإخوته ووضعوا له المخدر في الشراب اتفقوا مع والد عبلة وابنه على تزويج عبلة من عمارة ثم يقتلون عنترة. كل هذا وعنترة يستمع لحوارهم، فقال عم عنترة: بل نقتله قبل الزواج.

واتجهوا إلى الخيمة التي سجنوا فيها عنترة مقيدا بالسلاسل وسيوفهم مشحونة بالغضب والانتقام لقتل هذا البطل الهمام».

وقف رجل سمين يجلس في الصف الأول من المقهى وصاح بوجه الراوي:

- اخرج عنترة من السجن وإلا حطمت راسك.

فاجابه رجل آخر يجلس في الجهة الأخرى من المقهى:

- لن يخرجه وعبلة تحب عمارة ولا تريد هذا العبد الأسود.

امتلأت عينا الرجل السمين بالغضب وحمل المقعد الذي يجلس عليه وصاح:

- انا عنترة. أنا عنترة.

ارتجف الراوي خوفا فقال:

- وعندما دخلوا إلى عنترة وجدوه قطع سلاسله الحديدية وحمل سيفه وهرب.

قال الرجل السمين:

- عنترة لا يهرب.

فردت عليه جماعة تؤيده:

- نعم، عنترة لا يهرب.

قال الراوي:

- التف عنترة عليهم من الخلف وأعمل فيهم بسيفه فقتل من قتل وأسر من أسر.

احتج الطرف الآخر في المقهى وهدد الراوي فقال:

- جاءت عبلة إلى عنترة وقالت له:

- اسمع يا ابن العم، أنا أريد الزواج من عمارة.

- الم يكن بيننا حب وعهد؟

- كان زمان.

قال الراوي:

- رمى عنترة سيفه والدموع تملأ عينيه وخرج من خيمته إلى مكان لا يعرفه احد.

قال الرجل السمين وهو يبكي:

- هنا ظلم لقد وعدته، ولا يهمك يا (أبو العناتر) أتركها واختر غيرها من بنات العشيرة.

رد عليه رجل آخر:

- إنه عبد ولن تقبل به اي امرأة.

ودارت المعركة وارتفعت الكراسي عالية، نصف الجالسين مع عنترة والنصف الآخر ضده. خرجنا من المقهى والدماء تسيل من رأس صديقي سرور الذي تعرض لرمية كرسي، تمشينا في شارع الاستقلال، تحدثنا بكل شيء، نضحك مرة ونحزن اخرى ونكاد نبكي ومرة أخرى نحكي عن العشق والعشاق وقصصهم ومغامراتهم.

قال سرور:

- عمان مدينة الحب والعشاق.

- صنع منها سكانها غير الأصليين مدينة رومانسية شاعرية.

قال صديقي ساخراً:

- من تقصد، أفصح؟

- عندما جاءها الشراكسة وجدوها مدينة بكراً فتزوجوها

واصبحت أغلب المناطق في عمان تسمى بأسمائهم، لأنها ولادة شرعية لزواجها منهم.

- لا تنس الشوام.

- الشوام أصحاب تجارة وسياسة ولهم دور فاعل في عمان.

- عمان يا صديقي العاشق تعطي كل شيء، كل شيء دون مقابل.

- استقبلت كل المتغربين المهجرين من أرضهم بين ذراعيها وبأحضانها كالأم التي تحتضن طفلها المصاب بالحمى. انت جربت حضن أمك. عشت هذه اللحظات الرائعة التي يلتصق فيها جسدان معاً كأنهما جسد واحد يحاول الجسد الكبير أن يحمي الصغير ويستبيح نفسه من أجل بسمة صغيرة طفولية.

صمتنا قليلا، نظرت إلى المدرج الروماني الذي أصبح على يميني وقلت لصديقي:

- حفرت اسمي واسم سناء على المدرج الروماني.

دخلت إلى صحن المدرج، درت حول نفسي، التفت الى صديقي سرور وسألته:

- مرت على هذا المدرج آلاف السنين، انظر إليه كم هو قوي، أترى بناه البناءون من أجل تخليد حضارتهم؟ أم من أجل أن يستعملوه في تلك اللحظات كمسرح فقط؟.

نظر إلي وقال ساخرا:

- بل من أجل أن يخلد العشاق أسماءهم على درجاته.

- هذا المدرج وإن سمي باسم الرومان فإنه عربي، حجارته عربية وترابه عربي والذين بنوه عرب. العقل العربي يعشق الفن، المهندسون العرب هم من رسم هذا البناء كما فعلوا في البتراء، حمل العمال العرب حجارته وصفّوها بصورة منظمة وقوية قاومت الزمن. هل تعلم يا صديقي لماذا حجارته كبيرة؟

- حتى تكتب عليها اسمك واسم سناء.

ضحكنا وقلت له:

- حتى تظل تذكرنا بعظمتهم وقوة فكرهم وذاكرتهم وأجسادهم، أجسادهم التي استباحها المحتل الروماني.

قال سرور ساخراً:

- فلسفة جديدة واكتشافاً علمياً يجب تسجيله باسمك.

- ليست فلسفة ولا اكتشاف علمي كما تريد أن تسخر. إنها حقيقة يجب على الجميع معرفتها فأرضنا وحجارتنا لا تستجيب إلا لأهلها ولأبنائها.

سألني صديقي الذي أراد أن يتخلص من حواري الممل: متى ستتزوج؟

- أتزوج؟

ابتعدت ببصري إلى خارج المدرج الروماني، تجولت بعيني في تلك المناطق المكشوفة من عمان، شعر صديقي سرور بغصة في صدري، وعلم أن صمتي سوف يقتلني في يوم من الأيام، أخرج مسبحة بيضاء عاجية من جيبه وحرك حباتها بأصابعه وقال:

- سوف تعود كل الأمور إلى مكانها والحقوق إلى أصحابها.

سحبت المسبحة العاجية من بين أصابع صديقي سرور وسألته عنها، قال:

- أهداني إياها أبي عندما عدت من اكسفورد وقال لي: هي هدية من صديقه مختار الرمثا.

- مختار الرمثا؟

- نعم، اشتراها من تركيا وأهداها لأبي، وقال لأبي إن للمسبحة مكانة خاصة عنده وأهداها له لأنه يحبه.

أخذ سرور المسبحة من يدي بسحبة واحدة وقال:

- لهذه المسبحة وضع خاص عند أبي.

وضعت يدي فوق يد سرور التي تحمل المسبحة العاجية وقلت له:

- رحم الله الراعي، كان لا يترك مسبحته العاجية البيضاء أبدا، لم يتركها من يده إلا عندما مات.

## -27-
# نهاية

دقت ساعة «بيغ بن» بصوتها المألوف ونطق المنيع بصوته الشهير بالجملة المعروفة: «هنا لندن»..

سيداتي سادتي، أسعد الله صباحكم بالخير والبركة.

نقدم لكم أخبار الصباح من مدينة الضباب ونبدؤها بالخبر العاجل حيث وقع انفجار في محل لبيع المجوهرات في شارع «ثريدنيدل» في العاصمة البريطانية لندن يملكه ثلاثة مواطنين يحملون الجنسية الاسرائيلية ورابع مجهول الجنسية وخامستهم فتاة مجهولة الهوية ايضا.

وأكدت مصادر في شرطة سكوتلاند يارد ان الانفجار قد يكون وقع نتيجة قيام الصاغة الثلاث بتجارب كيميائية داخل مشغلهم.

مصدر خاص أكد لمراسل هيئة الاذاعة البريطانية أن العمل قد يكون ناتجا عن عمل ارهابي منظم.

وأعلنت الشرطة ثاني أعلى درجة تأهب وهو ما يعني أن احتمالات وقوع هجوم مرتفعة للغاية.

**

بعد شهر من انفجار شارع ثريدنيدل في العاصمة البريطانية لندن تسلمت رسالة من صديقي إلياس كتب فيها:

«صديقي الدكتور عمر أمين.. ها هي السنة الثانية تمر بعد أن رحلت عنا وغادرت باريس واعلم أنني ما زلت افتقد وجودك وطيبة قلبك الطفولي واود ان أعلمك أنني قبل فترة طويلة التقيت برفيقتنا في رحلة الباخرة الفتاة اليهودية راحيل وعلمت منها انها لم تعثر على حبيبها صبحي السوري وتعمل الآن في إحدى الصحف الاسبوعية، صحيفة من تلك الصحف الصفراء التي تعتمد في أخبارها على الفضائح وتضخيمها، وقد طلبت منها يا صديقي الدكتور أن تتزوجني لكنها اعتذرت، وقد طلبت مني ان اتقدم لك باعتذارها عما حصل في السفينة، تعتذر بشدة منك ايها الطيب النقي عما حصل في تلك الليلة وما تسببته لك بعد ذلك، واود ان انقل اليك خبرا ربما يفرحك. عادت ابنة المسيو فرانسوا من أمريكا بعد أن تركت صديقها الأمريكي، عشنا معا قصة حب وتزوجنا، افتتحت معها مطعما صغيرا سمح لنا والدها ان نقتطع جزءا من بيته توفيرا للمصاريف ومساهمة منه في راس مال المطعم، والدها وافق أن يسكن في جزء من المنزل، الشقة التي كنا نسكنها معا.

اتذكر يا صديقي السيد أحمد تقي الدين ذاك الغني اللبناني، الرجل الذي يعرج، الرجل الذي كان يكرمنا على ظهر الباخرة، التقيت به صدفة وسألني عنك وقال لي إنه سوف يستقر في لندن

ويعمل في المهنة التي تعلمها من والده «صياغة الذهب» واخبرني انه يملك راس مال كبيرا سوف يشتري منزلا ومحلا في شارع «ثريدنيدل» واخبرني ايضا انه تزوج من فتاة لبنانية من اصول فلسطينية كانت معنا على السفينة، اظنه قصد رجوة، وانه سوف يستقر في لندن نهائيا ولن يعود للبحث عن ضالته.

اخيرا يا صديقي، اتمنى ان تكون الآن في احسن حال وان تكون انت وسناء وأمك تعيشون في حياة سعيدة وأدعوك إلى ان تاتي لقضاء شهر عسل جديد في باريس متكفلا بكل المصاريف.

اخوك وصديقك المحب إلياس».

-28-

## الحقيقة

عندما تسلمت قبل سنوات طويلة، تلك الرسالة اللعينة من المسيو فرانسوا، ما زلت احتفظ بها، عندما تسلمتها كدت أموت مصدوما من الرعب الذي أصابني من كلماتها القاسية، كُتب فيها كلام مختصر، عرفت الخط فيما بعد، كان الكاتب مجهول الهوية، كتب فيها:

«بعد التحية والاحترام،

إلى حضرة الدكتور عمر امين،

سناء تعاني، تعاني كثيرا، والدها قسا على امها، حكى معها بصورة لم تعتدها من قبل، كل ذلك وقع بعد أن زارتهم أمك والمحت إلى رغبتك بالزواج من ابنتهما سناء، والد سناء رفض الفكرة، فهو يرفض تزويج سناء من عربي، وقال لأمها:

- «لن أزوج ابنتي من عربي، لن أزوجها حتى لو اضطررت لقتلها ووأدها».

سناء تبكي ليلا نهارا، زهرة تذبل، أمها تخاف أن يقدم والدها على قتلها، سيزوجها أبوها بدون موافقتها، هي تتعذب ولا تريد أن تعذبك معها، أو تتسبب لك او لاسرتك بأي مشاكل، اتمنى عليك أن

تجد امرأة أخرى تسعدك، أرجوك إن كنت تحب سناء أن تبعدها عنك بأي طريقة تجدها مناسبة، حاول أن تنفرها منك لأن حياتها في خطر، إن لم تمت بالمرض سيقتلها أشقاؤها».

قالت لها أمها:

- انت شركسية، نحن من عائلة برجوازية الأصل، لا تكوني مجنونة، الله خلقنا ورزق كل إنسان على قدر ما، أريد لابنتي أن تكون الأكثر تميزا بين بنات الشركس، أبوك لن يقبل، رجال العائلة يرفضون مثل هذا الزواج، ربما يقتلك أحد اخوانك أو أحد أبناء عمومتك وقد يقتل عمر أمين بسببك.

وختم كاتب الرسالة بالقول:

«ثق أن سناء تحبك لكنها غير قادرة على تحمل الضغوطات التي تواجهها وهي تخاف على نفسها وعليك».

عندما قرأت لسناء تلك الرسالة قالت سناء:

- إنها رسالة كاذبة، أمي تحبك وأبي دائما ينحاز لك. وقلت لك سابقا: لو أنك قرأت أوراق جدتي كاملة لعرفت الحقيقة ولما التفت لمثل هذه الرسالة، كتبت جدتي في الورقة قبل الأخيرة: «هذا الفتى الرمثاوي، عمر أمين، يذكرني بنارت وحبه لي، كم أتمنى لو أعيش حتى أراه زوجا لابنتي سناء، لن يسعدها أحد غيره، فهو على استعداد أن يضحي بكل شيء في سبيل إسعادها.

**

قرأت آخر ما كتبته السيدة ستناي زاهر في أوراقها «هل تعرفين يا سناء لماذا اكتب هذه الأحداث؟ وهل تعلمين يا صغيرتي لماذا طلبت منك أن تعطيها لعمر أمين؟ اردت أن يعرف أن الحياة السعيدة لا تأتي بدون صعوبات، وان الحب اقوى من كل الصعوبات التي تواجه المحبين، واردته أن يعرف وهو في غربته أن الفتاة الشركسية إذا أحبت أخلصت وإن تزوجت كانت الشريك الحقيقي لزوجها وجعلت سعادته سعادتها. اردت ان اوصل له رسالة أن الزواج احيانا ليس بأيدينا وإن رسمناه معا فإن بعض الظروف والأحداث قد تمنع محبين اثنين من العيش معا.

وانت يا سناء كوني الزوجة الصالحة التي تعيش حياتها من اجل زوجها واسرتها وبيتها، ابذلي كل ما تستطيعين في سبيل أن يظل الحب الذي رأيته في عيني الفتى الرمثاوي وفي عينيك متقدا دائما ولا تسمحي لشعلة الحب أن تنطفىء ولو كنت في عمر التسعين.

واعلمي يا ابنتي أن هذا الفتى الرمثاوي، عمر أمين، يذكرني بنارت وحبه لي، كم أتمنى لو أعيش حتى أراه زوجا لابنتي سناء، لن يسعدها أحد غيره، فهو على استعداد أن يضحي بكل شيء في سبيل إسعادها».

وكتبت الجدة ستناي في خاتمة أوراقها:

«اخيرا إليك أيتها الحسناء الجميلة، إسمعي يا ابنتي، عليك منذ هذه اللحظة التي جلست أنا وأنت في غرفتي، وقدمت لك

صندوق عرسي، عليك منذ الآن كأي فتاة شركسية أن تطرزي وتشتغلي كل لوازم عرسك، غطاء السرير، وجوه المخدات والمساند، المفارش وستائر غرفة عرسك، طرزيها بالألوان الزاهية المبهجة، وخيطي ملابس عرسك وقبة الرأس الموشاة بخيوط من الذهب والفضة، وطرزي أطراف وحواف شالاتك وملابسك كلها باجمل الخيوط، وقد وفرت لك كل ما تحتاجينه في عملك ووضعته في صندوق عرسي.

وانا اعلم ابتها الأميرة أن أمك علمتك كل ما يجب أن تتعلمه الفتاة الشركسية واعدتك لتكوني سيدة بيت وأُمّاً وزوجة صالحة، وقد وضعتُ لك في الصندوق مشدا مصنوعا من قماش سميك مقوى بسيوارات عظيمة نتوارثه عن جداتنا وامهاتنا.

واعلمي يا ابنتي أن المرأة الشركسية عرفت برشاقة الجسم وضمور الخصر، ولم تترك جسدها ينمو كما يحلو له، قال لنا الآباء والأجداد إنها كانت فارسة تقاتل، وتضرب بالسيف وتمتطي ظهر الخيل، ولهذا لا تترك في جسمها زوائد تعيق رشاقة حركتها وتشوهها.

● الخروج من سوسروقه

واختم لك يا ابنتي كلماتي القليلة، ظلي الفتاة التي تسعد أسرتها بكل ما تستطيع مهما تقدم بك العمر».

وضعتُ أوراق السيدة ستناي زاهر في المغلف الذي تسلمته قبل سنوات من سناء، نظرت من نافذة غرفتي التي عشت فيها وحيدا

بعد وفاة أمي وأبي وزوجته، كانت الغرفة التي أجلس فيها تطل على أحد شوارع عمان الجديدة، كان الشارع مغطى بطبقة كبيرة من الثلج، منع تراكم الثلوج السيارات من السير فيه، ابتسمت لخيال مر من امامي في أثناء ذلك، خيال طفلة تركض فوق الثلج، عقدت لها أمها ضفيرتين تتدليان على ظهرها، وقلت: ليتني قرأتها قبل اليوم.

انتهت تلك الأيام بحلوها ومرها، ذهب الذين نحبهم وبقيت أجلس بالقرب من نافذتي مع أوراق الجدة ستتاي، أعيش الحياة معها كتوأم.

••

مضت السنون وكبر الصغار وانخرطوا في مشاغل الحياة وابتعدوا، تركوا بيوت ذويهم ولم يبق إلا هذه العصي التي نتوكأ عليها.

وضعت الأوراق جانبا، سكبت في فنجاني قليلا من القهوة العربية التي تعلمت صنعها من أمي مريم، شربت ما في الفنجان دفعة واحدة، لقد بلغت من العمر عتيا، نظرت إلى نافذتي مرة أخرى، رأيت تلك الطفلة تركض وتلعب بالثلج، قلت لها:

- انا لكِ وحدكِ.

## الفهرس

للاطلاع على قائمة منشورات وأخبار الوزارة
يُرجى زيارة العناوين التالية:

موقع وزارة الثقافة الالكتروني
www.culture.gov.jo

رابط صفحة وزارة الثقافة على الفيس بوك
www.facebook.com/culture.gov.jo

إصدارات إربد
العاصمة العربية للثقافة

# الحارة القِبْليّة..
# حكاية الشركسية



تأتي هذه السلسلة من الإصدارات بمناسبة اختيار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) إربد عاصمة للثقافة العربية عرفانًا منها بما تمثله إربد من قيم حضارية وثقافية مستقرة في العمق، واستكمالاً لمشروع القراءة الوطني الذي ترعاه الوزارة، وتسعى لتكريسه في كل مناسبة.

وتتضمن هذه السلسلة جوانب متنوعة من الفنون الأدبية، والمسارات الفكرية المختلفة التي ترصد أقانيم المعرفة، وتعاين نمو المشهد الثقافي المشتبك بالمؤثرات الفاعلة على الساحتين المحلية والعالمية من جهة، والمستجيب من جهة أخرى على نحو ما لجهود التخطيط من أجل خلق وعي حقيقي بقضايا العصر ومآلاتها المستقبلية.

9 789957 948672

هاتف 5696218 962 + فاكس 5691640 962 + ص.ب: 6140 عمّان - الأردن
E-mail:info@culture.gov.jo website:www.culture.gov.jo

الكتاب متوفر على منصة الكتبا الإلكترونية
https://alkutba.gov.jo